

يوهانا مانويلا كورتي

مختارات أدبية



وكالة سفنكس

هذه الترجمة الكاملة لرواية
SELECTED FICTION
JUANA MANUELA GORRITI

مختارات أدبية
يوهانا مانويلا كورتي

ترجمة و مراجعة / أسماء مصطفى
وإيمان طاهر وألاء هشام
الغلاف/هانيبال - هيبو
سلسلة من كل بك كتاب - رواية من الارجنتين
الطبعة الأولى/ القاهرة ٢٠١٣
رقم الإيداع:- ١٦٧٢٣/ ٢٠١٣
ISBN : ٩٧٨-٩٧٧-٦٢٩٩-٨٠-١



وكالة سفنكس
٧ شارع معروف الدور السابع
وسط البلد - القاهرة
ت/ف: ٠٢ ٢٥٧٩٢٨٦٥
www.sphinxagency.com
info@sphinxagency.com

جميع الحقوق محفوظة للناسر، ويحظر نشر أو اقتباس هذا العمل أو أي جزء منه بأي
وسيلة
تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على
أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات دون
إذن كتابي من الناسر، ومن يخالف ذلك يتعرض للمساءلة القانونية

Work published within the framework of "Sur" Translation Support Program"
of the Ministry of Foreign Affairs, International Trade and Worship of the

“Argentine Republic

2013 © Sphinx Agency

النأي^١ الاجتماع

دقت ساعة الكاندرائية في "ليما" للتو معلنة منتصف الليل. كانت الطرق مظلمة ومهجورة كالمقابر. أصبحت الآن المنازل التي كانت تنعم بالحياة والأضواء في أول الليل عبارة عن واجهات كثيفة وتنذر بالشؤم. كانت المدينة الجميلة نائمة، تسكن في عمق صمت تتخلله أحيانا الأصوات الحزينة لبعض محبي عزف "البويلا"^٢ أو صوت البحر البعيد الذي يجلبه نسيم الليل وأريج أشجار البرتقال التي تكوّن الغابات العطرية خارج أسوار المدينة.

ظهر رجل في الظلام؛ وجهه مغطى بمعطفه الطويل. مشى خطوات إلى الأمام بسرعة وهو ينظر حوله بحرص شديد، ثم وقف أمام الدرابزينات الذهبية لنافذة قصر حيث مرر أصابعه برفق على التعريشة. فُتحت النافذة المُشَبَّكة.

تساءل صوت حلو ومتناغم كالقيثارة:

-هيرانان؟

وفي الوقت نفسه تقدمت امرأة شابة ذات وجه جميل جدا إلى الأمام، يزين وجهها ضفائر طويلة سوداء مُعَطَّرَة بالياسمين.

-روزا! لا تخافي يا حبيبتي، إنه أنا.

١-وفقا لتقاليد قاطني جبال الأنديز، النأي هو زممار قصبي تعزف عليه مجموعات السكان الأصليين.

٢-آلة موسيقية وترية إسبانية قديمة، وهي نوع قديم من الجيتار.

هكذا أجاب الرجل ذو الوجه المغطى بانفعال وهو يجذب يد المرأة الشابة البيضاء الرقيقة والتي مدّتها نحو صدره.

قالت وهي تتنهد:

-أوه! لقد استغرقت وقتا طويلا لكي تأتي هذه الليلة! أحصيت الثواني بقلبي، ولكنه كان يخفق بسرعة لدرجة أنني أشعر أن قرونا قد مضت منذ الساعة الحادية عشر.

وبعد أن فتحت النافذة المُشَبَّكة على آخرها، ركعت أمام العتبة لتميل أكثر ناحية عشيقها، ثم مدّت ذراعيها النحيلين شديدي البياض كالمرمر خارج السور. كانت إشارة جمعت بين ثقة الشباب وجمال الحس، مزيج يوجد فقط في فتياتنا الأمريكيات، يصحن به كالشمس الحارقة، جمال المرأة الكامل والمثير بكل تحسيناته دون أن ينتزع منهن براءة الطفولة الرائعة.

تأمل الرجل الذي دعت به "هيرنان" وجهها الساحر، يلمس وجهه بنشوة موجوعة.

قال:

-روزا! حبيبتي! لم يسبق لي أن رأيتك جميلة كما أنت الآن؛ كما لم يسبق لعينيك أن أشرقتا بمثل هذه النار الإلهية، ولم يبد صوتك أكثر سحرا لقلبي كما هو الآن. أنت على وشك أن تتركني. تقول كل هذا، ولكن على استعداد لتركي لاضطهاد راميريز الكريه الذي لا يطاق؛ هذا الرجل صديق وزميل والدي، وقد وافق والدي على تسليحه، يعتبرني بكل وقاحة ممتلكاته المستقبلية ويتجاهل تماما أمنيائي، لكن سأجعلهما يعرفان قوة إرادتي التي يتجاهلونها. فحتى لو تخليت عني، سأخوض هذه المعركة الرهيبة بنفسني؛ لن تخذلني شجاعتني. استمر إذن، احتفظ لنفسك بذلك السر المصيري الذي ترفض الاعتراف به أمام حبيبتك؛ كل ما أعلمه أن هذا السر الذي يمنحك

من طلب زواجي من والدي -أنا التي أعطيتك قلبي- ربما يكون شيئاً ما يربطك بأخرى ...

تحوّل صوت المرأة الشابة الجميلة، الذي بدأ صارماً، إلى نبرة متناغمة حلوة وهي تقول تلك الكلمات الأخيرة، ثم صار تنهيدة طويلة.

-روزا! يا ملاكي! لا تزيد من الحزن الرهيب الذي يملأ قلبي بدموعك. أوه! لقد كنتُ أوّجّل تلك اللحظة التي يجب عليّ فيها إثقال قلبك بسري، ولكن اللحظة حانت... حسناً! هل ترغبين في معرفة من هو هذا الـ هيرنان، الرجل الذي التقيت به في مصارعة الثيران بينما كنتِ تجلسين إلى جانب نائب الملك؟ إن هذا الـ هيرنان من "كامبوريال"، الذي تلقى تعليمه مع أبناء الرجال العظماء في إسبانيا هو سليل الجنس المنفي الذي ينظر إليه الجميع، ولا سيما والدك، بكثير من الازدراء وذلك بعد أن أنزلتموه من على العرش وأثريتم أنفسكم بثروته. الرجل الذي يحبك - ابنة القاضي أوسوريو المدللة؛ الرجل الذي تفضلينه على القاضي راميريز القوي الرائع هو نجل امرأة هندية. الرجل الذي يحبك هو روح بائسة لا تمتلك شيئاً في هذا العالم على الرغم من أن قدميه خطت على كنوز عهد بها أجداده إلى أعماق الأرض للحفاظ عليها من الجشع الدموي لطغاتهم.

توقّف هيرنان عن الكلام وحدّق بعمق في عينيّ حبيبته كما لو كان يريد أن يقرأ ما بداخلها، ولكنها وضعت يديها على صدرها ونظرت إليه بنشوة. تعجّبت قائلة:

-ما هذا الذي أسمعهُ؟ هيرنان، اختيار قلبي، هو نجل الأينكا؟! أوه! كان لديّ هاجس بهذا! وإلا لما انتابني هذا الشعور القوي، حتى قبل أن أتعرف عليك، بمجرد تردد اسم مانكو-كاباك أو أتاهوالبا^١ يمكن للمرء قول أنه كان

١- دخلت "أتاهوالبا" في حرب ضارية وشرسة ضد "هواسكار" من أجل المطالبة بحقوقه كإبن ووريث لـ "هوانا كاباك". وعلى الرغم من أنه انتصر في الحروب، لم يمسك "أتاهوالبا" أبداً بزمام السلطة؛ وذلك بسبب التدخل الإسباني. أسره "بيثارو" وأعدمه عام ١٥٣٣. تم اختيار "مانكو-كاباك"، المسمى نسبة لـ "لاينكا"، بعد ذلك بواسطة "بيثارو" لاعتلاء عرش "الينكا" وكان يحكم وفقاً لإملاءات إسبانيا. بعد ذلك حرّض على الثورة ضد "بيثارو" وقتل في معركة عام ١٥٤٥.

هناك صلة تربط قلبي بقبور هؤلاء الأبطال المنسيين، والتي من خلالها تواصلت حرارة دمائي مع رفاتهم الباردة. اعتدت أن أمزج هذا الشعور الغريب بمشاعر الشباب الملتهبة تجاه الأشخاص الذين لقوا حتفهم منذ قرون، بينما كان ذلك في الواقع هاجس لحبي لك، ولكن أخبرني يا هيرنان، حتى وإن كان والدي ينظر لعائلة والدتك بازدراء، كيف يمكن لهذا أن يضعف حبنا في الوقت الذي جعل فيه كونت "كامبوريال" النبيل والدتك إسبانية حينما أعطها اسمها؟

شحب وجهه عندما سمع هذه الكلمات، وتعجب قائلا:

-أوه! والدي المباركة!

واتجه بحب للسماء بنظرة عميقة متأملة:

-هذا الاسم الذي حُرمت منه، هذا الاسم النبيل، لا يزال غير جدير بك؛ فلم يكن ليزيد من شرفك وبطولتك.... كلا روزا، والدي لم تحمل أبدا هذا الاسم؛ ظلم رهيب حرماها منه. أوه! لو كان هذا هو الشيء الوحيد الذي سرقه منها.... مجرد استمعي فقط إلى قصتها يا حبيبتي؛ فقلبك هو الوحيد الذي يستحق فهم ذلك، أنت من أرسلته إلي من السماء لتحلي محلها هنا على الأرض.

الأم

-أول ذكرياتي هي ليوم كنتُ فيه صغيرا جدا وأجلس عند قدمي أمي. كانت امرأة شابة طويلة القامة، رائعة الجمال، ذات عيون واسعة لوزية الشكل....-كعينيك!

همست روزا بذلك بصوت كشف عن عاطفة لا حدود لها وهي تمرر أصابعها الرفيعة على رموش هيرنان الطويلة.

تابع قائلا:

-كان فمها صغيرا، وكانت شفتاها ورديتين ترسمان دائما ابتسامة حلوة

حزينة، فتكشفان أسنان متساوية بيضاء كالثلوج الجبلية. كانت أربع ضفائر طويلة تنسدل من رأسها الجميل لتصل إلى الأرض، يزين جبينها شريط أرجواني اللون، وهو الرمز الوحيد الذي كان يميزها به شعبها في توقيره الحماسي لها عن بنات ملوك بيرو القدامى. عشنا في "كوزكو"، في منزل صغير شُيد قبل الاحتلال. كانت الشمس تشرق في سماء صافية، وغمرنا تدفق أشعة الشمس من نافذة وتوقف عند أقدامنا. كانت أُمي تغزل وتغمر روحها الحزن والتأمل، تتوقف فقط لتحنني لأسفل وتربت بلطف على شعري. كنتُ أتكى على ساقها، ألعب إمّا كمحاولة لوقف آلة المغزل المتحركة وإمّا ألعب بذرات أشعة الشمس وأحاول أن أمسكها بيدي.

تساءل صوت واهن من المدخل:

-ماريا! ابنتي، هل أنت هناك؟

أجابت والدتي:

-تفضل بالدخول يا زعيم القبيلة.

ووقفت للترحب بشخص هندي مسن ذي شعر أبيض وطفلة جبلية.

-تعال يا والدي الطيب. فقلبي حزين للغاية اليوم.

نظر زعيم القبيلة المسن إلى والدتي بحنان ممزوج بالأم.

كررت كنوع من الإجابة لنظرته:

-نعم، حزين جدا. لقد رأيت ما ينذر بمصيبة وشيكة، ولكني لا أعلم ما

هي! في الليلة الماضية حلمت حلما غريبا ملأني بالرعب. هل ستستمع إليّ

يا من يكشف له الرب المعاني الغامضة؟ أخبرني ما الذي يجب أن أخشى

منه؟ كان ابني جالسا على ركبتي، وكُنّا في حديقة مبهجة جميلة جدا

لدرجة أن جداولنا بالمقارنة بينهما تبدو كصحراي قاحلة. كنتُ محاطة

بكافة أنواع الأشجار المليئة بالفاكهة وزهور رائعة متنوعة لا تعد ولا تحصى

يفوح منها العبير، ومع ذلك، وعلى الرغم من أن كل شيء هناك يبعث

على السعادة، كنتُ حزينة، وانتابني القلق مما جعلني أضم نجلي إلى

صدري بقوة. وفجأة، رأيتُ رجلا ضخما الجثة، عملاقا تحل أفرع خضراء

محل أطرافه، كانت ملامحه... أوه، غريبة للغاية! وتنقل كصورة معكوسة على مياه متحركة.

تمتم الرجل الهندي المسن قائلا:

-البحر!

-كانت هيئة الشيخ مخيفة للغاية لدرجة أنه كان له تأثير غير عادي عليّ. شلّت أطرافي؛ لساني كما لو كان ملتصقا بسطح فمي فلم يستطع أن يطلق صرخة واحدة، ومن جسدي كله لم تتحرك سوى عيناوي والتي رأيت بهما العملاق ينتهز فرصة عجزي وأمسك نجلي من رقبتة وانتزعه من بين أحضاني رغم صرخاته، وأخذه بعيدا إلى سهل لا نهاية له حيث اختفى.

قال زعيم القبيلة مرة أخرى:

-البحر!

-أيقظني الألم الذي اعتصر قلبي وكان جسدي، يرتعش بشدة، غمرني عرق بارد وكان صدغاي ينبضان كما لو كانا على وشك الانفجار، ولكن بمجرد أن فتحت عيني ورأيت ابني نائما بين أحضاني، احتضنته بقوة وتبددت كل مخاوفي وحل محلها سعادة غامرة يستحيل بالنسبة لأي امرأة- بخلاف تلك التي فقدت نجلها- فهمها.

وبعد أن حملتني بين ذراعيها، انهالت عليّ بالقبلات والدموع. وبعد فترة تأمل طويلة، سأل الرجل الهندي المسن أمني بقلق:

-أين هو الآن؟

أجابت:

-ذهب إلى "بوينس آيرس" للقيام بواحدة من المهام التي أتي إلى أمريكا من أجلها. لم أعلم عنه شيئا منذ عامين. أوه! يا والدي، أخبرني: هل أحلامي المشؤومة وتلك التكهّنات البغيضة حولي تشير إلى حبيبي فرناندو كونت "كامبوريال" الوسيم؟

سألها الرجل الهندي بمرارة:

-إذن فأنت تحبين هذا الإسباني للغاية؟

-نعم، أحبه!

هكذا أجابت والدتي بصوت حنون.

-قلبي، روحي، كياني كله ملكه. كي أزيد من سعادته سأطلب من الرب أن يُضاعف هداياه وقدراته.

حدّق الهندي في وجه والدتي بنظرة تنم عن الحنان والشفقة المُعذّبة وغمغم بحزن:

-هي أيضاً، مثل أجدادها، يجب عليها الوقوع في فخاخ ذلك العرق المُلحد والتي ينصبونها حول القلوب الرقيقة الحنونة!

-سيكون من العبث يا ابنة كوزكو البائسة أن أكشف المستقبل المظلم الذي قرأته الآن على وجهك ووجه ابنك؛ فلا يمكن لأي شخص بأي حال الهروب بنفسه من مصيره. وإلى جانب ذلك، فإن صوت الحب الحلو والمتناغم سيغطي على الارتجاف الذي يثيره صوت رجل مسن، لكن من الضروري أن أضع ضميرك بين سرّنا وضعف قلب المرأة المتأجج.

وقف زعيم القبيلة وخاطب والدتي بإشارة مهيبة وصوت رصين:
-حفيدة أتاهاوالبا

وهتف:

-هل تقسمين على رأس ابنك وعلى دماء جدك ألا يجبر الحب أو الكراهية أو المداعبات أو العذاب شفتيك على كشف السر الذي تركه له والدك وهو على فراش الموت للطغاة؟

-أقسم!

هكذا أجابت بصوت حازم وهي تضع إحدى يديها على رأسي وتمد الأخرى نحو الشمس.

-ولكن، أوه يا والدي، أنا يا من جلست على كنوز جدي الهائلة وارتجفت من البرد وتألمت من الجوع والتعب حتى لا تقع قطعة صغيرة من الذهب -كان بإمكانها أن تقويني- في أيدي أولئك الذين حرمونا من أرضنا وميراثنا، لا أحتاج إلى قسم من أجل عقد لساني.

اختفى الجلالة الصارمة من عيني زعيم القبيلة وانحدرت الدموع بدلا منها.

قال:

-أعرف يا ابنتي! لكن صوت الحب أقوى من صوت الجوع أو البرد أو التعب. لقد أديت واجبي!

وبينما يحدّق في الفضاء بنظرة عميقة كانت تبدو وكأنها تخترق جسامته المستقبل، صاح قائلا:

-سيأتي يوم يكتشف فيه علم الرجل تلك الكنوز؛ ولكن بحلول ذلك الوقت سيكون الرجال أحرارا ومتساوين وسوف يستخدمون الثروة لخدمة الإنسانية! سينتهي عهد الهموم والاستبداد، وستكون عبقرية الرجال هي فقط ما تحكم العالم، سواء كمن ذلك على رأس أوروبي أو رأس هندي، وفي الوقت نفسه يا ابنتي، سينفذ الرب إرادته معك.

ثم مسح دمعة من على خده الوهن بيده الجافة واستدار ومشى بعيدا ببطء.

ظلت والدتي لفترة طويلة بلا حراك ورأسها تستند إلى رأسي. أفاقها صوت شخص يقترب بسرعة من حالة التأمل العميق التي خلّفتها كلمات الرجل الهندي المسن. دخل رجل أنيق طويل القامة ذو ملامح وسيمة جليلة وكان وقع أقدامه واضح أمام درجة الباب. هتفت والدتي -كامبوريال!

وركضت وأنا بين أحضانها إلى أحضان الغريب، وأجاب قائلا:
-ماريا!

وضمنا نحن الاثنين إلى صدره المزين بالصلبان:
-أهذا ابني؟
-ابننا.

هكذا أجابت على استحياء.

تابع قائلاً:

-أوه! ابني جميل جداً!

ويبدو أنه لم يلاحظ محاولة والدتي البسيطة لتصحيح ما يقول. وبعد ذلك، حملني بين أحضانه على الرغم من مقاومتي المستميتة، وقال لي بطلاقة كبيرة:

-عزيزي هيرنان، يوما ما ستصبح رجلاً متكبّراً في البلاط. وسنتنافس عليك الملكات من أجل بناتهن! ومع ذلك، حتى ذلك الحين، يجب أن تأتي معي إلى "ليما".

هتفت والدتي:

-إلى "ليما"!

ومع كلمات الكونت الأولى، بدأت تشعر بتجمّد كل شعور بالفرح في قلبها؛ تراجعت الآن إلى الخلف وخفضت عينيها وأحنت رأسها:

-أوه يا فرناندو! لم يكن هذا ما وعدتني به! هل من السهل بالنسبة لرجل إسباني محترم التراجع عن وعده بسهولة؟
أجاب الكونت:

-ماريا، إن الوعود التي يعد بها الرجل المرأة، وخصوصاً لأُم ابنه، ليست من نوعية الوعود التي تربطه برجال آخرين. هذه الوعود بالأحرى تشبه تلك التي نقدمها لأنفسنا عرضة للتغيير مع الظروف غير المتوقعة. إذا كنت تحبيني، وإذا كنت تحبين ابنك، يجب أن تفهمي أنه لا يمكنني كما لا يمكن لنجلي قصر مستقبلنا على دائرة صغيرة لدولة فُقدت بين الصحاري فقط لأنني قدمت لك وعداً غيبياً يوماً ما.

وأضاف بنبوة حازمة:

-على أي حال، أنت وابني، إذا كنت ترغبين، سيغادر معي غداً. إلى اللقاء! والدتي لم تعرب عن ألمها على هيئة شكاوى وصرخات؛ فبدلاً من ذلك، شأنها شأن النفوس الرقيقة، أخفت ذلك في قلبها. أغلقت منزلها ورسمت علامة الصليب على الباب كعلامة على الوداع. ثم ذهبت وهي تحملني بين أحضانها لقضاء اليوم بأكمله على المرتفعات فوق المدينة، حيث كررت من

خلال دموع صامتة كلمات زعيم القبيلة التي قالها لها ذلك الصباح:
-الحب أقوى من أي شيء آخر!
ونظرت ابنة جيفتاح إلى أسفل من على قمة الجبال، إلى الوطن الذي كانت
على وشك تركه، وبكت لأجله:
-غادرنا في صباح اليوم التالي.

الاختطاف

عندما وصلنا إلى "ليما"، أصاب الحزن والإرهاق، وربما الحس الداخلي
الحزين الذي نشأ في قلب أمي أصابها بالمرض الشديد؛ ارتفعت درجة
حرارتها وفقدت صوابها وحل محله هذيان رهيب ووصل إلى حالة شديدة
من الاحتياج كلما تم نقلي من جانبها حتى ولو للحظة واحدة؛ فالحلم
الذي رأيته في "كوزكو" كان يتكرر باستمرار مما سبب لها نوبات من الرعب.
في هذه الأوقات كانت تضميني إلى صدرها لدرجة كانت تصيبني باختناق
وتصرخ بعنف؛ وكان هذا يتبعه إرهاق شديد.

و ذات ليلة، عندما غلبتها تلك الحالة السباتية والتي تكون عيناها فقط
سريعتي التأثير -تنظران إلى الخارج، مفتوحتين جدا ومنتهيتين كخفيرين-
كنتُ مستلقيا بجانبها واضعا يدي الباردتين على جبهتها الساخنة، وبينما أنا
مستلقٍ هناك في الصمت الذي يغلفنا، بدأت أغفو، ولكن بعد ذلك رأيتُ
الباب مفتوحا ودخل رجل طويل القامة ملفوفا في رداء أسود طويل ووجهه
مغطى بقبعته.

وعندما رأيته، أمي اتسعت عيناها الكبيرتان جدا وارتعشت أطرافها
الخاملة بشكل عنيف؛ ارتجفت شفتاها بشكل ينم عن ألم عظيم وكسر
لسانها القوة الحديدية التي تعقده، وصرخت بصوت لن أنساه أبدا:
-العملاق!

صرخْتُ بحدة وتعلقتُ برقبة أُمي بإحكام. اقترب الرجل ذو الوجه المغطى ووضع إحدى يديه على فمي واستخدم الأخرى لإبعاد ذراعي والدتي المتبيسة الهامدة عن جسدي وانتزعني ككتكوت ضعيف سُرق من عشه، ثم لَفَنِي في طيات رداءه الطويل وأخذني بعيدا.

بعد أن ناضلت عبثا لتحرير نفسي من بين الأذرع التي تحملتني بإحكام، دفعني غضبي وألمي وخوفي لفقدان الوعي.

وعندما استعدتُ وعيي، وجدتُ نفسي وحيدا في غرفة ضيقة حقيرة ومستلقيا على سرير غريب الشكل وجعلت حركة بطيئة ثابتة كل شيء حولي يتأرجح؛ كان صوت خفيف يبدو كصوت سيل جارف يُسمع من مسافة بعيدة هو الشيء الوحيد الذي يقطع حبل الصمت العميق السائد في هذا الشيء الذي يشبه القبر، هذا المدفن الذي يحتوي على مصباح يخبو ضوءه أمام ضوء اليوم الموعود.

كان أول ما خطر على بالي هو الخوف، ثم تلاه والدتي. قفزتُ من على الفراش بصعوبة وأنا أناديها بصوت بائس. ركضتُ في كل مكان بحثا عن الباب، ولكن لم يكن هناك أي باب في الغرفة، ثم رأيتُ بعض السلام في الطرف الآخر، فتسلقتها على عجل، ويا له من مشهد رأيته أمامي، أنا، الطفل البائس، الذي لم تطأ قدماه أبدا خارج نصف قطر الدائرة التي رسمتها عيون والدته!

اختفت أرض الأحياء مع جبالها ومراعيها وأشجارها وشعبها. سهل أزرق هائل ممتد أمام عيني كالسحب الكثيفة على طول الأفق.

أوه! لن أنسى أبدا الحزن الرهيب الذي اعتصر قلبي في تلك اللحظة؛ فروح الطفل تشعر بالألم بشكل أكثر عمقا من الرجل البالغ؛ لأن الطفل لا يملك

ملكة المنطق، تلك القوة الداعمة الأولية، والتي عندما لا تستطيع التخلّص من الألم تجمّده في قلوبنا.

حوّلت نظري من الأفق إلى الكائنات المحيطة بي. كان والدي، كونت كامبوريال، واقفا أمامي وأجاب على صرخاتي اليائسة بمداعبات، وسعى لإخباري بالسعادة التي سأمتنع بها في إسبانيا التي كُنّا نبحر لها، ولكن، أوه! إذا كانت روح الكونت عُرضة للندم، فبقدر كبر حجم جرميته – وهي انتزاع طفل من بين أحضان والدته المحتضرة – سيكون عقابه أسوأ من ذلك! وكرد على كل شيء جميل نطق به، أجبْتُ بنداء والدي وانفجرتُ باكيا. وبعد أن أصبح البكاء حزنا كئيبا وصامتا، أصبح هناك شعور بالنفور تجاه والدي والذي لم يفلح العقل ولا مرور السنوات في محوه.

نزلنا من السفينة في "قادس"، وعندما وصلنا إلى "مدريد"، ألحقني والدي بمدرسة حيث قضيتُ هناك ثلاث سنوات حزينة جدا، لا ملامح لها لدرجة أنني لا أود أبدا أن أذكرها، كانت كالكابوس. لم تتألف حياتي خارج المدرسة من الألعاب والأفراح مثل بقية الأطفال؛ فلقد كَرَسْتُ كل وقتي لدراستي والتي أحرزتُ فيها تفوقا مذهلا، ولكن هذا لم يثير حسد زملائي، كما هو الحال عادة؛ فعندما لم يروني أشعر بالسعادة أو الفخر في مسيرة انتصاراتي، تركوها لي. وعلى أي حال، لم أكن أبالي بنزعة الخير بداخلهم كما لم أكن أبالي بعداوتهم. شيء واحد فقط عاش في قلبي بصورة محزنة: ذكرى والدي! ففي كل مرة أغمض فيها عيني وأستسلم للنوم، أرى مرة أخرى المشهد الرهيب حينما تم انتزاعي من بين أحضانها، وشعرتُ، رغما عني، بذلك الخوف الموسوم بالحقْد الذي زرعه والدي بداخلي؛ ولذلك عندما كان يأتي لرؤيتي أو عندما كنتُ أذهب إلى قصره، تكون أفضل لحظة بالنسبة لي هي عندما نوذّع بعضنا البعض، إنه يعرف ذلك أيضا. أوه، لقد شهدتُ الكثير من غيوم الحزن واليأس تبدو في ملامحه! وحتى الآن، عندما أفكّر في ألم والدي وأتصورها وحيدة تنادي عبثا على نجلها، أشعر بحزن شديد كنت سببا فيه.

وذات يوم، بينما كنتُ أجلس في الحديقة وأحاول أن أبتسم على مرأى من زملائي وهم يلعبون ويركضون حولي، رأيتُ امرأة ممشوقة، كان وجهها مغطى بحجاب طويل وكانت تمشي تحت الأشجار باتجاهنا، كانت تبدو مضطربة، مستثارة بعمق، تسير بسرعة، وكانت تبدو كالظل، لا تلمس الأرض، وعندما وصلت إلينا، نظرت حولها بسرعة. ثم رمت حجابها إلى الخلف وركضت لترجع أمامي وعانقتني بقوة وهتفت بصوت والدتي الحلو والحنون:

-ابني! ابني! لقد وجدت ابني!

لقد كانت هي! لقد كانت والدتي! الوحيدة التي تموت في "ليما"؛ لقد وجد حب الأم ما يكفي من القوة للانتصار على الهجر، على العزلة، وعلى الموت؛ عبرت مسافة لا نهاية لها، وتحملت بشجاعة مخاطر لا حصر لها لتأتي لرؤية نجلها. بكت وضحكت في نفس الوقت وعانقتني بارتعاش، ثم ابتعدت عني قليلا لتتظر إليّ، وكررت طوال الوقت بصوت تملاه الدموع:

-ابني! ابني! لقد وجدت ابني!

عندما هدأت مشاعري الغامرة الأولى جزئيا، كنتُ قادرا على النظر بشكل جيد إلى والدتي، وفوجئت بالبؤس الذي أنزله الحزن بها، من ذلك الجمال الرائع الذي كان يعجب به دائما كل من ينظر إلى وجهها و الذي أكسبها اسمها "ماما أويلو"، تبقى منه فقط شعرها الأسود الطويل وعيناها الواسعتان واللتان غرقتا في مداراتهما وزادتا اتساعا وأصبحتا أكثر جمالا بفعل تلك المسحة الحزينة التي يخلفها الأسى وراءه إلى الأبد.

ولكنني كنتُ صغيرا لدرجة لا تمكّني من تخمين أي شيء مصري في ملامح والدتي التي تبدّلت، وبينما غرقت تماما في فرحة رؤيتها، في مداعباتها

١- ماما أويلو: زوجة وشقيقة "توباك إينكا يوبانكوي"؛ وبالتالي فهي الأم الكبيرة لـ "لاينكا". إذن تشير "أويلو" إلى فتاة جميلة، تنتمي عادة إلى نسل نبيل، وتوفّر لجمالها وطهارتها.

ونبرة صوتها ومنتعة كل كلمة من كلماتها، لم ألحظ أن وجهها أصبح أكثر شحوبا وعينيها أكثر إرهاقا يوما بعد يوم، وأن صوتها قد انخفض كما لو كانت مغادرة إلى عالم آخر، وأن كلماتها الحزينة في كل وقت قد اكتسبت هيبة الوداع الأخير لشخص يموت.

جاءت إلى المدرسة ذات يوم، وبعد التحدث لفترة طويلة مع مدير المدرسة، أخذتني جانبا.
قالت:

-هيرنان، ابني الحبيب، اليوم هو عيد ميلادك العاشر، وعندما يعاني المرء كما عانينا، يبدأ العقل في النضج في تلك المرحلة العمرية.
وتابعت بصوت عاطفي:
-وبالإضافة إلى ذلك، ليس لدي وقت للانتظار حتى تصبح أكثر قوة؛ يجب أن أسرع وأودع في قلبك السر الذي تركه والدي في قلبي، تماما كما تركه جدي في قلب والدي. أنصت بإمعان إلى ما سأخبرك به يا نجلي العزيز، واحفظ كل كلمة في ذاكرتك.

المدينة السرية

كنتُ أسهر مع والدي الذي يحتضر في منزلنا في "كوزكو". كان كابوسا. ساد صمت عميق مسكننا المتواضع؛ لم يكن أي كاهن يريد أن يتخلى عن ساعات نوم السعيدة ليربح قلب هذا الرجل الذي كان على وشك الرحيل من عالمنا. كنتُ وحدي هناك، أصلي وأبكي وأنا جالسة على ركبتني على رأس فراش الموت؛ ولا يجيب أنيني سوى صفير الريح في الليل؛ وكان النواح يتخلل أيضا سقف منزلنا المصنوع من القش. وفجأة، بدا وجه والدي، الذي كان شاحبا وثابتا بالفعل وكأنه يعود إلى الحياة، وكأنه بفعل مجهود هائل لإرادته. لمعت عيناه بذلك الضوء الأخير لحياة متلاشية، وبعد أن ألقى نظرة طويلة وعميقة عليّ، هتف: "ابنتي، أشعر ببرودة الموت تغزو جسدي، وقبل

أن تصل إلى قلبي، لا بد أن أكشف لك سرا لا يعرفه سوى نسل "الأيوكا"، واستمر يتنقل من أب إلى ابن حتى هذه الساعة الأخيرة من الحياة. لطالما أردتُ أن أودعه في قلب قوي، قلب يستطيع حمل وزنه الهائل، ولكن الرب الذي جعلك الوريثة الوحيدة لي سيعطيك يا ابنتي القوة اللازمة للحفاظ عليه. اصغي إليّ:

عندما غزا الطغاة وطننا البائس وبطشوا بالناس وأشعلوا النيران، ظن أبناء وطننا البسطاء أنهم يمكنهم تهدئة غضب الطغاة من خلال وضع أكوام من المعادن المهمة التي يرغبون فيها تحت أقدامهم، ولكن سرعان ما علموا أن الجشع الشديد لهؤلاء الرجال ينمو مع كل كنز يحصلون عليه، كما ينمو جوع النمر مع عدد الفرائس التي يلتهمها؛ ولذلك، قرر أولئك الذين يعيشون في المناطق الداخلية، والذين لم يفاجأوا كهؤلاء الذين يقطنون على طول الساحل، إخفاء كل الذهب الذي يمتلكونه. وتحقيقا لهذه الغاية، استخدموا المدن السرية الواسعة التي بناها أجدادنا بحكمة أسفل كل من المدن التابعة لنا. أترين يا ابنتي، كم هي كبيرة مدينتنا؟ حسنا، هناك مدينة تحت الأرض أسفل مدينتنا ولا تقل حجما عنها. هل ترين آلاف الأشخاص الذين يعيشون هنا ويسيرون على طول شوارع مدينتنا ويملأون ساحاتها العامة؟ حسنا، فعدد التماثيل الذهبية الموجودة في صالات العرض المظلمة الأخرى يفوق عدد هؤلاء الأشخاص. إن الكنوز التي تم جمعها هناك كثيرة جدا لدرجة أنه إذا كانت الشمس ستشرق عليها، فإن وهج انعكاسها فقط سيكون كافيا لإنارة العالم بأسره. هذا المأوى الهائل من الثروات له مائة باب، والمفاتيح والسر يحفظهما مائة من أقرب أحفاد ملوكنا، وكل منهم عند وفاته، كان يورث ابنه البكر؛ وإذا لم يكن لحامل المفتاح وريث، يتم إلقاء المفتاح في بحيرة تقع في باطن الأرض، وبابها مقفول. أوه! من بين مائة مفتاح، ثمانية وتسعون مفتاحا في أعماق تلك المياه، وفي خلال لحظات قليلة، سيكون أحد المفتاحين المتبقين بين يدي رجل مسن مرتعشة، والآخر بين يدي فتاة ضعيفة.

تابع بصوت يتلاشى بسرعة:

-ابنتي، لقد رأيتني أعيش حياة بائسة وأحرم نفسي من الاحتياجات الأساسية وأعهد ببقائنا على قيد الحياة من عمل يدي، من عرق جبينني، دون أن أسمح أبدا لمعانك أو معاناة والدتك المسكينة أن تقودني للاستمتاع بفكرة أخذ ولو قيراط واحد من الذهب والمخصص لإعادة تأسيس عرش جدنا والمجد القديم لوطننا. إذن قومي بما قمت به يا عزيزي ماري، باسم وطننا، أطلب منك أن تعلمي جيدا، أن تكوني رزينة وقوية في كل الأمور، وعندما تصبحين أمًا، علّمي أطفالك هاتين الفضيلتين؛ فهما مهمتان وضرورتان جدا بالنسبة لنا.

ثم فكّ خيطا من حول عنقه بيده الضعيفة يتدلى منه مفتاح غريب الشكل. قال:

-ابنتي، حافظي على هذا المفتاح حول عنقك وعلى سرّه في أعماق قلبك. ثقي فقط فيمن يريك المفتاح الآخر ... والآن، أيتها اليتيمة المسكينة، اقتربي حتى أقبلك وأباركك.

وبينما أبكي، رميتُ نفسي على يد والدي الباردة بالفعل، والذي مد يده الأخرى فوق رأسي ليباركني.

وعندما نظرتُ إلى أعلى وأنا أشعر بالخوف من الصمت الطويل، كان وجه والدي بلا حراك؛ كانت عيناه المحدقتان في الفراغ قد فقدت حيويتهما وأصبحتا زجاجية، لقد مات وأنا أقبل يده.

على الجانب الآخر من السرير، كان صديق والدي يصلي على ركبتيه. لقد كان زعيم قبيلة مسن، يعتبر نبي ذو نبوءات لا تخطئ بين الهنود. قال لي: -تعالى إلى هنا يا ابنتي. هل تعرفتِ على هذا الشيء؟

وكشف صدره وأراني مفتاحا يشبه تماما ذلك الذي أعطاني إياه والدي،

أريته مفتاحي في صمت. قال:
-هذا جيد يا ابنتي. يجب أن نقوم بالطقوس الأخيرة مع والدك ونضع رفاته
بجوار رفات والدتك.
أجبت باكية:
-أوه! ليس لديّ أدنى فكرة أين دُفنت والدي المسكينة، لم يكن والدي يرغب
أبداً في إخباري، مهما رغبت في الذهاب إلى قبرها والصلاة عليها.
أجاب:
-ستعلمين في وقت قريب جداً.

وأغلق عيون صديقه على نحو ديني وجلس بجواري ليراقب جثة والدي.
في المساء التالي، بمجرد أن دقت الأجراس معلنة عن منتصف الليلة الأخيرة،
نهض زعيم القبيلة بشكل مهيب وأغلق جميع الأبواب في المنزل. اتجه إلى
الجثة الراقدة على السرير وحملها بين يديه، هي وكل الأغصان التي كانت
ترقد عليها، وترك الفراش الذي كان عبارة عن طبقة من التربة المقواة على
الأرض. قد حفر في الأرض على بُعد مسافة قصيرة هناك حتى اكتشفتُ باباً
صغيراً أمرني بفتحه بمفتاحي. اتبعت تعليماته؛ وبمجرد أن أدركتُ المفتاح في
ثقب الباب، انفتح الباب نحو الخارج كاشفاً عن سلسلة طويلة من السلام
الحجرية التي تؤدي إلى أعماق الأرض وتتحول إلى ظلال.

أطفأ الرجل المسن كل الشموع المضاءة حول الجثة باستثناء واحدة طلب
مني أن أحملها وهو ينزل إلى باطن الأرض، في حين تبعني بحمولته القائمة.

ساعدتني قدمي المرتعشة على النزول خمسين درجة، عندما رأت عيني
مشهداً غريباً؛ فبدلاً من أن يتبدد ضوء شمعتي الكبيرة الثقيلة في الظلام
تحت الأرض، بدا وكأنه ينعكس من أشياء ضاعفت قوتها بمئة ضعف.
وبينما يملأني الرعب، التفت لأنظر خلفي إلى رفيقي، لكنه أشار إلى أنني
يجب أن أستمروا. ومع ذلك، كلما نزلتُ كلما زاد إشراق الوهج المنبعث من

انعكاسات الأشياء الموجودة في باطن الأرض.

وأخيرا وصلتُ إلى الدرجة الحجرية المائة، وعند تلك النقطة، أذهلني المشهد الذي تراءى أمام عيني وأجبرني على الاستناد إلى كتف زعيم القبيلة.

كانت قدماي تقف على كميات هائلة من الذهب الذي يغطي أرض وجدران صالة عرض شاسعة لا نهاية لها. كان الذهب هناك على شكل تماثيل مذابح ومعبودات ومزهريات وفاكهة وزهور وذهب في شكله البدائي: أحجار عريضة وقطع ضخمة غير منتظمة. توقفتُ وأنا مستغرقة تماما وتأملتُ المشهد السحري أمام عيني، لكن الرجل المسن الذي لم تثره تلك العجائب، تابع سيره مما اضطرني للسير أمامه. سرنا لبعض الوقت عبر المسار الرائع، ثم اتجهنا إلى اليسار ودخلنا كهفا واسعا، وهناك اجتمع الرعب والإعجاب؛ فعلى طول الكهف كان هناك صفان من المشكاوات الذهبية والتي تمتد على طول الطريق حتى النهاية، وتنتهي عند سفح عرش كبير مصنوع من نفس المعدن. كان العرش وجميع المشكاوات تقريبا تملأها الجثث التي تبدو وكأنها كانت على قيد الحياة بالأمس، بعضها مزين بملابس رائعة، والأخرى مغطاة بخرق من معاناتنا الحالية. اتجه زعيم القبيلة إلى إحدى المشكاوات الفارغة ووضع والدي فيها، وبعد ذلك، ودون أن يسمح لي بالركوع وتقبييل أقدام والدي، التقط يدي وسار بي إلى آخر درجة عند العرش.

قال لي:

-سليلة "مانكو كاباك" ^١، حيي جدك.

رددت الأصداء الأرضية كلمات الرجل المسن ألف مرة، كما لو كان الجميع هناك يأمروني بنفس الأمر. ركعتُ وأنا أرتجف ولمست بشفتي سفح عرش

^١ -مانكو كابا: أول حاكم من الأينكا، والمؤقر كشخصية تأسيسية.

الملك الميت الشهير، ثم قدّمني زعيم القبيلة إلى كافة ملوكنا القدامى الذين ينامون جميعا نومتهم الأبدية هناك، بداية من ابن الشمس وحتى أتاهاوالبابائس الذي أُبِدت رفاته المقدسة الآن بعد أن استعادها الهنود سرا لتودع في مكان دفن أجداده لتنتهي ذلك النسل الملكي الطويل. وبعد الملوك يأتي أحفاده الذين تتعارض خرقهم البائسة بشكل حزين مع التواييت الحجرية الرائعة التي يرقدون فيها.

وحينما التفتنا للخلف، تعرفتُ على جثة والدي في المشكاة الكائنة إلى تلك التي تحتلها جثة والدي. لم تشوّهها السنوات الطويلة كثيرا في قبرها فكانت تبدو كما رأيته في اليوم الذي ماتت فيه بين أحضاني، عندما كنت لأزال طفلة. جددت رؤيتها شعوري بالخسارة المزدوجة، ولكن الرجل المسن جفف دموعي بنظرته الصارمة. قال:

-يا ابنتي، أنت وأنا الآن الوصيان الوحيدان فقط على آثار ملوكنا المقدسة وكنوزهم الهائلة، ولكي ننجز مهمتنا، يجب أن نتحلّى بالشجاعة؛ ولكن ضعفك بدأ في الظهور عند أقدام ظلالهم المهيبة، أولئك الذين لديهم مصير استثنائي مثلك ومثلي لا يسمح لهم بالبكاء. كلماته الأخيرة والتي تخص ما تبكين عليه تتوسل إليك أن تكوني قوية. أطيعي أمره الآن، وكوني قوية ضد ألمك وحزنك حتى تكون لديك القوة اللازمة لمواجهة البؤس والاضطهاد في وقت لاحق.

ثم أمسك بذراعي بسرعة ودفعني للخروج من المدينة السرية وغطى الباب خلفنا بنفس الطبقة من التربة التي كانت هناك من قبل.

اللعنة والوعد

وبعد ثماني سنوات، عندما رأيته تؤخذ من بين أحضاني في تلك الليلة المشؤومة، دفعتني معاناتي البالغة إلى أزمة، والتي بدورها حفظتني.

في بادئ الأمر، خشيتُ من الاستسلام لمشاعر اليأس؛ فكان ذلك سيؤدي إلى موتي وحرمانك من حب الأم، تلك الملاك الحارس ذو الأجنحة النارية، القوية والتي يمكنها الطيران من قطب إلى آخر من أجل إنقاذ طفل أو إعطائه قبلة والتي لا يمكن للمحيطات أو الصحارى إيقافها. أردتُ العيش حتى أراك مرة أخرى، وفكرتُ وأنا أرتجف من السعادة والرعب، فوجدتُ أنني أعرف طريقة أكيدة تمكنني -على الرغم من كونها مرعبة- من تحقيق هدي، يمكنني أن أعصي رغبة والدي المتوفي!

عدتُ سيرا على الأقدام في نفس الطريق الذي كنت أسير فيه وأنت بين أحضاني قبلها ببضعة أيام فقط. أوه، لقد عانيتُ كثيرا! كل حجر، كل تفصيلة في المشهد أيقظت ذكريات مؤلمة، وتحت ظلال هذا الجلمود توقفتُ حتى تحصل على بعض الراحة على هذا الحجر، جلستُ حتى تتمكن من النوم، ومن تلك النافورة أخذتُ الماء لأروي عطشك. أوه! مرات عديدة، تطغي علي مثل هذه الذكريات المؤلمة، فكرتُ في الموت، الذي يجعل لكل شيء نهاية، أوه! مرات عديدة أسير على طول حافة الهاوية وأدع جسدي ينحني وتتدلى قدمي فوق الهاوية، ولكن في كل مرة تظهر صورتك أمامي لتنفذي كالملاك الحارس، صورتك ملأت قلبي واحتلت روعي واستوعبت أفكارى وجعلتني لا أبالي بأي شيء آخر سواك. إن حب الأم هو شعلة سحرية يفوق لهبها -بالنسبة للأم- أضواء الكون الأخرى وتضيء وحدها في الأفق.

وعندما وصلت إلى "كوزكو"، ذهبْتُ وعزلتُ نفسي في منزلي المهجور. وبينما أقاتل رعبي وهلعي، أزلتُ طبقة التربة الثقيلة التي تغطي الباب المؤدي إلى المدينة الكائنة تحت الأرض وفتحته. هبت عاصفة من الرياح والبرودة والرطوبة في وجهي وجعلتني أراجع إلى الوراء وأنا خائفة. بدا لي أن اليد المجمدة لمن كنتُ على وشك مقاومة إرادته تحاول منعي من الدخول وتهددني باللعنة. شعرتُ أن القوة التي دفعتني إلى هناك ضعفت، ثم، وكما هو الحال دائما، تذكرتك يا بني، لكي تساعدني. تذكرتك كما كنت

في تلك الليلة الفضيعة وذراعيك تمتد نحوي؛ تذكرتك وأنت تبكي وتنادي عليّ عبثاً؛ فتبددت مخاوفي وندمي. نزلت الدرج الرطب بإصرار وركضتُ إلى صالة العرض الجنائزية حيث ركعتُ أمام رفات والدي. صرختُ:
-أوه! يا من أورثتني مفتاح هذه الكنوز، أنت تعلم، أنت تعلم، لقد أطعْتُ رغباتك الأخيرة بإيمان. أنت تعلم أنني عشتُ في الفقر والظلام، عندما طلب الحب مني استخدام هذه الثروات الذهبية لرفع نفسي لمكانة الكائن الذي ولّد هذا الحب في قلبي. لقد عانت اليتيمة عزلتها وبؤسها بصبر؛ وكبّدها العاشق الذل في صمت، ولكن -أوه، يا والدي العزيز!- لا يمكن للأُم أن تستسلم لفقدان ابنها، وأتمنى أن أسترِد نجلي! أشفق على أُم مسكينة! اسمح لي بأن آخذ القليل من الذهب الذي يساعدني على التغلب على المستحيل، والذي يمكن أن يعيد ابني لي، والذي سيكون بالنسبة لهذه الكنوز الهائلة كقطرة من الماء بالنسبة للمحيط. وإن لم تأخذك الشفقة بحزني، إذا ظلمت قاسي -أوه يا أبي - إذن فلتدع لعنتك لتصيبني، فلا يمكنني طاعتك!

ترددت الأصداء من كل مكان في المدينة الأرضية: "لعنة! لعنة"، ولكنني سمعتُ تلك الأصوات المشؤومة بلا مبالاة. نهضتُ بكل عزم وأخذتُ الذهب الذي كنتُ أحتاجه من أجل خططي، ثم غادرت المدينة الأرضية وكذلك مدينة "كوزكو". ودون توقف، بدأتُ رحلتي الطويلة التي أوصلتني إليك، ولكن لعنة والدي تبتعتني؛ فهي ترهق تفكيري وتستهلك حياتي كنار من العالم الآخر.

-هيرنان، ابني الحبيب، عدني ألا تكون جريمتي مخففة؛ عدني أنك ستفتديها بالخير الذي ستقدمه لأمتنا!

هتفتُ ودموعي تنحدر وتسقط عند قدمي أُمي:

-أخبريني يا أُمي! ماذا عساي أن أفعل؟

قالت وهي تُجلّسني على ركبتيها:

-اسمع يا بني، تتحدث نبوءاتنا عن محرر سيعيش وقتاً طويلاً بين أعدائنا ويتعلم علوم الفاتح ويعود ليحطم السلاسل التي يستعبد بها وطننا ويصل

به إلى مزيد من المجد والسعادة. عدني بأنك ستكون ذلك المحرر، ولكن لتحرير إخواننا لن تستخدم الكراهية التي تتطلب دماء سادتنا، ولكن التنوير الذي يجعلنا مساويين لهم، إنه أكثر الوسائل السامية وبقينا ستؤدي بنا إلى التحرير. انظر حولك يا بني؛ فلم يعد هناك شيئاً يربطك بهذه الأرض؛ فوالدك -والذي بلا شك يخاف من أن تأتي المرأة الهندية المسكينة التي وثقت به وتطالب بحقوق ابنها- سارع وتزوج بأخرى. وأولادها هم من سيحملون اسمك ولقبك.

سمعتُ بالكاد هذه الكلمات الأخيرة؛ فللمرة الأولى استيقظ بقلبي وتر لم يهتز من قبل. غمرتني إثارة غريبة وومضت رؤية مجيدة في ذهني. اعتقدتُ أنني رأيت الرجل من النبوءات، مُحاط بضوء متوهج، ويحمل سيفاً نارياً في يد ويَطْوَح بسلاسل العبودية باليد الأخرى، وعندما امتلأ قلبي بإيمان متحمس، أقسمت لوالدي بأنني سأفعل ما طلبته مني.

عانقتني مرات عديدة وهي تبكي، وبعد أن فكّت الخيط من حول رقبتها والذي يحمل المفتاح الموروث، وضعته حول عنقي وقالت: -شكراً لك يا بني، شكراً لك! عندما تعود إلى وطننا، لا تعد وحدك، لا تترك والدتك في أرض أجنبية، خذ بقاياها معك. إذا كانت شمس المنفى لا تبعث حرارة للأحياء؛ فكيف يمكن لها تدفئة هؤلاء الراقيدين في القبور...؟

أتى شخص ما ليقاطعها، لقد كان كابوساً بالفعل، وكانوا على وشك إغلاق الأبواب.

سمعت والدتي هذا الإعلان بحزن، احتضنتني بقوة بين ذراعيها لفترة طويلة، متممة بكلمات غريبة بصوت هامس، ربما كانت صلاتها الأخيرة، وضعت بعد ذلك يديها فوق رأسي وقالت بصوت هامس: -أي! أوه ياأي، عالياً في السماء، أتركه لك! واختفت. لم أرها ثانية! لقد أنت في منتصف محنتها الأخيرة لتودعني لآخر

مرة ...!

كرّست السنوات العشر التالية لدراسة العلوم حتى يمكنني الوفاء بأمانيها الأخيرة، وعندما وصلت إلى سن العشرين، عدتُ إلى موطني وقلبي يخلو من أي مشاعر أخرى سوى ذكرى والدتي وتحقيق المهمة المزدوجة التي عهدت بها إلي، ودفن رفاتها تحت سمائنا وتحرير إخوتي بإخراجهم من هاوية الجهل التي يدفنهم الطغاة فيها وفقا لحساباتهم البغيضة يوما بعد يوم، ولكن والدتي أحببني كثيرا؛ فجعلتني انتظر طويلا جدا حتى أستطيع مكافأة طاعتي، أرسلتك إليّ، أوه، يا ملاكي السماوي، لتكوني البسمة في حياة ابنها، بحيث أنه عندما أوفي بخطتها وأحاط نفسه قبل بلده وقبل إسبانيا نفسها بالمجد، يجب أن تكوني أنت مكافأته.

قاطعت صافرة طويلة قصة هيرنان.

هفت روزا:

-يا إلهي! تلك هي فرانسيسكا، خادمتي المفضلة، الوحيدة التي تعرف سرنا، والتي أتاحت لي الفرصة لأعرف أن والدي قد استيقظ بالفعل. لقد حان وقت افتراقنا! ولكن قبل أن تتركني، عزيزي هيرمان، قل أنك ستغفر الظلم الذي حكمت به على قلبك النبيل! أوه! إذا كان الرب يقدر لنا أن نلتقي مرة أخرى وأن أكون لك، كما تتوقع، إذن ستجد كنوزا لانهاية لها من الحب في قلبي لتعوضك عن وحدتك الماضية! يجب أن أكون صديقتك، شقيقتك، والدتك، حبيبتك، خادمتك، ولكن، أوه! نذير شؤم مظلم يغلف المستقبل أمامي بكفن، ومن خلاله لا أرى سوى ظلال الموت. صوت كئيب، لا أستطيع تحديده، ويبدو وكأنه ينهض في روحي، ويصرخ: "يجب أن يسقط أحدكما! عليك أن تختاري!" أوه! إذا كان يجب أن يموت واحد منا، فليكن أنا، فليكن أنا! وجودي على هذه الأرض لا قيمة له؛ دعني أكون الزهرة المسكينة التي تعيش ليوم واحد فقط، بينما تعيش أنت لتنفذ خططك السامية ... وأيضا لتبكي. أوه! كل ما أطلبه هو أن تدعني أنام بجوارك نومتي الأخيرة، مثل والدتك يا هيرنان! أخبرني إذا كانت هواجسي صحيحة بأنك ستحمل الرفات

الأبدية لمن أحببتها أينما تعيش. عدني أنك ستكمل حياتك معي، حتى ولو قام الموت بحمل روحي بعيدا، وأنت لن تدفني في الأرض الرطبة والباردة وحيث لا يمكن لبصرك أن يصل إليّ! قال:

-عزيزتي روزا! حزنك يُذهب عقلي. توقفي عن تعذيب قلبك وتحطيم قلبي بمثل هذه الأفكار القائمة. انظري إلى وجهك المشرق بالشباب والجمال؛ انظري إلى عينيك، المليئة بالجمال والحياة؛ اشعري بقلبك كيف يخفق بالحيوية والحب، وأخبريني إذا كان يمكن للموت أن يكون قريبا منك! أوه! فبدلا من ذلك، دعيني أكون متيما بك خلال الوقت القصير المتبقي هذه الليلة وأن أتأملك، بينما تراودني تلك الفكرة الممتعة بأنني سأراك مرة أخرى حينما أصبح مشهورا وقويا وأستحقك في النهاية، دعي قلبي يشعر بالفخرالذي أعطاني إياه حبك. قدرة الرجل كبيرة، وبينما تغمريني بحبك، سيساعدني حبي لك لأن أفي بكل ما طُلب مني.

مال إلى الأمام من خلال السور واستندت شفاه العذراء الحمراء المثيرة على شفاه الشاب الحارة المتلهفة، وملأت قبلة حارة طويلة الجو حول العاشقين اثنين بلهيب الهوى. سمعا الصافرة مرة أخرى، بصوت أعلى من ذي قبل. وبعد لحظة، كان الشارع خاليا تماما، وكان الصوت الوحيد الذي يمكن سماعه حول النافذة المغلقة هو هديل حمام سانتا روزا وهي تحيي أول أضواء الفجر.

الخادمة

بعد ستة أشهر من المشهد الذي وصفناه للتو، وفي ليلة شبيهة، توقّف رجل آخر والذي يغطي وجهه أيضا بعباءة أمام قضبان نفس النافذة والذي قام بنفس ما قام به الرجل الآخر؛ مرر أصابعه على تعريشة النافذة، ولكن

عندما فُتحت النافذة، فبدلاً من وجه روزا الأبيض الناعم الرائع، وبدلاً من هيرنان العاشق المحظوظ والخطيب الوسيم، كان هناك زوج من العيون اللامعة والأسنان البيضاء لإمرأة زنجية يحيط بها الظلام.

وكالشبح الأبيض في المرة السابقة، انحنى هذا الشبح أيضاً إلى الأمام على حافة النافذة وتحدث بصوت هامس:

-سيد راميريز، هل أنت هناك؟

-نعم، فرانسيסקا. لقد جئت لأتم اتفاقنا؛ فخطبتك سارت بشكل أفضل مما كنتُ آمله.

-ماذا تعني يا سيدي؟

-أرسل جاسوسي خطاباً قائلاً أنه لولا الخطابات التي أوقفتها لما كان قلب حبيب روزا امتلاً بالحزن والقلق، ولكن الرسالة التي كتبتها، والتي أخبرته فيها عن خيانتها له والتي قمت بتزويرها بذكاء، حوّلت ذلك القلق إلى شعور من اليأس الرهيب بالنسبة له، وكان ذلك أمراً رائعاً بالنسبة لي.

-هل انتحرت؟

-لقد أخذ على نفسه عهداً بأن يكون كاهناً.

قالت الزنجية:

-كاهناً؟ لقد توقّعت أن تسير الأمور بشكل مختلف، ولكن ليكن ذلك. على أي حال، لن أكون هنا في الوقت الذي سيتضح فيه كل شيء. ومع ذلك، هذا الشاب الذي من "كامبوريال" يثير بداخلي نفس الكراهية التي يثيرها الرجال الآخرون ذوو البشرة البيضاء؛ فهو مثلي، كان لديه بعض الأسى في قلبه.

ثم خاطبت الرجل الذي يغطي وجهه:

-على أي حال يا سيدي، فأنا لم أقم فقط بكل ما كنت ترغب فيه، ولكن أيضاً كل ما أثاره إخلاصي لك بداخلي. تستطيع الحكم على مدى إخلاصي العظيم من خلال عظمة التضحيات التي قمْتُ بها. فقط بدافع ولائٍ العميق لك استطعتُ ملأ قلب سيدي الجميلة الطيبة بأقصى ما يمكن أن

تواجهه النفس البشرية؛ وفاة الكائن الذي تحبه. أوه! لو كنتُ نظرت إليها فقط كما فعلتُ يا سيدي، عندما أخبرتها تلك الكذبة الخبيثة...
-توقفي يا فرانسيسكا! توقفي! لا تتحدثي إليّ عن حبها لذلك الرجل؛ فأنت بتلك الطريقة تخطئين في حقي وحققها أيضا. أشكرك لدهاءك، فكما تعلمين، فقد خضعت أخيرا لرغبة والدها وستكون زوجتي، ولكني لا أود أن أتذكر أيضا كثيرا أنها قررت أن تتزوجني بسبب خدعة وأن قلبها قد يصبح ملكا لآخر إلى الأبد! أوه! لا أرغب في التفكير في ذلك؛ فذلك سيعني الكثير من المعاناة بالنسبة لها. دعينا نتحدث عنك يا فرانسيسكا. هاك تذكّار لتقديري إياك.

وكشف وجهه وأعطى الزنجية حقيبة كبيرة. تابع قائلا:
-بذلك الذهب ستسترددين حريتك وستصبحين سعيدة أينما تشائين. وداعا! وغادر بسرعة.

أغلقت الزنجية النافذة المشبّكة. وبينما تضم حقيبة الذهب إلى صدرها بإحكام، هرعت عبر القاعات الكبيرة وعبرت الفناء وصعدت الدرج اللولبي لبرج مراقبة القصر حيث غرفتها في قمته. وبعينها الواسعتين وقلبها الذي يخفق بعنف، ركعت على ركبتيهما أمام مصباح مضيء صغير في زاوية وحلتّ الحبل الذي يحمل كنزها بيد مرتعشة.

-عشرة!... عشرون!... خمسون!... مائة!... مئتان! مائتي أوقية من الذهب!

أغلقت عينيهما كما لو كان بريق الذهب أو حلم السعادة قد أصابها بالعمى. مدت يدها فوق كومة الذهب، وعدت مرة أخرى:

-عشرة!... عشرون!... ثلاثون... هنا تكمن حريتك يا زيفا، أو يا فرانسيسكا، كما يدعوك ذووا البشرة البيضاء منذ أن جعلوك تركعين بين مائتين من أبناء بلدك مكبّلة بالسلاسل وأعطاك كاهنهم ذلك الإسم الغريب الذي لا يعني لك شيئا، وأخذوا اسمك، زيفا، والذي كان أول ما نطقه أطفالك وهم بين أحضانك!

ثم نهضت بسرعة وهرعت إلى النافذة وفتحتها ومدت ذراعيها خارجها

نحو نقطة بعيدة في الأفق الواسع وهتفت:

-أفريقيا! موطني الجميل، يا من تحتفظ في قلب النار بالكائنين الوحيدين
الذين أحبهما في العالم بأسره! سرعان ما أصبحت حرة وقادرة على تقبيل
شواطئك المباركة مرة أخرى! إيبارا! ليلا! أطفالى الأعزاء! توأمي الصغير
الحبيب! من كان يدري أنه سيتم أسري عندما ذهبت إلى تلك النافورة
المشوومة، وأنني وضعتكما لتناما في كوخكما الصغير المصنوع من الأماليد
في حجرتنا تحت ظلال أشجار النخيل، من كان يدري أن خمس سنوات
ستمر دون أن أراكم؟ سرعان ما يُعيد والدتكما إليكما، وقبل أن تمضي فترة
طويلة، سأحتضن كل منكما بذراع، كما كنتُ أفعل من قبل، وأغني من
فرحتنا لأصداء الصحراء. ويجب أن يتكرر غنائي في الكهوف حيث سيسعد
الأقل شراسة من ذوي البشرة البيضاء الذين كانوا يجيبون أنين أم يائسة
بالإهانات والضربات، وكمموها حتى لا تشعر وحتى لا تستطيع نطق
أسمائكم.

ومضت عيون الزنجية، المليئة بحب أمومي لا يوصف، بنيران حزينة
وهي تقول تلك الكلمات. صرّت على أسنانها المرمرية وبرزت عضلات رقبته
ومدت يدها كروح سحرية تمحّص القصر وهتفت:

-أوه يا أصحاب البشرة البيضاء! لم تأخذكم بي أي شفقة حينئذ، ولن آخذ أي
شفقة بكم الآن! لقد سرقتم مني سعادتي، وأنقذتها ببيع سعادتكم. ففي
مقابل عودة أمل أولادها، يجب أن يتوه عاشقون في دروب اليأس، أب،
وزوجة، وزوج سيصابون بالعار...و... من يدري ماذا يمكن أن يحدث أيضا؟
...إنني أنقذ نفسي، وأنتقم! لكي أنقذ نفسي وأنتقم في الحال! يا له من حظ!
الحرية! الانتقام! أحبيك يا وطني! أطفالي! سأراكم قريبا!

أطلقت قبلة نارية في الهواء وأغلقت النافذة فجأة، تاركة القصر مغلفا
بظلام دامس.

العودة

كان صباحا ساخنا في يناير. ملكت الشمس وحدها سماء جافة فارغة، وكانت تلقي أشعتها الثاقبة على ليما الجميلة. كانت تقف برشاقة في وسط واحة مبهجة، وكانت تبدو وكأنها تنظر إلى الخلف، إلى والدها المتألق بطريقة مرضية وتبتسم كما لو كانت تغمز له.

على أحد الجبال، توقّف مسافر ليتأملها. كان كاهنا شابا وسيما، ولكن محفور على وجهه الحزن العميق القاتم. حدّق في المدينة الساحرة بنظرة تعبر عن الحزن وبذراعين متقاطعتين باستسلام.

قال وهو ينظر للأعلى بعينين سوداوين كبيرتين:
-إلهي الرحيم! أشكرك لأنك سمحت لقلبي أن يظل قويا، على الرغم من مرارة ذكرياتي، والآن أعود إلى المكان الذي شهد سعادتي السابقة! المحب الذي خدعته خطيبته، لقد خُدع قلبه بقلب كان يعتقد أنه نقي وعطوف للغاية، تذكرتُ نداءك السامي- تعالوا إليّ أيها المعذبون، وسأكون مصدرا لراحتكم - وركضتُ إلى أحضانك ورحبت بي وأرحتني وقويتني. والآن، أيها الرب الرحيم، أطلب منك أن تنهي مهمتك معي! اجعل روحي تزهد كل شيء سواك، و ... اغفر لي أيها الرب الرحيم، هذا الطلب، في ذكرى حياة مليئة بالحزن، لكنني أطلب منك أن تقصّر طول رحلتي في هذا العالم المليء بالألم، على الرغم من كونه صغيرا جدا، أطلب منك أن تضمّني بسرعة إلى جانبك، حيث تنتظرني والدتي المسكينة منذ فترة طويلة عند أقدام والدتك! وأحنى رأسه خاضعا لإرادة الرب وسار ببطء على طول الجانب الجبلي شديد الانحدار.

تدنيس المقدسات

في أحد أيام الآحاد، في الساعات الأولى من الصباح، تجمع المؤمنون المهمومون بمجرد أن دقت الأجراس التي تعلن بدء القداس. ملاً حشد كبيركنيسة "سانت ودومينجو". كانت ليما أكثر النساء نبلا وجمالا هناك وكانت ترتدي تلك التنانير التي أثارت حسد النساء في كل مكان آخر في العالم. كانت وجوههن مغطاة جزئيا بالشال الغامض الغامض المثيرالذي لمعت من خلال ثناياه كالنجوم بين الغيوم، عيون لا مثيل لها في العالم بأسره يجب أن تحرك قلب الرب فرحا عندما ترفع له أثناء الصلاة. بالقرب من الدرجة الأولى من المذبح، ركعت امرأة شابة والذي كان جمالها لا مثيل له في الكنيسة، ولكن بياضها الشاحب جعلها تبدو كالجثة. ارتفعت عياناها السوداوان الواسعتان الرائعتان وهما تحملان تعبيرا عن الحزن العميق اليأس. كان فمها الصغير البديع يبدو وكأنه مايزال يحتفظ بالصرخات التي شوّهته، وحتى ملابسها التي تنم عن حالة حداد تام، دلّت على أنها عانت من أحزان هائلة ومستعصية جعلتنا نتمزق إربا بقبضة من حديد، فلم تدمر حاضرا فقط، ولكن أيضا بثت أنفاسها السامة في أبعد ذكريات ماضيها وخلود مستقبلنا.

بدأت المرأة غارقة في صلاة صامتة. ولدى رؤيتها بيديها المعقودتين أمام صدرها وعينيها الناظرتين لأعلى والمحاطتين بهالات مزرقّة، فرما يظن المرء أنها تمثال لمريم العذراء عند سفح الصليب. وفجأة، ارتجفت شفيتها، وغمغمت باسم بصوت هامس.

قالت وهي تتنهد:

-هيران! إذا وجدت السماء جميلة للغاية لدرجة أنك لن تتركها حتى للحظة واحدة كي تأتي وترى المرأة التي أحببتها من قبل، اكشف عن شخصيتك لي على الأقل في أحلامي، دعني أراك تبسم في وجهي في ذلك العالم المدهش غير المحسوس، العالم الوحيد الذي يمكنني رؤيتك فيه الآن.

وفي الوقت نفسه يا حبيبي، ضم صلاتك إلى صلاتي، واسأل الرب أن يقصّر منفاي هنا في هذا العالم الحزين المظلم منذ توقفت عن العيش فيه. أوه! لو كان يمكنني على الأقل تكريس نفسي لحزني وأن أتهد وأصرخ وأن أدع الصرخات التي تدمي القلب تملأ روحي! ولكن كلا! فبعد أن دمرني أبناء موتك الرهيبة، اضطررت للعودة إلى الحياة والزواج من آخر تشاهد عينه اليقظة دموعي ومدى تنهيداتي؛ فبعدما أصبح مالك كياني المادي، يريد التطفل على محراب ذاكرتي، حيث اتخذت روحي ملجأ لها بجانب صورتك وما بقى منك، إنها ملكك تماماً!

وبينما تصلي وتبكي، وبينما تبحث عيناها بين سحب البخور المتصاعدة عن ظل الشخص الذي يعيش في العالم الآخر والذي تملأ ذكراه قلبها- اتخذ كاهن شاب طويل القامة وشاحب الوجه يرتدي أثوابا مقدسة اتخذ مكانه خلف المذبح.

تمّت ملامحه عن انهماك ديني عميق تعارض مع المظهر الشارد العفوي الذي أقام به بعض كهنة الكنيسة الآخرين القرايين المقدسة في ذلك الوقت.

وبعد تلاوة كلمات المسيح بخشوع، التفت إلى الحشد ليلقي تحية الرسول الأخوية، ولكن بدلا من ذلك، سُمعت صرختين في وقت واحد تحت قبة الكنيسة، ثم ضاعتا وسط أصوات الناطق والأناشيد الدينية المقدسة.

هتفت المرأة التي ترتدي ملابس الحداد:

-إنه على قيد الحياة!

وفقدت وعيها في أحضان الخادמות اللاتي يحطن بها.

قال الكاهن:

-إنها تحبني!

واتكأ على المذبح وهو مرتعش وشاحب الوجه.

وعندما حانت لحظة بلوغ السر الإلهي، كان من بدأ يقولها بقلب نقي مليء بالتقوى يعرف أنه مذنب لأنه معبود من قبل الناس؛ فالكاهن نسي كلمات التكريس المقدسة.

القارورة

في تلك الليلة، في منزل قديم مفقود بين بساتين "سركادو"، كان رجلان غامضان يتحدثان في مختبر تحت الأرض. كان أحدهما مسنا وذا ملامح بغیضة؛ عيونه الوحشية وأنفه المنحني وشفاته الرفيعتان تكشف أنه ينتمي إلى سلالة يعقوب المنحلة. أما الآخر فكان يغطي نفسه بعباءة طويلة وكان وجهه مخبأ بين طياتها.

كان اللهب الأحمر ملوقد كيروسين صغيرة يضيء المشهد ويحيط الرجلين بتوهج مشؤوم. من يراهما في تلك الساعة، في أسفل ذلك الكهف الأسود، في ظل الوهج الكئيب، يظنهما اثنين من الشياطين يدبران مكيده لروح حتى تصبح ملعونة.

قال الرجل المغطى بالعباءة:

- إذن أنت تقصد أن تقول أن هذا السائل سيذیب برودة وجمود الموت؟ ونظر إلى قارورة صغيرة مليئة بسائل ذي لون أحمر داكن وهو يرفعها في الضوء.

أجاب الرجل المسن:

- نعم يا سيدي النبيل. إنه مخدر قوي مستخرج من نباتات سحرية باليمن. لن تكون هناك حاجة إلى أكثر من ثلاث قطرات لإحداث التأثير الذي وصفته للتو.

- بدون أي من الشروط اللازمة للحفاظ على الحياة؟

- هذا السائل الرائع يحتوي بالفعل عليها جميعا.

- زن كلماتك بعناية أيها اليهودي الشرير، فأقسم، والرب على ما أقول شهيد،

أنه إذا كنت تكذب، سيصلك نصل خنجري، وحتى عبر أسحارك المنحطة.
-أقسم برب إبراهيم يا سيدي النبيل أن ما أقوله لك هو الحقيقة المحضة.
تم عمل هذا الإكسير الإلهي للحفاظ على الحياة بكل ما فيها من حيوية،
تحت المظهر البارد للموت، في أي مكان يكون المرء فيه تحت تأثيره....
سواء استخدمه.

وأضاف الرجل المسن وهو يحرق بنظرة شريرة عميقة في وجه الرجل
المُسَجَّى:

-سواء استخدمه زوج غيور، على سبيل المثال، والذي تزوج سيدة من خلال
الغدر، وأراد أن يضع زوجته في قبر ويدعها تموت قبل أن يعود حبيبها
القديم إلى الحياة تحت شمس الفلبين الحارقة ، أو ...
بمجرد أن تلفظ بهذه الكلمات، جذب الرجل المُسَجَّى المسن من عنقه
وصوب نصل خنجر لامع إلى صدره.
صاح الرجل المُسَجَّى:

-أيها التعيس البائس! كيف عرفت؟ أخبرني، وإلا سوف أقتلك.
-أوه! يا سيدي النبيل، هل ستلطخ يديك بدماء يهودية؟ إذا كنت أعرف من
أنت، ما أهمية أن تعلم أو لا تعلم كيف عرفت ذلك؟ وعلاوة على ذلك،
ألست عرّافا؟ حسنا إذن. لقد فتحتُ برجك، وأستطيع أن أخبرك أنك بدلا
من أن تقتلني، ستشكرني ثلاث مرات. في المقام الأول، من أجل المجهود
الذي بذلته للتشاور مع النجوم لتحديد مصيرك؛ وثانيا بسبب ذلك الجزء
من قوة الرب الموجود في تلك القارورة، وأخيرا بسبب خاتم سليمان. وهكذا
خلص الإسرائيلي ووضع إصبعه على شفّتيه.

دفع الرجل المُسَجَّى الرجل المسن بقسوة إلى الخلف وألقى إليه بحقيبة
من الذهب وأخذ القارورة ولف نفسه بشكل أكثر إحكاما داخل عباءته ثم
تسلّق سلما حلزونيا وعبر بستانا وقفز فوق جدار من الطوب اللبن وغادر

الشارع بخطوات طويلة وسريعة.

وبعد نصف ساعة، توقّف أمام باب سري والذي يؤدي، من خلال الجزء الخلفي، إلى منزل كبير ورائع. فتح الباب بمفتاح صغير ثم أغلقه خلفه وأضاء شمعة. كان يقف في غرفة تزخر بصور جدارية حريرية وديكورات ثمينة.

ألقي الرجل عباءته. كان رجلاً لطيفاً ووسيماً، ولكن ملامحه الحادة، والتقطيب الغاضب الذي يحجب حاجبه يكشف عن رجل ذي شخصية متهورة ومشاعر قاسية. ذهب إلى المكتب وترك الشمعة الذي أضاءها وأخرج من جيب الصدر القارورة التي حصل عليها من الرجل المسن وتفحصها لفترة طويلة وارسم الحزن على ملامحه، ثم اتجه إلى الباب وأزاح بساط الحائط أمامه ودخل ومعه مصباح مرمرى يعطي إضاءة هادئة. في منتصف ذلك المظلل كان هناك فراش ذهبي ذو ستائر مخملية قرمزية، وعلى هذا الفراش الجميل والباهت، كما لو كان بداخل حلم رائع، كانت هناك امرأة نائمة في الظلام وكان رأسها يستند على أحد ذراعيها، يغطي صدرها شعرها الأسود الطويل. كانت هناك بلا شك صور حزينة تزعج عقلها النائم؛ فبين حين وآخر تصيبها نوبة من التشنج وتتمتم شفتاها المفتوحتان قليلاً بأنين، ويمكن أن نرى دمعة تتلألأ عند طرف رموشها الطويلة.

وعند طرف الفراش، كانت هناك خادمة سوداء تجلس على كرسي وتراقبها -أو، لكي نتوخى مزيداً من الدقة، كانت تنام على نحو طبيعي. وبالقرب منها، في متناول اليد كانت هناك منضدة الليل وعليها العديد من الأدوية وكأساً ذهبية بها شراب.

اقترب الزائر الليلي بهدوء من الفراش ونظر إلى وجه المرأة النائمة الجميل للحظة ثم اتجه إلى منضدة الليل وسكب ثلاث قطرات من السائل الأحمر من القارورة في الكأس الذهبية. وبعدها تأكد من أن السيدة والخادمة كانتا

نأمتين، غادر بسرعة، بنفس الهدوء الذي دخل به، واختفى خلف بساط الحائط.

في صباح اليوم التالي، كانت مدينة ليما تشعر بحزن شديد نتيجة لحادث مؤسف؛ فواحدة من أكثر سيدات البلاط الملكي جمالا وتميزا وهي زوجة القاضي راميريز الحاكم المنتخب للجزر الفلبينية قد ماتت في أوج شبابها وجمالها. لم يتلق زوجها العزاء فيها. وبينما يرتدي ملابس حداد رسمية، وقف عند الجزء الخلفي في الجنازة وحمل حبيبته إلى حيث ما تنتهي قصص الحب؛ حمل جثة زوجته بنفسه إلى المقابر الكائنة أسفل الكاتدرائية وأرقدوها لتستريح في قبر فخم احتفظ بمفتاحه قريبا من قلبه.

الرجلان المُسَجَّان

بمجرد ان انتهت الصلوات المسائية وأطفأت الألف شمعة حول المثلوى، شرع حافظ غرفة المقدسات، وحده وسط ظلال الكنيسة الشاسعة، في غلق جميع الأبواب. وبمجرد أن عبرت خطواته المتثاقلة بالفعل صحن الكنيسة الثلاثي، توقّف أمام الباب الذي يؤدي إلى دهليز الساحة.

كان يغلق قفل الباب الخلفي الأخير عندما حطت يد باردة على يده وشلّت كل عضو فيه وجعلته يتجمد من الخوف.

هتف الحافظ المرعوب:

-يسوع! يا إلهي العزيز! ماذا تريد مني؟

ومع الضوء المتذبذب لمصباح خلفه، رأى شبعا يظهر أمامه وهو مُسَجِّي في عباءة سوداء طويلة.

-اصمت!

هكذا قال صوت مستبد وفظ من داخل العباءة المظلمة، وجذبت نفس

اليَد الباردة راعي الكنيسة المذعور نحو المقابر الكئيبة. وهناك توقّف الشبح والتفت إلى الراعي وأشار إلى الباب. ومن منطلق خوفه، سمع الراعي المسكين الشبح المُسَجَّى يقول بصوت دنيوي آخر:
-افتحه!

ففتح الباب المأتمى ونزل الشبح إلى بيت الموتى. هتف الراعي:
-مصاص الدماء!

وولّى هاربا وهو ينتفض من الرعب، ولكن بمجرد أن خطا خارج الكنيسة، خارت البقية الباقية من قواه. سقط على ركبتيه وظل في مكانه، بلا حراك، مذهولا ولا يشعر سوى برعب هائل استمر يزعجه ويشوّش عقله ويجعله يرى سلسلة طويلة من الأشباح تمر أمام عينيه، ومرارا وتكرارا، تنظر إليه نظرات شرسة. ومن بين هذه الأشباح الخيالية، بدا أحدها فجأة مختلفا وأفطع من بقية الأشباح الأخرى؛ فرأى الحامي، وقد بلغ منه الرعب مبلغه، شبعا يتقدم نحوه تحت أقواس داكنة اللون ويمر أمامه ويختفي خلف أعمدة الباب الخلفي. إنه مصاص الدماء. كان يغطي نفسه، كما كان الحال من قبل، بعباءته السوداء الكبيرة وكان يحمل بين ذراعيه شيئا أبيض اللون وملفوفاً بأحجية طويلة كانت تحلق كضباب ليلي حول الشبح. وعندما رأى مصاص الدماء، سقط بوجهه على الأرض وغمر جسده عرق بارد ولم ير أو يسمع أي شيء آخر حتى دقت الأجراس - بعد وقت طويل - أعلى رأسه معلنة منتصف الليل. في تلك اللحظة بالذات، وفي هذه المرة تحديدا، أمسكت يد بشرية قوية بذراعه وهزّته بعنف ودفعته للوقوف على قدميه. وضع رجل مُسَجَّى - والذي كان يترك قبعته تنسدل على عينيه على الرغم من قدسية المكان - حقيبة من الذهب في يده وخنجرا أمام صدره، وقال بصوت أكثر خبثا من صوت الشبح:
-اختر.

أجاب الرجل المسكين وهو يُمسك بأثقل الخيارين:
-ماذا تريدني أن أفعل يا سيدي؟

أجاب الرجل المُسَجَّى وهو يدفع الراعي إلى الأمام:
-الصمت والطاعة.

وخطا هو أيضا إلى الأمام باتجاه البانتيون الكائن تحت الأرض. وعندما
وصلا إلى مدخل المنطقة الحداثية، قال الرجل المجهول:
-اسمع، كل ليلة في هذه الساعة، ستنتظري هنا. إذا كنت موجودا في الوقت
المحدد، بمفردك، ستحصل في كل مرة على حقيبة من الذهب مثل التي
أعطيتها إياك الليلة، لكن إذا لم تأتِ، أو خرجت كلمة واحدة من بين
شفتيك ... هل تفهمني؟ والآن، افتح الباب.

أخرج الرجل المُسَجَّى فانوسا من تحت عباءته ونزل أيضا على سلام
مدفن الموتى. أمّا الراعي، والذي بددت كلمات الرجل المجهول الدنيوية
أي مخاوف خرافية لديه، فقد بدأ يستعيد السيطرة على نفسه عندما
سمع الرجل يلعن بشكل فظيع من الأسفل. وبعد فترة قصيرة، ظهر الرجل
المُسَجَّى مرة أخرى ووثب نحوه وصاح، وهو يتلعثم من الغضب:
-أيها التعيس البائس! تكلم! من الذي دخل إلى هنا قبلي؟
صرخ الراعي وهو يشعر بالرعب بسبب الخنجر الذي يصوبه الرجل إلى
صدره:

-ارحمي يا سيدي!

-اصمت! من الذي دخل إلى هنا؟

-إنه لسخط يا سيدي؛ فلا يوجد ما يمكننا القيام به إزاء الأرواح؛ فلقد قام
شبح بزيارة القبور، ثم اختفى وسط العديد من أشباح الكنيسة.
تمتم الرجل المُسَجَّى:

-أدرك تورطك بهذا أيها اليهودي الحقيق!

وألقي بقارورة مليئة بسائل أحمر على الأرض فتحطمت، ثم قال:

-لكنني سأجرك، أعدك بهذا. وأنت يا شريكه، يا من سمحت لشخص
بسرقه الموتى من قبورهم، ها هو جزاء جريمتك.
وطعن الراعي المسكين ثلاث طعنات في صدره.

في اليوم التالي، عُثِرَ على الرجل البائس ميتا في بركة من الدماء عند سفح المذبح. وبعد وقت قصير من هذا الحادث المأساوي، شرع الحاكم المستقبلي للفلبين-تليه حاشية متباهية- في رحلة في قادم إسباني إلى الهند، وانطلق في الرحلة وفقا لأوامر ملكية. أبحرت السفينة واختفت مع ضوء النهار المتلاشي، ولكن رأى بعض الصيادون المبحرون حول خليج "تشوريلو" بشباكهم جانب السفينة خلف صخور "سانلورنزو" فأسقطوا قارباً على متنه رجل جَدَّفَ نحو اليابسة.

الأغنية

في الساعات الأخيرة من يوم ربيعي، تجوّل رجل خلال إحدى المسارات الوعرة التي تخترق مرتفعات "إيلاهوامان" الثلجية، وهو غير متأكد من وجهته. كشفت خطواته، والتي كانت أحيانا بطيئة ومتعددة وأحيانا سريعة وواثقة، عن وجود معركة بين روح قوية وجسم مرهق. كان يرتدي رداءً داكناً وكانت رأسه مغطاة بقلنسوة وكذلك وجهه بقناع أسود. وعندما وصل إلى القمة، توقّف ونظر إلى أسفل وحَدَقَ بعمق وبشوق في وادي "أوروبامبا" المبهج الذي يمتد تحته. هتف بغضب شديد: -ها هو، إنه هناك.

ومد يده نحو نقطة في مكان ما في المشهد اللافت للنظر أمامه: -ها هو هناك، كما تنبأت النجوم؛ قصر مبني على أطلال وثنية ستفيدنا علومك الشيطانية في أمر ما في نهاية المطاف أيها اليهودي اللعين. إنه يعدني بالخطيئة وسيسلمه لي في النهاية، ولكن يجب أنه سيكون حظ يائسة، فسوف يأتي في شكل انتقام! نعم، انتقام! ممقوت، رهيب، وقاسٍ.

واصل المسافر بعزم مسيرته التي أوقفها لفترة وجيزة، وسرعان ما اختفى أسفل منحدرات الجبل الحادة.

كانت بقايا الصقيع الأخيرة من فصل الشتاء قد ذابت مؤخرا مع نسائم الربيع الدافئة. وبالفعل، في مكانها، جعلت زهور السوسن والزنباق العطرة شواطئ الجداول الرملية تبدو بيضاءً وابتسمت زهور نبات السَّمار والبنفسج وسط الأعشاب تحت ظلال أشجار الصفصاف، وفي التجويفات الكائنة بين الصخور، فتحت زهور البروميليا والمنثور بتلاتهما العريضة لنسمات المساء كما أطلقت البساتين المزهرة رائحة ورودها النفاذة وتوحد همس الرياح الناعم من خلال أوراق الشجر مع أغاني طيور السمينة المغردة والبلابل والأشجار الصنوبرية^١ لإضافة المزيد من الجمال إلى سحر ساعات النهار المتأخرة الغامض.

وفي منعطف غير متوقع في الوادي، في نهاية صف من الصفصاف وفي وسط غابة من أشجار سيبا - والتي تتناقض زهورها القرمزية بشكل حاد مع لون أوراقها الأخضر الداكن - كان هناك قصر مبني بطراز ينتمي إلى العمارة العربية ومشيدٌ على منصة من أنقاض قديمة والتي أعطت جوا من الظلال والغموض. كان محاطا بحدائق مبهجة وغمرت رائحة أزهار البرتقال والياسمين والورود وأشجار شيريمويا برائحتها العديد من قاعاتها. أسعدت النوافير الباردة الأذن بهمس مياهها المنبثقة الحلو وأشبع نسيم الليل بنسمة رطبة وعطرة. وتحت القبة الخضراء لخيمة من الآس، كانت يداها على أوتار قيثاره من العاج، امرأة - جميلة تحت ضوء القمر - تتكئ على وسائد مزركشة.

كان هناك أيضا رجل يجلس في الظلال بالقرب منها. لقد كان المسافر ذو القناع الأسود. وإلى جواره كانت هناك طاولة مليئة بالفاكهة والنبيد. قالت المرأة بابتسامة ملائكية:

-استرح أيها المسافر المبارك، استرح وتمتع بثمار حديقتنا.... ولكن من فضلك، اكشف وجهك حتى يمكنني أن أرى طلعتك الجليلة.

^١ - الصنوبرية هو طائر في بيرو.

أجاب المسافر بصوت خجول ومتواضع:
-أشعر بأسف عميق لعدم قدرتي على تلبية طلبك أيتها السيدة الجميلة،
فأنا أحمل وصمة ملحوظة على جبهتي تبدو كعلامة ملعونة، ولقد أقسمت
أن أبقئها غير ملحوظة حتى تُمحي. وحتى ذلك الحين، طعمي مر، فلا
يمكنني قبول مآدبتك.
-حافظ على قسمك المقدس إذن، ولكن على الأقل استمع إلى غنائي وأنت
تستريح.

عزفت أصابعها البيضاء المقدمة لأغنية عاطفية وعذبة، ثم رفعت صوتها
الملائكي خلال سكون الليل بلغة "الأيُنكا" الحلوة وغنت:
-بين شواطئ مياه الرِّمَّاء المضطربة الصافية وموجات المحيط الزرقاء،
هناك وادٍ مدهش واسع حيث ينام الربيع دائماً على سرير من الزهور.

وفوق هذا الوادي فالسما دائماً زرقاء؛ أشجار البرتقال والعنب والموز
وأشجار النخيل تمده دائماً بالظل، وتحت الأرض هناك مغناطيس قوي
يجذب نظرات وقلوب الناس من كل ركن من أركان العالم.

كل شيء هناك يبتسم، والحياة عبارة عن حلم لذيذ، لا يود أحد الاستيقاظ
منه، ولو حتى ليدخل الجنة. نعم! فهناك، كما في الجنة، موطن الجمال
والحب.

الملائكة التي تسافر عبر السماء تنزل إلى هناك لتستريح وتعيد أكاليلها،
ولكن إلى هناك أيضاً يأتي الطفل البريء الملعون ليخفف حدة حزنه الهائل
للحظة.

وهكذا تملك بنات هذا الوادي المبارك عيون الملائكة الإلهية، وقدرات
إبليس الإغرائية التي لا تُقاوم.

لا تنظر إليهن، إذا كنت لا ترغب في أن تعطي قلبك لهن؛ فوحده سيفر
من صدرك ويقفز في نيران عيونهن.

المرأة تسود هناك بسلطة مطلقة، هناك يمتلكن مملكة العناصر وهن
ملكات الخلق.

ومع ذلك، في هذا المكان حيث ينحني كل شيء أمامهن، حيث تحكم المرأة
ومعها كل السيادة، وحيث تجد السعادة في الهواء الذي يتنفسه، هناك
امرأة تنادي الموت كي يأتي إليها.

شابة وجميلة، دماء الفاتحين تركض خلال أوردتها، والسلطة والبذخ هزّ
فراشها الذهبي.

لما ابتعدت عن مثل هذه الآفاق المشرقة؟
عاشت في جو من العشق وكانت زوجة لرجل كان يعبدها.
إذن لماذا ترغب في الموت؟

-لأنها كرهت ذلك الرجل، فابنة إسبانيا أحبت ابن الشمس، ومرار الوقت
امتلك الالبيريال المتكبر جسدها، وروحها تنتمي بالفعل إلى تشاسكا- ناوي
إنكا' وظلت كذلك لفترة طويلة.

وهذا هو سبب ذبولها وفنائها كزهرة انتزعت من ساقها. وبعدئذ، وبينما
تنام حزينة، ظهر ملاك الموت بكأس في يده وقال لها:
-هل ترغبين في الموت؟
ارتعشت الشفاه البيضاء لامرأة تموت، وتمتمت بصوت قلَق يائس:
-نعم.

وضع الملاك ثلاث قطرات من كأسه على تلك الكلمة العليا. وفرت جميع
أشكال الحياة من جسد المرأة إلى قلبها، وعلى الرغم من أنه توقّف عن

١ - تشاسكا-ناوي: الاسم الحقيقي، حرفياً: "عيون نجمة الصباح".

الخفقان، احترق كنار محتدمة، بينما استلقت أطرافها باردة وبلا حراك وأصبحت عيناها كالزجاج ولم تعد قادرة على الرؤية ثانية. أصداء غريبة ترددت في صدرها، تنهدات متكررة، صرخات الحزن، الأغاني الجنائزية، وضربات كضربات مطرقة على غطاء نعش.

ثم صمت، صمت قبري طويل . أين كانت؟ أكانت تعبر المناطق السفلية للخلود؟ أوه، الرعب! تلك الظلمة الباردة والصامتة، هل هي الهاوية؟ هاوية العدم التي ستختفي فيها روحها!

ولكن الصدى داخل الصدر المتجمد استيقظ وأصدر صوتا قائما وحزينا وشجيا. كان صوتا مألوفًا، صوتا أحبته في وقت آخر، في عالم آخر، ربما في السماء. تردد الصوت العزيز بصورة أروع وأقرب.

في أعماق هذا الفضاء المظلم، بدأت تدرك الخطوط العريضة لشخصية سماوية مضاءة. لم تكن الصورة المتجهمة لملك الموت، كلا، لقد كان وجهها جميلا حزينا رقيق الملامح لروح من أرواح الحب التي تطوف لتجمع أحزان العالم وتضمها إلى صدورها.

واقترب الشبح السماوي وأزاحت يده كفن الموت الأبيض جانبا واستندت شفتاه على الجبهة الباردة، وارتجف جسدها لدى اللمسة الإلهية.

نار الحياة، المخبأة في أعماق قلبها، امتدت وركضت عبر أوردها في موجات مشتعلة. استعادت شفتاه الشاحبة لونها الأحمر وارتجف صدرها بتنهدات عميقة وانفتحت جفونها ونظرت عيناها حولها بنظرات متحمسة.

أين كانت؟ في السماء؟ كلا! لا تضم السماء بين كنوزها السم الذي شعرت به في روحها المسروقة.

تحت القباب الذهبية لقصر مسحور مفقود بين أوراق أشجار حدائق
كثيفة، كان تشاسكا-ناوي يحملها بين ذراعيه
صاح المسافر وهو ينهض فجأة:
-نعم!

ولم يعد يتحدث بنبرة متواضعة، ولكن بنبرة غاضبة لمسافر رهيب
من إيلاهوامان. نعم! أسفل هذه القباب الغامضة، في ظل تلك الحدائق
الهادئة، وهبت نفسها لملذات حب مذب، لا تعلم أن الرجل الذي امتلك
جسدها من قبل وأخفاها في قبر كان أيضا هناك. وبخنجر في يده والانتقام
مرشده، انزلق هذا الرجل بصمت الثعابين بين جدران الحديقة، ووقف
فجأة أمامها وقال:
-انظري إليّ هنا. ربما تكون قد وهبت روحك لآخر، ولكن حياتك ملك لي،
وأنا هنا لأطالب بها.

ألقى المسافر بقناعه ووقف هناك بشكل عنيد ورهيب. شحبت السيدة
أمام الشبح الشرير، ولكن بعد ذلك نظرت بعينيها الجميلتين للسماء
ومزقت الأحجبة حول صدرها، وبتعبير سامٍ يصدر فقط عن أولئك الذين
يستسلمون للقدر قالت:
-ها هو قلبي. اطعنه!

ومضت شفرة الخنجر في الظلال، ثم اخترقت صدر المرأة العاري ثلاثة
مرات. وسطع ضوء القمر الأبيض الآن -الذي كان يسطع على ساكنة القصر
المسحور الجميلة من قبل- فقط على جثة دامية.

النأي

حلت رياح العاصفة بالمنطقة وهبت قوتها التدميرية خلال الوديان
الضيقة للسلسلة الجبلية واجتاحت الحشائش الجافة التي وجدتها على

طول الطريق وشكّلت زوابع بين الجدران المصنوعة من الجرانيت وشقّت طريقها بشراسة نحو بلدة هندية صغيرة عند سفح الجبال. فيض من المياه والثلوج غمرت شوارع البلدة الضيقة وملأ صوت الرعد الصاخب - الذي تكرر لمرات لا تعد ولا تحصى من قِبل أصداء المنحدرات - جميع المنازل بالخوف. لكن العاصفة مرّت الآن. سادت ليلة قائمة فوق الجبال والبلدة والسهول؛ وفي بعض الأحيان فقط كان ضوء البرق البعيد المصفر اللامع يخترق الظلام الدامس الذي جعل كل شيء متساوٍ. بدت الطبيعة نفسها نائمة بعد الأزمة الرهيبة التي أزعجتها؛ عانى كل من يعيش في هذه المنطقة من الخوف، والآن بدأ يستريح بهدوء.

لم تكن هناك علامات على الحياة بين المنازل، ومع ذلك، على سطح أحدها، يمكن للمرء أن يرى ضوءاً ساطعاً كمنارة في ذلك المحيط من الظلام.

وفجأة، أطلّ من هناك لحن غريب وعذب - والذي أصبح على الفور كئيباً ومخيفاً - وغمر الجو والوادي الواسع، وأيقظ أصداء الجبال.

كانت موسيقي راقية. كانت نغماتها السحرية - والتي أصبحت الآن عذبة وعاطفية كوداع حبيب مسافر، والآن كئيبة وحزينة كتنهيدات الوحدة، والآن قابضة وقائمة كصوت آتٍ من الأعماق^١ - تشبه بدقة كل أنواع النحيب الذي يمكن أن ينتزعه الحب أو الحزن من قلب الإنسان. أكانت صوت شخص ما؟ أكانت أداة موسيقية؟ ومن صاحب هذا اللحن، ملاك أم شيطان؟

١- من الأعماق (الخروج من الأعماق - اللاتينية): الكلمات الافتتاحية من مزمور ١٣٠، وهو أحد المزامير التكفيرية في نسخة جيروم اللاتينية التي ألهمت عدداً من المقاطع الموسيقية الهامة في القرنين الثامن والتاسع عشر علاوة على خطاب أوسكار وايلد إلى ألفريد دوجلاس (المنشور على هيئة مقال عام ١٩٠٥).

لقد كان رجلا يجلس عند قدمي امرأة في غرفة صغيرة حيث كان كل شيء في حالة حداد. كانت الغرفة يضيئها مصباح كبير فضي وكان الرجل يعزف على آلة غريبة الشكل.

كان ذلك الرجل -الذي يرتدي ملابس سوداء مثل كافة الأشياء حوله- طويل القامة ومميز ذو ملامح وسمية، على الرغم من شحوبها شحوب الموتى. وعلى الرغم من وجود تجاعيد عميقة مبكرة في وجهه، كانت عيناه السوداء ذات الرموش الطويلة لا تزال تتمتع بلمعان شبابي.

أما المرأة التي كان يجلس عند قدميها، فكانت مغطاة برداء أبيض وكانت تستلقي على أريكة طويلة وشعرها الأسود الطويل المتموج يغطي نصف وجهها، بينما بقية خصلات شعرها تنسدل على طول طيات ملابسها حتى الأرض. إحدى يديها كانت تستقر على ركبتها والأخرى تسند رأسها إلى الأعلى بينما تتكئ على وسائد الأريكة.

لم يكن هناك ما هو أكثر سلاما وجمالا من هذا المشهد الذي تشكّله امرأة ترتدي ملابس بيضاء كالعذراء ترقد على فراش الزوجية والرجل الذي يجلس عند قدميها ينظر إليها بعيونه الحانية شديدة الوسامة ويعزف كل نغمة من ذلك اللحن السماوي فقط من أجلها. ولكن إذا دخل أي كائن حي إلى هناك وراقب المشهد عن كثب، فكان الرعب سيبلغ منه مبلغه وكان سيفر على الفور؛ فشعر المرأة الطويل كان كالمعدن الهش ويدها الجميلتان المتناسقتان جافتين تماما ورداءها الأبيض عبارة عن كفن جنازي؛ أما الوجه الذي كان يتطلع إليه الشاب؛ فكان قد تلقى ختم الموت الرهيب منذ فترة طويلة والأداة نفسها التي تنتج مثل هذا اللحن الإلهي كانت مسروقة من القبر- لقد كانت عظمة الفخذ من هيكل المرأة العظمي.

الخلاصة

الوقت الذي يطول منجله باستمرار جميع الخلق ليدهمهم ويجددهم - بل وأكثر من ذلك، الخرافات والخوف، حوّل هذه المدينة إلى صحراء. يمكن للمسافر بالكاد تمييز المكان الذي احتلته في يوم من الأيام السهول المجذبة من خلال الانقراض القليلة التي شوّتها الأمطار والرياح شديدة البرودة التي تهب من الجبال، ولكن لم تتمكن السنون ولانظرات الفاتيكان القاهرة على محو ذكرى الجبال مؤسفاً والحداد الغريب على الكاهن الكامبوريال. ففي أعماق ودياننا وساحات مدننا، في منتصف الليالي الصامتة، ظل ينتحب للأبد من خلال صوت تلك الآلة التي كرّسها لحزنه والتي أسماها أبناء "بير والنّا"، والتي تعني بلغة "الكيشوا" القديمة: الحب أصبح حزناً.

إذا سمعت صوت تلك الآلة حينما تكون سعيداً، سوف تسمع الكآبة الحلوة الضرورية لتلطيف جوانب السعادة الغامرة والمرهقة للروح، ولكن، أوه، بالنسبة لكم، يا من تحملون حزناً كبيراً في قلوبكم، احذروا من الاستماع إليها ! فبالنسبة لكم سيكون لها تأثير رهيب. كمرآة سحرية، ستُريكم كل ماهو كئيب بالماضي، ستكشف أمام أعينكم الصورة الشاحبة لمستقبلكم البائس، وسيزداد الحزن داخل قلوبكم حتى تنفجر.

عاشت بيرو مع بيلزو الذي انتُخب شرعياً رئيساً لبوليفيا.

١٨٥٢ - جوروتي يؤلف "القفاز الأسود"

١٨٦١ - جوروتي ينشر "إذا أخطأت، لا تنتظر الخير" في مجلة "ليما".

١٨٦٣ - جوروتي ينشر "ابنة الماركيز" في مجلة "ليما".

١٨٦٤ - جوروتي يسافر إلى "لابازو" يفتتح مدرسة للبنات.

١٨٦٥ - أحلام وحقائق تُنشر في "بوينس آيرس". اغتيال بيلزو في ٢٧ مارس وخطاب جوانا مانويلا في جنازته ثم عودتها إلى "ليما".

١٨٦٦ - خلال هجوم بحري إسباني على "بيرو"، تواجد متطوعي "جواناما نويلا" في كتابا لتمرير بالمرستشفيات الميدانية في "ليما". واصلت عملها كممرضة متطوعة أثناء تفشي الحمى الصفراء في "ليما".

١٨٦٨ - السيرة الذاتية للجنرال دون ديونيزيو من بوخ

تُنشر في باريس.

١٨٧١ - جوروتي ينشر المقال الأول في الصحيفة الأرجنتينية الشعب المفتوحة حديثا.

١٨٧٤ - تؤسس وتدير الفجر مع نوما بومبيلو للونا.

١٨٧٥ - جوروتي تصبح عضوا في "النادي الأدبي" بـ "ليما". تسافر إلى الأرجنتين من أجل تأمين معاش شهري لأحفاد الوطنيين الذين شاركوا في حروب الاستقلال ضد إسبانيا. تقوم سيدة الأرجنتين الأولى، وهي زوجة الرئيس نيكولادي أفيلاندا بمساعدة جوروتي في ذلك المشروع. وبمجرد أن تنتقل إلى "بوينس آيرس"، تتعاون جوروتي في لأوندينادي بلاتا ويكافئها مثقفي الأرجنتين بمنحها جائزة "بالما" الأدبية، أو الكتاب التذكاري كتكريم لها. وبعد ثمانية أشهر في بوينس آيرس، تعود إلى "ليما" وتعاود فتح مدرستها الابتدائية.

١٨٧٦ - الحكومة البيروفية تكرم جوروتي لعملها التطوعي على جبهة المعركة عام ١٨٦٦. تفتتح صالونها الأدبي. وفي "بوينس آيرس"، تُبرز مشاهد الحياة إلى النور.

١٨٧٧ - جوروتي تقوم برحلتها الثانية إلى "بوينس آيرس". تسافر هذه المرة مع ابنها جوليو ساندوفال. وفي "بوينس آيرس"، تُعد مجلتها ثقافية "فجر ديل بلاتا". تُمنح العضوية الفخرية من قبل الدائرة العلمية والأدبية بـ "بوينس آيرس". وفي وقت لاحق من ذلك العام، تبدأ صالونها الأدبي في "بوينس آيرس".

١٨٧٨ - بعد تسع قضايا، يتم إغلاق "فجر ديل بلاتا". تسافر إلى شمال

الأرجنتين ثم تعود لاحقا إلى العاصمة الأرجنتينية. وبعد نشر مجموعة متنوعة من الأدب في "بوينس آيرس"، تلتزم الحصول على إذن لمغادرة الأرجنتين لمدة عامين وتعود إلى "ليما".

١٨٧٩ - وفاة ابنتها مرسيدس، لا تستطيع جوروتي العودة إلى "بوينس آيرس" وتطالب بأن تقوم لولا لاروسادي أنسالدو بإدارة السلسلة الثانية من "فجر ديل بلاتا" والتي أعدها وهي في "ليما".

١٨٨١ - تشرع في العودة إلى "بوينس آيرس".

١٨٨٣ - تحاول بدء حوار مع إدوارد امانسيلا من "جارسيا" ولكن على ما يبدو دون استجابة مرحبة من أكبر كاتب أرجنتيني والتي يتعارض ولاء عائلته السياسي لآل روزا بشكل ملحوظ مع مشروعات جوروتي التوحيدية.

١٨٨٥ - تعود لتستقر نهائيا في "بوينس آيرس".

١٨٨٦ - تسافر إلى "سالتا" حيث تنشر "عالم الذكريات".

١٨٨٨ - تنشر "واحة الحياة".

١٨٨٩ - تنشر "المهد".

١٨٩٠ - تنشر "المطبخ الانتقائي".

أحلام وحقائق
حكاية منتقاة من
جوانا مانويلا جوروتي

جوانا مانويلا جوروتي
ترجمها من الإسبانية
سيرجيو وايزمان
حررها وكتب لها المقدمة والملاحظات
فرانسين مازيلو

المقدمة العامة لسلسلة المحررين

تعرض مكتبة سلسلة أمريكا اللاتينية أعمال كبار كتاب القرن التاسع عشر، والذين أُهملت أعمالهم في العالم الناطق باللغة الإنجليزية. اقترحت عناوين التراجم من الإسبانية والبرتغالية من قبل لجنة تحريرية والتي شملت جين فرانكو (المحرر العام المسؤول عن الأعمال باللغة الإسبانية)، وريتشارد جراهام (محرر السلسلة والمسؤول عن الأعمال باللغة البرتغالية)، وتوليو هالبرين دونغي (في جامعة كاليفورنيا، بيركلي)، وإيفاني أكسيتش (في جامعة نوتردام)، وناعومي ليندستروم (في جامعة تكساس بأوستن)، وإدواردو لوزانو بمكتبة جامعة بيتسبرج جوفر انسين، ومازيلو (بجامعة كاليفورنيا، بيركلي). كان الراحل أنطونيو كورنيو قطب جامعة كاليفورنيا، بيركلي، وواحدا من الأعضاء المؤسسين للجنة. تم تمويل التراجم بفضل سخاء مؤسسة لامباديا ومؤسسة "أندرو ديليو ميلون".

خلال فترة التشكيل الوطني بين عامي ١٨١٠ وحتى السنوات الأولى من القرن العشرين، شكّلت أمريكا اللاتينية الجديدة هوياتها ووضعت الدساتير وشاركت في صراعات مريرة حول الأراضي وناقشت أمور التعليم والحكومة والعرق والثقافة. كانت هذه الفترة فريدة من نوعها على عكس عملية تشكيل الأمة في أوروبا، وكان يجب أن يكون طلبه السياسة المقارنة والتاريخ والأدب أكثر دراية بها مقارنة بما هم عليه.

كان هناك تصور لصورة الأمة من قبل الفئات المثقفة - وهم قلة في الدول التي يسود فيها أهالي البلد الأصليين والفلاحون والعبيد المختلطون أو ذووا البشرة السوداء أو السمراء - على الرغم من وجود جنسيات بديلة

أيضاً على مستوى القاعدة الشعبية. تلقت النخبة الثقافية تعليمها جيداً بالفكر الأوروبي وآدابه، ولكن كرجال دولة وصحفيين وشعراء وأكاديميين، واجهوا مشكلة التباين العنصري واللغوي بالقارة وصعوبات دمج السكان في دولة أمة حديثة.

لعب بعض الكتاب الذين ستم ترجمة أعمالهم في مكتبة سلسلة أمريكا اللاتينية دوراً رائداً في السياسة. تعرض فرانسيس فريمان دي ميري-وهو الراهب الذي ترجم "العقد الاجتماعي" لروسو وأحد الشخصيات اللامعة في فترة الاستقلال- للسجن والطرده من المكسيك بسبب معتقده الهراطقية. ولدى عودته بعد الاستقلال، تم انتخابه في الكونغرس. دومينجو فاوستينو سارمينتو، والذي تم نفيه من الأرجنتين - مسقط رأسه- في ظل دكتاتورية روساس، كتب فاكوندو "الحضارة والهمجية" وهو تنديد شديد بتلك الحكومة. عاد بعد الإطاحة بـ روساس وتم انتخابه رئيساً للبلاد عام 1868. ولد أندريه بيلو في فنزويلا وعاش في لندن حيث نشر الشعر خلال فترة الاستقلال، واستقر في تشيلي حيث أسس الجامعة وألف نحو اللغة الإسبانية ووضع قوانين البلاد.

لم يكن مثقفي فترة ما بعد الاستقلال يبنون قلاعاً في الهواء، بل ساهموا بشكل حيوي في تأسيس الأمم وتشكيل الثقافة. قد تجعلنا ميزة الإدراك المتأخر على وعي بمشاكلهم أنفسهم لم يتوقعوها، ولكن هذا لا ينبغي أن يؤثر على تقييمنا لطاقتهم وإنجازاتهم المذهلة. وعلى الرغم من وجود ترجمة حديثة لرائعة سارمينتو المشهورة "فاكوندو"، لا يوجد ترجمة لمذكراته "ذكريات قروية". إن غلبة المذكرات في مكتبة سلسلة أمريكا اللاتينية ليست مصادفة؛ فالعديد منها تقدم رؤية ممتعة في القارة الشاسعة المعقدة، كما أننا لم نهمل الرواية؛ فالسلسلة تشمل تراجماً جديدة لأعمال الكاتب البرازيلي البارز جواكيم ماريما ماشادو دياسيس، بما فيها "دوم كازمورو" و"مذكرات برا كوباس" بعد وفاته. لا يوجد سبب، لماذا لا

تُقرأ الروايات الأخرى وأعمال الكتّاب غير المشهورين خارج أمريكا اللاتينية -أمثال "الطيور دون أعشاشها" للروائية البيروفية كلوريندا ماتو دو تورنر، و"جوان روزا" لـ ناتانيل أجوير، و"إيراسيما" لـ جوزيه دي أليينكار، وقصص جوانا مانويلا جوروتي القصيرة - بنفس الأهمية التي تُقرأ بها روايات أنتوني ترولوب السياسية.

ومع ذلك، لا يمكن لسلسلة من الأعمال عن أمريكا اللاتينية في القرن التاسع عشر أن تكون محدودة بنوع أدبي مثل الرواية والقصيدة والقصة القصيرة؛ فآدب أمريكا اللاتينية المستقلة كان انتقائي ومتأثر بشدة بالصحافة الدورية المحررة حديثا من الاستقصاء الذي كانت تقوم به السلطات الاستعمارية وديوان التفتيش. كانت الصحف عبارة عن مجموعة متنوعة من الخيال والمقالات والقصائد والتراجم من كافة أشكال الكتابات الأوروبية. تضمنت الروايات المكتوبة مباشرة قبل الاستقلال المكسيكي بواسطة جوزيه يواكين فرنانديز دي ليزاردي أبحاثا عن التعليم العلماني والقانون واستنكارات أوجه الشر في المقامرة والبطالة. أعمال أخرى مثل قصيدة أندريه بيلو المشهورة "نشيد الزراعة الاستوائية"، وروايات مثل "أماليا" لـ جوزيه مارمول و"جوان روزا" للبوليفي ناتانيل أجوير كانت موالية للحزب بشكل علني. وبحلول نهاية القرن، كان المثقفون المتمرسون قد بدأوا في معالجة تاريخ بلدانهم كما فعل جواو كايسترانو دي أبرو في "فصول التاريخ الاستعماري".

وغالبا ما نجد في مذكرات مثل مذكرات فراي سيرفاندو تيريزا دي ميير أو سارمينتو وصف للحياة اليومية والتي أدمجت في الرواية الواقعية في أوروبا. كان يُنظر للأدب اللاتيني في هذا الوقت إلى حد كبير على أنه أداة تربوية، بديل "خفيف" للخطب والمواعظ وأوراق الدعاية الفلسفية، على الرغم من أنه في الواقع وخاصة في الجزء الأول من القرن، كان عدد قراء الروايات صغيرا للغاية بسبب ارتفاع معدل الأمية. ومع ذلك، أصبحت ثقافة رعاية البقر والطبقات الدنيا الحضرية المنقولة شفها بقوة المرجع

اللغوي لبعض أكثر كُتّاب القرن التاسع عشر إثارة للاهتمام، ولا سيما جوزيه هيرنانديز صاحب قصيدة "جاوتشو" والتي تمتعت بشعبية غير مسبوقة، ولكن بالنسبة للعديد من الكُتّاب لم تكن المهمة تتمثل في ملائمة اللغة الشعبية، ولكن تثقيفها، وكانت أعمالهم الأدبية متأثر بشدة بنمط عال من الخطابة السياسية.

لم تحاول لجنة الصياغة الحد من قصر اختيارها على الكُتّاب المعروفين أمثال ماشادودي أسيس؛ فلقد اختارت أيضا العديد من الأعمال التي لم تظهر أبدا في الترجمة أو كُتّابا لم تتم ترجمة أعمالهم مؤخرا؛ فالسلسلة جعلت هذه الأعمال الآن متاحة للجمهور الناطق باللغة الإنجليزية.

وبسبب ما تفضّلهم نظمات التمويل، ركّزت السلسلة بدايةً على الأعمال البرازيلية وبلدان المخروط الجنوبي ومنطقة جبال الأنديز والمكسيك. سيكون لكل طبعة مقدمة مناسبة، كما ستشمل ملاحظات تفسيرية.

وندين بشكر خاص للراحل روبرت جلين من مؤسسة "لامباديا"، والذي كانت مبادرته بمثابة قفزة البدء بالنسبة للمشروع، وإلى ريتشارد إيكمان من مؤسسة "أندرود بليو ميلون" والتي دعمت أيضا المشروع بسخاء، كما نشكر مؤسسة "روكفلر" لتمويلها ندوة "الثقافة والأمة في أمريكا الأيبيرية" عام ١٩٩٦، والتي نظمتها الهيئة التحريرية لمكتبة أمريكا اللاتينية. لقد تلقينا دعما مؤسسيا كبيرا وتشجيعا شخصيا من معهد دراسات أمريكا اللاتينية التابع لجامعة تكساس بأوستن. كان دعم إدوارد باري من جامعة أوكسفورد ضروريا وكذلك مشورة ومساعدة إيلين شودوش من صحافة جامعة أوكسفورد. نُشرت المجلدات الأولى للسلسلة بعد وفاة ماريا سي بول قبل أوانها في الثالث من يوليو عام ١٩٩٧؛ أيدت ماريا سي بول بال، والتي كانت تتتمي لمؤسسة "لامباديا"، الفكرة منذ بدايتها.

جان فرانكو - ريتشارد جراهام

التقسيم الزمني لجوانا مانويلا جوروتي

- ١٨١٨ - ١٥ يونيو، ولدت جوانا مانويلا جوروتي في "هوركونس" في مقاطعة "سالتا"، والتي تقع على الحدود مع "توسومان".
- ١٨٢٣ - انتقال عائلة جوروتي لمدينة "سالتا"
- ١٨٣١ - ١٣ نوفمبر، مغادرة عائلة جوروتي من الأرجنتين، وهم يفرون من قوات فاكونديو كويروجا. استقرارهم في "تاريا" و"بوليفيا".
- ١٨٣٣ - ٢٠ إبريل، جوانا مانويلا تتزوج من مانويل إيزيدورو بيلزو.
- ١٨٤١ - ١٨٤٢ - تعود سرا إلى "سالتا" وهي متنكرة في زي رجل.
- ١٨٤٧ - ٤ يونيو، ينظم بيلزو ثورة ضد رؤسائه، ولكنها تفشل. يهاجر هو وعائلته إلى "أريكيويا" بـ "بيرو". سفر جوانا مانويلا وحدها إلى "ليما".
- ١٨٤٨ - ينظم "بيلزو" انقلابا ناجحا في "بوليفيا" ويستولي على السلطة.
- ١٨٥٠ - تظل جوانا مانويلا في "ليما" وتُنشئ مدرسة للبنات.
- ١٨٥١ - نشر أول أعمال جوروتي الروائية "النأي" في "لاباز" ثم في "ليما".

كنز الأينكا أسطورة تاريخية

كنز "الأينكا"! تأخذ هذه الكلمات عقولنا على الفور إلى عاصمة أبناء الشمس، إلى مركز مجدهم - إلى "كوزكو"!

إن "كوزكو" هي مدينة ذات أساطير رائعة وخرافات وتقاليد مذهشة. شوارعها تضج كما لو كانت هناك ممرات سرية هائلة تحتها؛ تحت أرضيات الكنائس يمكن سماع أصوات تيارات مجهولة تحت الأرض؛ وحجارة أساساتها ترقد على مناجم الذهب، وفي الليالي المظلمة عندما يكون هناك توخُّدًا في السماء الواسعة، ينظر عامة الناس إلى الأجسام السماوية الباهتة بقدر متساو من الشوق والخوف.

وعندما تجمع تلك الأجسام بين جمال القصة ونعمة الرعوية، تمتدك حفنة من المجوهرات في تجويفات واد أخضر. وبينما هي مسجاة في عباءة من الزهور ومحاطة بثلوج لا نهاية لها، وتتناهر المدينة الساحرة بالنوم والكسل ولا أي ذكرى لماضيها الرائع. أصبح محاربوها رعاة وهجرت العذارى المعبد بعد أن انطفأت النار المقدسة الآن؛ أما شيوخها الرابضون كالمتسولين على جوانب الطرقات والتراب يغطي شعرهم الأشيب، فيمدّون يدا جافة وفقيرة للمسافر.

ولكن انظر عن كثب إلى هؤلاء المسنين، انظر إلى أولئك العذارى، وانظر

إلى هؤلاء الرعاة، ستري ضوءاً ساطعاً غامضاً حزيناً في عيونهم. تعلّم لغتهم الجميلة، استمع إلى محادثاتهم في منازلهم في المساء، وستعتقد أنك تستمع إلى ترانيم جنائزية رمزية من منفيي صهيون وهم يغنون تحت صفاف بابل.

ما هي الأفكار التي تحترق خلف استسلام المرضى والتي يحملون معها سوء حظهم؟ ما الأمل الذي يكشف عنه ذلك الفستان البهيج الذي ينقذونه دائماً، حتى في حدادهم الأبدي؟ وما السر الذي توارثه جيل بعد جيل وقمت حراسته بشكل مقدس في أوقات بؤسهم؟
الجواب على كل هذه الأسئلة، بالنسبة لهم، يوجد في كلمة واحدة: هالبا - ماما(الوطن الأم).

"هالبا - ماما!" يصرخون بها مباشرة بعد اسم الله في صلواتهم. "هالبا- ماما" يكررونها وهم يسكبون الكأس الأولى على الأرض أثناء احتفالاتهم الخاصة. "هالبا- ماما" يتمتمون بها خلال أوقات الحزن عندما يكون عبء عبوديتهم الأبدي لا يُطاق، تعطي تلك الكلمة الغامضة السلام والشجاعة لأرواحهم، وتبدو وكأنها تحمل سر مصيرهم.

وذات يوم، في وقت مبكر في صباح جميل، بينما كانت المدينة لا تزال نائمة وضباب الفجر المزرق مرتفع في السماء مع الأغاني الأولى للطيور مثل ترنيمة للخالق، خرج رجل ذو وجه مقطب وشعر أشعث ومُسجّى برداء داكن ويرتدي قبعة مصنوعة من الريش الطويل يتدلّى على جانبي جبينه من أحد المنازل والذي فُتح بابُه مراراً أثناء الليل، سامحاً للعديد من الزوار بالدخول.

حيّاً ضوء اليوم الجديد بلعنة، وبعدها تردد للحظة، كما لو كان يحاول تقرير في أي اتجاه يجب أن يذهب، بدأ في السير في الشارع ملتصقاً

بالجدران. سار في الشوارع حتى وصل إلى أول أدغال خلف المدينة، واتجه إلى الريف والتعبير الحزين على وجهه والحركة المفاجئة التي يلف بها الجزء العلوي من عبائته حول رأسه وكتفيه على أنه بداخل تلك الروح البشرية كانت هناك عاصفة: العاصفة التي تدفع الرجال الصالحين إلى البطولات والأشرار وإلى الجريمة.

ترك آخر بيوت المدينة وراءه دون أن يتوقف وسار في المسار المبطن بالحشائش والذي يؤدي إلى "روداديرو".

وعندما وصل إلى الصخور الأولى لمنحدر حاد، التفت إلى اليمين، دون تفكير، إلى مسار ضيق وصعب يؤدي إلى صخرة كبيرة. وعلى بُعد مسافة قصيرة، كانت هناك مجموعة من أشجار البلسان بفروعها الخضراء المصفرة المليئة بالسنابل البيضاء التي تغطي نصف سقف كوخ.

وعندما رأى البيت بين فروع الأشجار، توقّف الرجل ذو الرداء الداكن كما لو أنه يفتق فجأة من حلم. قال بنبرة متعجبة حادة:

-إلى أين أنا ذاهب؟ يا ليت الشيطان يميّت هذه المرأة الهندية الملعونة! إنني على استعداد لسماع صرخاتها وشكاويها وتوسلاتها الآن! فوجب الاتفاق معها وجنسها بأكمله في مقابل عشرين دوبرون فقط. وداعاً لجميع أحلامي وتطلعاتي! لعنة الله على أربعة بستونات.

التفت إلى الوراء وانقلب على عقبيه وتسوّق جانب "روداديرو" ثانية وتجوّل عبر المناطق الوعرة في قمته الريفية.

في تلك الليلة، رآه رعاة الماعز الذين جمّعوا قطعانهم في المنطقة وهو

ينزل في مسار متعرج؛ وبعد ذلك بوقت قصير رصدوه ثانية عند باب الكوخ واضعا أذنه عند ثقب المفتاح كالعسعاس.

ما الذي كان يبحث عنه هذا الرجل ذو السروال القرمزي الجميل وأوخاز الخيل الذهبية في ذلك الكوخ الحقيق؟ ماذا رأى؟ ماذا سمع؟

وبداخل المنزل، جلس ثلاثة أشخاص حول نار موقدة في فروع البلسان الجافة -رجل مسن وشاب وامرأة شابة. تناقضت بشرة الرجل المسن النحاسية مع شعره الأبيض والذي كانت خصلاته الطويلة تتدلى على كتفيه. كانت ملامحه تدل على الوداعة وانتقلت النظرة الحلوة لعيونه ذات التجاعيد بحب من الشاب للفتاة.

كان الرجل المسن هو يوبانكي، الزعيم المخلوع لقبيلة "هوركوس"، وكان الفتى والفتاة هما أولاده.

بعدما جُرد من ممتلكاته عقب تعيين مدير لـ "كوزكو"^١ عانى زعيم القبيلة من سوء حظه وواجهه بالصبر والصمت كما يفعل الرجل الهندي، ولكن كان لديه كنز واحد باقٍ وهو أن ظلم هذا الرجل لا يمكن أن ينتزع منه حب عمله. كما كان هناك شخص آخر واساه خلال فترة خسارته؛ ابنة جميلة كزهرة السوسن وطيبة كاملاك.

وكحمامة مقدسة في تجويف صخرة، ترعرعت روزاليا داخل أسوار الدير.

١ - هوركوس: مجموعة من السكان الأصليين من المناطق العالية من جبال "الأنديز"، بالقرب من "كوزكو". من "اوركو" والتي تعني التل (الكيشوا).

٢ - المقاطعات هي عبارة عن تقسيمات الإقليمية في مناطق نيابة الملك الإسبانية. هؤلاء المدراء أو حكام تلك الأراضي بذلوا مجهودا عظيما في الضرائب والتنمية الاقتصادية وتوزيع منح الأراضي وإدارة العدل.

تعلمت على يد رئيس دير الناصرة التقى، وتحرك كيائها بفرحة بين دخان
البخور وأمجاد الرب حتى جاءت نظرة رجل لتقف بينها وبين الرب.

وذاث يوم، حدّقت فيها عيون الوقح ديجو دي مالدونادو من خلال
قضبان جوقة الكورس. ومنذ تلك اللحظة، هرب كل السلام من قلب روزاليا؛
فأصبحت حزينة ومستغرقة بالأفكار وشاردة.

لم تعد هناك أمسيات هادئة حول المصباح في صومعة الدير أو سرد
للقصص أو تزيين للمحليات السُكرية؛ لم يعد هناك القفز بهرح خلال فترة
الاستراحة تحت نباتات الآس في الحديقة. كانت تُمضي أيامها الآن داخل
الكنيسة راکعة على البلاط البارد وقلبها يخفق برجفات غريبة، وبينما
تتمتم شفتاها بالصلوات، تتجه عيونها وأفكارها إلى المكان الذي يجلس فيه
الرجل كل يوم أثناء القداس. وعندما يهبط الليل، وفي حين تلعب رفيقاتها
وتركضن تحت مداخل الأديرة، كانت تنظر - وهي تقف في الجزء العلوي
من برج الدير - بعيون تواقّة على المدينة الواسعة وصدر مليء بالاشتياق
وأذنين متسنطتين في الظلام كما لو كانت ستسمع صدى صوت محبوب من
بين العديد من الأصوات.

وذاث يوم، بعد ذلك بوقت قصير، استدعت رئيسة الدير يوبانكي وأرته
ابنته وكيف أصبحت شاحبة ونحيلة، وأوصت بأن يأخذها لبعض الوقت
لتنزهه في هواء البلاد والجبال.

لو كان زعيم القبيلة المسن درس ملامح ابنته بنظرة ليست أبوية، لرأى
فيها كل تغيرات القدر التي توجد في الدراما: نفاذ الصبر، السعادة، والشك،
والخوف، والغضب، ولكن يوبانكي الطيب لم ير سوى المرض بسبب نقص
الهواء النقي والمساحات المفتوحة، وأخذ ابنته لتنزهه معه في الوديان
المجاورة حيث البساتين والمنازل الكبيرة. جعلها تتنفس هواء المرتفعات

المنعش وأعطاه حليب الماعز الحلو كي تشربه، وأخذها إلى كوخه وحماها
كعش طائر وسط أوراق الصفصاف الكثيفة وصنع فراشا لها على أرجوحة
تتدلى من فروع الأشجار في نسيم معطر بأنفاس الأبقار.

وبعد كل هذا، عادت نضارة الشباب لوجه روزاليا، ولكنها لم تعد من
زهور الوديان ولا من هواء المرتفعات المنعش ولا من رحيق الماعز ولا من
أنفاس الأبقار الشافية - لقد عادت من عشق مالدونادو.

من يدري أي فرصة قدرية جمعتهم سويا؟! على أي حال، ظلت حقيقة
أن زعيم القبيلة رأى ابنته مرة أخرى مشرقة وفي أوج بهائها وجمالها، وكان
سعيدا بذلك ولم يشعر بالملل من النظر إليها، وسأل نفسه لم لم يجلب
مثل هذا المصدر من السعادة الذي لا ينضب مرة أخرى إلى جانبه ؟ ولكن
ويل لمن يثق بحسن الحظ! فبمجرد أن رفع الرجل المسن عينيه المشرقتين
المليئتين بالفرح ليشكر الرب، سمع أندريه يهمس في أذنه:
-أي، روزاليا تبكي!

رأى دمعة تنحدر خلسة من أعين روزاليا لتسقط على الأعشاب التي كانت
تنظفها لتبتل بها وجبات اليوم التالي. جففت آثار الدمعة المتبقية على
خدها بأحد ضفائرها السوداء والتفتت إلى زعيم القبيلة.
قالت:

-أي، هل من الممكن لشخص يحب شخص آخر أن يجعله يعاني؟
هتف يوبانكي وهو يضم رأس الفتاة إلى صدره:
-ماذا تقولين يا ابنتي! ألا تعلمين أنني على استعداد أن أقدم حياتي لأجنيبك
أي تعاسة؟ تكلمي! ماذا تحتاجين؟ ... أوه! ... أعلم. لا يمكنك التعود على
فقر كوخنا البسيط؟ تفتقدين منزل الدير الحلو وترغبين في العودة إلى
هناك؟

-كلا يا أي! أبدا! لن أتركك! أوه! أين سأجد المزيد من الحب إن لم يكن هنا؟
هذه الجدران المفعمة بالدخان مليئة بالعديد من الذكريات. لقد عاشت

والدتي وماتت هنا. روحها تبدو وكأنها تحوم حول مسكننا؛ أراها في كثير من الأحيان في أحلامي، تحنو عليّ وتبتسم ابتسامتها الحلوة الحزينة. كل الأشياء من حولي لمستها بيديها. هاهو المقعد الذي كانت عادة ما تجلس عليه بجانب النار؛ها هي فلكة مغزلها ونولها. في الدير، أشعر بفراقها لي بدرجة أكبر من هنا. هنا، أفعل ما اعتادت على القيام به، أكرّس نفسي كما كانت تفعل لخدمتكم ورعاية أخي، أشعر أنني أواصل حياتها ثم إن عتبة بابنا تؤدي إلى الحرية، يمكنني أن أذهب بقدر ما يمكن لعيني أن ترى. إنه لأمر جيد جداً أن تدع الرياح تحمل بعيداً كل مخاوف الحياة! ... فكما ترى يا أبي، ما الذي يمكن أن أفقده وأنا بجانبك؟
-ولكنك تبكين الآن.

-هل رأيتني أبكي؟ الآن ستراني أضحك.
قُبِلت رأس الرجل المسن البيضاء وابتسمت ابتسامة ساحرة.
-أوه! ومع ذلك تبكين. دموع عينيك هي صرخات من الروح. ربما تشعر ابنة الملوك بالمهانة، فترتدي لباس البؤس بين عظماء العالم.
-وماذا يمثل كل هؤلاء العظماء بالنسبة لي بعد أن رأت عيني عظمتك؟
أيمكن لجميع ثروات كل المدن التي تقام في جميع أنحاء العالم أن تقارن بتلك الثروات الموجودة في مدينتنا الكائنة تحت الأرض؟ ألسنت مالكة أحد أبوابها المائة؟ ألم أقودك عبرها؟ ألم تخطو قدماي وأقدام أميرتي على أكوام الذهب التي غطت قصور "الأيكا"؟! فعندما رأيته، عرفتُ أن تلك الكنوز أكبر مما يمكن لأي شخص أن يحلم به، فقد تتجاوز حتى ما تصوّره جشع الأوروبيين. أحمل البؤس الكائن فوقها بكل فخر.

انتاب زعيم القبيلة شعور غريب من القلق ودفعه نحو الباب. توقّف هناك واستمع، ولكن كل شيء كان هادئاً بالخارج، وكان الصوت الوحيد الذي يمكن سماعه هو الرياح وهي تحرك أوراق أشجار الصفصاف.

إذا أمكن عيون المسن أن تخترق الباب، كان سيرى رجلاً ينحني ويلصق

أذنه بثقب المفتاح وقد بلغ منه الرعب مبلغه فأصبح شاحبا ومرتعشا فبدأ فظيعا. ولو كانت روزاليا قد رآته لكانت فرّت إلى أبعد زوايا الدير، إلى أعمق زوايا القبر.

عاد الرجل المسن إلى جانب ابنته بعد أن هدأت بعد استقرار الأوضاع بالخارج، ثم قبلها وباركها وعاد إلى الفراش وهو ينادي على أندريه كي ينضم إليهما بحيث يمكنهم الحصول على الراحة اللازمة لاستعادة عافيتهم بعد عناء يوم طويل من العمل.

تظاهر أندريه بعدم سماعه. على العكس، ظل جالسا في الخلف أمام أخته ناظرا إلى وجهها بثبات. قالت له:

-أخي، والدنا ينتظرك لتدخل فأنت تنام إلى جواره. هيا.
-والدنا قد اطمأن أما أنا فلا؛ فهو كبير في السن ونسي ما يحدث في قلوب الشباب؛ ولكنني قرأت قلبك، وأعلم أنك تعانين وأنت تبكين وأنتك بائسة. لست سوى صبي، فقط في السادسة عشر من العمر ولا يمكنني أن أقدم لك أي نصيحة، ولكن في اليوم الذي تحتاجين فيه قلبا مخلصا وذراعا قويا، تذكريني.

لم تُجب روزاليا، ولكنها أراحت رأسها على صدر أخيها وبكت في صمت. جفف أندريه دموعها وعانقها ثم تركها ليسترح إلى جوار والده.

ظلت روزاليا بمفردها إلى جوار النار ويدها على خدها وظلت تنظر بتحير في النار التي تخبو في منزلهم. كانت أصابعها تتحرك بانسجام وتمتعت شفتها ما يلي:

عشرة... اثنتا عشر... أربعة عشر... اليوم، الجمعة، خمسة عشر يوما! خمسة عشر يوما منذ نسيني ديجو!... اليوم هو يوم الجمعة!... أسمع

صياح الديك، يجب أن يكون الوقت هو منتصف الليل! سأتحقق من قدري بامرأة بيناسكال^١ أوه! رئيسة الدير لا تسمح لي بالإيمان بمثل هذه المعتقدات! ... لكن ما الذي تعرفه رئيسة الدير، ما الذي يعلمه أي شخص يعيش مثلها في سلام وسعادة؟ ... ماذا يعرفون عن أسرار الرب؟

نهضت وذهبت لتجلب أوراق العشب الخضراء اليابسة من كيس أسود من القماش معلق على الجدار.

جمعت الأوراق بعناية واحدة تلو الأخرى في كف يدها ونثرتها. دارت الأوراق في الهواء واستقرت على ركبتيها. نظرت الشابة الهندية إليها بقلق وتركيز. وبينما تفحص موقعها غير الثابت على ركبتيها الداكنة قالت: -إنه قادم!... ثم سيغادر... يتسلق بعض الصخور... ينزل إلى أسفل واد... ثم يقترب مرة أخرى... يصل... يتوقف. أوه! ما هذا الظل الداكن الذي يحيط به...!

في تلك اللحظة، قامت يد حذرة بفتح باب الكوخ لتفسح المجال أمام رجل. وعندما رآته، أطلقت ابنة زعيم القبيلة صرخة مكتومة وألقت بنفسها بين ذراعيه.

كان الرجل هو نفس الرجل الذي كان يخطو بغضب عند الفجر، والذي كان يختبئ بشكل مريب في تلك الليلة، ولكن الآن كان التعبير الذي يعلو وجهه حزينا وكئيبا. لاحظته الشابة الهندية على الفور وتراجعت خطوة إلى الوراء في رعب. هتفت:

-دييجو، ما الأخبار المشؤومة التي تجلبها معك؟ أخبرني! لقد عانيت كثيرا

١ - بلغة (الكيشوا).

بحيث أن كلماتك لن تبذل جهدا كبيرا لتقضي عليّ.
-يجب ألا تنطقي باسم حبيبك بعد الآن يا روزاليا. هذا الاسم يرتبط الآن
بحكم بالإعدام، ولن تمضي فترة طويلة حتى تسمعيه يصدر من الأشخاص
في الشارع الذين يريدون أن يوصلوني إلى حبل المشنقة.
-أنت يا ديجو! رجلي المهذب الوسيم والنبيل ...!
-نعم، لقد أصبحت محروما من حماية القانون، وكل لحظة أقضيها هنا
أعرض فيها لخطر الموت

-أوه، يا إلهي! ماذا حدث؟
-أعمل في جمع الإتاوات^١، وحصلت مؤخرا مبالغ كبيرة من المال. أغواني
الشيطان بالطمع فوقعت في شركه، فقدت أموالي في البداية، ولكن انتهى
الأمر بالبقاء الذهب التابع للخزائن الملكية على طاولة قمار بائسة والتي لم
تستغرق وقتا طويلا لتلهم كل شيء. من المقرر أن تُنقل إن الإيرادات غدا،
ويجب أن أكون قد سلّمت تلك المبالغ اليوم، ولكنني فقدتها، وأنا الآن متهم
بخيانة الملك، ولكي أتجنب الموت المهيّن الذي ينتظرني بسبب عدالة الملك،
يجب عليّ الفرار من إمبراطوريته الكبيرة. بعبارة أخرى، يجب أن أضع أكبر
حاجز ممكن بيني وبينك.

تهاوت روزاليا على ركبتها عند قدمي عشيقها. هتفت:
-لا يا ديجو! لا تتركني وحدي لأعاني من الرعب من غيابك. سأعمل،
سأحرث الأرض بيدي وأكسب ريبيل تلو ريبيل^٢، ذلك المبلغ الذي فقدته.
سأذهب إلى أشقائي، إلى هنود الجبال الشاردين، ولن يرفضوا أن يمنحوني
المال.

أجاب ديجو بابتسامة حزينة:
-حبيبتي البائسة، حزنك يجعلني أضل طريقي، ولقد نسيت أن الوقت هو

١ - "الإتاوة": تأتي من تقليد إسباني قديم. في الأمريكتين، يكون الالتزام بالإتاوة أو الضريبة على اعتراف
الطبقات الدنيا الجديدة غير الإسبانية. ووفقا للمفهوم القضائي الإسباني، يجب على الهنود دفع إتاوة
كجزء من التزاماتهم كرعاء الملك. وهناك عدد كبير من الوثائق في القرن السادس عشر تشير إلى تجاوزات
محلي الإتاوات.

٢ - الرييل: هو عملة فضية صغيرة والوحدة النقدية المستخدمة سابقا في اسبانيا والمستعمرات.

أكبر عدو لي. يومان هما أطول مدة يمكن لي فيهما البقاء على قيد الحياة. وحتى لو كانت الأموال التابعة للملك معي في اليوم الثالث؛ فإنها ستكون بلا قيمة بالنسبة لي لأنها لن يمكنها أن تحفظ شرفي.

ومضت فكرة رهيبة في عقل روزاليا كومضة من البرق وجعلتها تتمتم:
-هالبا-ماما! خذي هذه الفكرة وأبقِها بعيدة عني.
قال ديبجو:

-وداعا يا روزاليا.
وأزاح أذرع المرأة الشابة من حول عنقه وأضاف:
-دعينا نبقي هذه اللحظة الحزينة قصيرة قدر الإمكان؛ فقدح الممرار يجب أن يُبتلع في جرعة واحدة.
أمسكت به المرأة الهندية الشابة من ركبتيه وهتفت وهي شاحبة كالموتى:
-كلا، لا تتركني!

-ديبجو!... أفضل أن أخسر روحي بدلا من أن أفقدك!
-غدا... عند منتصف الليل، انتظري في زاوية "سان بلاس"، وسأحصل على الذهب الذي تحتاجه.

برقت عينا ديبجو بوهج شرير.
أجاب وهو يحتضنها بين ذراعيه:
-روزاليا، أحبك جدا، ولكن لا يمكنني أن أقبل الذهب منك دون أن أعلم مصدره.

-أوه، لا تسألني يا مالدونادو، إنه سر لا يمكن حتى للموت أن يجعلني أبوح به.
أجاب بغضب متصنع:

-أوه! هذا هو ما أدت إليه أخطائي: المرأة التي أحبها، كي تنقذ حياتي، ستلقي بنفسها في أحضان أحد الأثرياء الذين يلهثون وراءها، وفي مقابل قبلايتها سيلقي في وجهها الذهب الذي تحتاج إليه لتنقذي. كلا يا روزاليا! أفضل أن أموت في الصحراء أو على المشنقة قبل أن أقبل هذا النوع من الحياة التي

تقدمينها لي. وداعا.

هتفت المرأة الهندية:

-الظلال المهيبة للمدينة الداكنة! يجب أن أحنث بقسمنا الرهيب، ولكن لن ترى العيون المدنسة أبداً مداخلك المقدسة أو الممرات السرية التي تقود إليها.

تابعت حديثها قائلة:

-دييجو، هل سمعت عن كنوز "الأيكا"؟ حسناً، نحن نمتلكها، ووالدي، زعيم القبيلة الشرعي لقبيلة "هوركوس" وسليل هواسكار^١، يمتلك أحد مفاتيحها. هناك قسم مقدس يدفعنا للحفاظ على وجودها سرا والامتناع عن أخذ قيراط واحد منها. يعلم الرب أن أشد الأعداء لا تجعلني أحنث بقسمنا، ولكنك تحتاج الذهب، وعندما أعطيك إياه، ستشك فيّ. سامحني يا أبتاه؛ سامحني، أوه يا أرواح "الأيكا"!

-ما زلت أشك يا روزاليا. ماذا تريدان؟ أنا غيور، والغيرة هي مفتاح القضاء على الرجل. فلكي تجعليني أخجل من ضعفي، أريني كم هي قبيحة عدم ثقتي، خذيني معك.

-آخذك معي! ستنهار سرايب القصر الإمبراطوري؛ التقليد يقول لو نظر أوروبي إلى الكنز سوف يتلاشى.

-لن أنظر إليه. خذيني وأنا معصوب العينين.

-معصوب العينين؟!

-نعم، غطي عيني بعصابة ووجهي خطواتي. سامحيني، ولكن هذا هو السبيل الوحيد كي أصدق كلماتك.

- فليكن! والآن يا ديجو، قل لي أنك تحبني، حتى تطغى كلماتك على تأنيب الضمير الذي أشعر به في قلبي.

سمح مالدونادو للتعبيرات الدالة على نشوة العاطفة بأن تظهر على

١ - هواسكار: أمير من الإيكا، ابن هوايانا كابات. وفقا للأسطورة، حينما وُلد الأمير، أمر والده بصنع سلسلة من الذهب يبلغ طولها سبعمائة قدم من أجله. سُمي الطفل "هواسكار" والتي تعني "صبي

السلسلة".

وجهه وهي التي ستدله عمّا إذا كانت المرأة الهندية الشابة يعميها حبها له أم لا، ولكن بمجرد أن أصبحت بمفردها مرة أخرى، مع أفكارها، تهاوت على ركبتيها وصلّت والخوف يملأها.

وجد ضوء شروق الشمس طريقه إلى روزاليا في نفس الموقع.
قال لها زعيم القبيلة المسن عندما اتجه إليها ومعه أدواته الزراعية ليعانقها قبل أن يذهب إلى الحقول:

-ابنتي، أنت اليوم شاحبة كما كنت في الدير. لا تنهكي نفسك وقتاً طويلاً في العمل؛ اتركي فلكة المغزل واخرجي لاستنشاق هواء الصباح. اليوم هو يوم جميل، اذهبي للتنزه بين صفوف الأراضي المبدورة؛ اجلسي تحت ظلال القمح. انظري كم هو جميل القرنفل الأحمر، كم هو جميل عبق زهور الفول البيضاء!

-روزاليا!

هكذا همس أندريه في أذن أخته وهو يضع محفظة الراعي بشكل مائل على ظهره ويللملم أشياءه:

-لم لا تطلبين مني أن أجلب لك أعشاش الورشانات أو الزهور من التلال؟
هل تعلمين ما الذي أحمله معي في حقيبتني بدلا من طعام اليوم؟ هذا!

وأظهر لأخته نصل خنجر لامع.

تابع حديثه قائلاً:

-أعلم أن شخصا ما يجلب الحزن لروحك. إذا كنت قد قلت لك ليلة أمس: "عندما تحتاجين قلبي مخلصا وذراعا قوية، تذكريني". أقولها لك الآن يا روزاليا، كلّما ستحتاجين إلى مثل هذا القلب ومثل هذه الذراع، سأكون هنا من أجلك!

تابعتها المرأة الهندية ببصرها وهما يسيران، أحدهما بخطوة سريعة وحركات الشباب المتهورة، والآخر ينحني تحت الوطأة المضاعفة لسنوات عمره العديدة وأعماله الكثيرة. نظرت إليهم لفترة طويلة دون أن تتحرك،

وعندما رأته في النهاية يدخلون منعطفا في الطريق ويختفون، خفق قلبها بشدة في صدرها وانحدرت دمعة حارقة على خدها الشاحب، ولكن صورة مالدونادو وذكرى مداماته والخوف من فقدانه طغيا على أنين الندم بداخلها.

من هو الرجل الذي كانت ابنة زعيم القبيلة على وشك الحنث باليمين من أجله، ومن أجل من كانت على وشك خيانة والدها ووطنها؟

خلال السنوات الأخيرة من عهد دون كارلوس الثالث^١، كان أحد النبلاء ويدعى ألونسو دي مالدونادو يعيش في بلدة في منطقة "أراجون". كان أحد أولئك النبلاء الذين اقترنت أسماؤهم بالغنى، ولكن عقارات بسيطة؛ أحد أولئك المزيّنين بالأوامر الملكية، ولكن من كانت محفظته فارغة كشعار النبالة الخاص بعائلته، مثل أحد فرسان "كالابرا" أو "ألكانتارا" الذين يجب تَصْلَحَ عباةاتهم المليئة بالثقوب بالذهب الذي يأتي بها أبناءهم من الأمريكيتين والذي كان غالبا ما يأتي عن طريق الأعمال الشائنة والجريمة. كان منزل آل "مالدونادو" الموروث، والمسود والمنخرّب كجميع ثروات مالكة، يقع بجوار قصر "فالدينيرا" الفخم والذي ينتمي إلى "الماركيز" الذي يحمل نفس الاسم، والذي يعود كل صيف ليعيش فيه لبضعة أيام. وخلال أحد المناسبات، أحضر معه الجميلة الرائعة إليونورا دي أراندا كحارسة بارعة له. كانت شبها ينشر الضوء والبهجة على المدينة الحزينة، وكان نجلا مالدونادو، ديجو وسانشو، لا يستطيعان النظر إليها دون أن يقعا في غرامها.

وهكذا دب الخلاف في العلاقة بين الشقيقين وفرّقهما عن بعضهما البعض.

١ - كارلوس الثاني (١٧١٦-١٧٨٨)، ملك إسبانيا من ١٧٥٩-١٧٨٨.

ومنذ تلك اللحظة، وهما ينظران إلى بعضهما البعض بكراهية قاتلة واحتقار تام. وعلى الرغم من أنهما كانا من النبلاء، لم يتسنَ لأحد منهم أن يطمح في الزواج من حارسة "الماركيز" الجميلة، وإنها سلية أحد أكثر المنازل الشهيرة في إسبانيا، لم تكن تملك أي ثروة على الإطلاق، وبالتالي كان لزاما عليها الزواج من أحد الأثرياء، واحدا من شأنه أن يوفّر لها وسائل الحصول على منصب في البلاط الملكي وهو حقها النبيل المكتسب.

وذات يوم، سمع ديجو شقيقه يقول لـ ألونسو دي مالدونادو: -أي، أنا بحاجة إلى المال، ولكي أحصل عليه، سأذهب إلى البلاط الملكي كي أحصل على وظيفة في المكسيك.

كانت تلك الكلمات كشعاع من الضوء بالنسبة لخصم سانشو. تساءل، في كلمة واحدة، لم لا تخطر تلك الفكرة على باله؟ لم لم يفكر في المنزل الذهبي المسمى بأمريكا حيث يمكنه الحصول على الكثير من الذهب لشراء حب إليونورا؟ نعم! ينبغي أن يذهب إلى هناك وستتاح له فرص أكبر للنجاح مقارنة بأخيه؛ فلن يتوقف في المنتصف. كانت المشكلة الوحيدة هو أنه يعرف أن والده لن يسمح له بمغادرة المملكة؛ فحيث أنه المولود الثاني فكان مقدرا له الالتحاق بالجيش، وبناء على ذلك، يجب أن يغادر سرا. سيكون ذلك فرارا من الجندية؛ ولكن ديجو يتوق لـ إليونورا بدرجة لن تسمح لأي عقبات أن تقف في طريقه. طلب سانشو من والده فترة لمدة عامين ليكون لديه الوقت الكافي لمراكمة الثروة اللازمة، ويجب عليه الإسراع حتى يفوز بذلك. وهكذا غادر ديجو إسبانيا وذهب إلى الأمريكتين.

عندما وصل إلى القارة الجديدة تعرض لكافة أشكال الاحتيال التي تحيي أولئك الذين يسافرون للبحث عن عجائب الدنيا. تخيل أن مناجم بيرو كانت عبارة عن أوردة سميكة من الفضة والذهب تُفتح لمن أراد أن يبحث عنها. وبدلا من ذلك، وجد العمل الكثير الشاق والضروري ليقطلع من الأرض

أحشاءها الحجرية ويسحقها، وفي النهاية يُستخرج قيراط تلو الآخر من المعدن الثمين الذي اعتقد أنه سيجده متراكما على سطح الأرض.

صحيح أنه رأى العديد من الأشخاص الذين أصبحوا أغنياء بسبب ذلك العمل، ولكنهم أمضوا سنوات عديدة في العمل هناك؛ فلم يكن لديه وقت يضيعه؛ كان عليه الفوز على منافسه والعودة إلى إسبانيا قبله.

غير ديبجو خطته للهجوم، وكرّس نفسه لمحاولة معرفة سر الكنوز المخفية. تعلّم الكيشوا والأيمارا واللغة الغريبة للغورانيين الشرقيين^١، وزار المدن والأماكن ذات الأهمية التاريخية في بيرو العليا والسفلى. غير أن مجهوداته لم تفلح؛ فالشيء الوحيد الذي وجدته هو قصص رائعة وأساطير لا تُصدق لم تودّ إلا إلى زيادة تعطشه لإثارة الغضب في تلك الأراضي الغنية بالثروات.

وفي منتصف السنة الثانية من مهلته المنحوسة، وصل ديبجو أخيرا إلى "كوزكو" وموارده على وشك النضوب.

هذه الأرض الغامضة تحمل آخر أمل له. أحضر معه خط سير الرحلة الثمين والذي حصل عليه بطريقة غريبة، وذلك بفضل معرفته بمختلف اللغات الأمريكية، وتوقّع أن يقوده لامتلاك ثروة هائلة.

وذات ليلة ضل ديبجو طريقه في متاهة معقدة في سلسلة جبلية، بينما كان يبحث عن تل يحتوي، وفقا للتقاليد، على إحدى عشرة شعلة ذهبية مخفية وضعها الهنود هناك للمساعدة في إنقاذ ملكهم، والتي دفنوها، وهي لا تزال مضاءة في نفس المكان الذي سمعوا فيه نبأ وفاة أتاهاوالبا. كان الثلج يتساقط، وتراكمت الثلوج الكثيفة على الأرض وغطت كافة

١ - هذه هي لغات هنود الإينكا والهنود الغورانيين. الهنود الغورانيون هم شعبة من الغورانيين الذين هاجروا من بوليفيا إلى الأرجنتين.

وبينما يتجول عشوائيا من واد إلى واد، رأى ديبجو ضوءاً ساطعاً على بُعد، فتوجّه نحوه.

كانت نيران مشتعلة للتدفئة في كوخ. وبداخل الكوخ، وجد ديبجو امرأة عجوز عمياء محتضرة. وعندما سمعت خطواته، اتجهت عيونها العمياء نحوه وتساءلت بصوت خافت:

-سيبستان! لقد تأخرت!

ودون أن تنتظر رداً، واصلت حديثها، بلا شك تحت تأثير الهذيان:
-ألم تجلب الكاهن معك؟ ذلك أفضل بكثير! فبعدما غادرت، قلت لنفسى أنني لو صرّحت بالمكان الذي خبأت فيه ذلك الكنز الذي أخذه والدي من بحيرة "هوركوس"، لن يكون لديه وقت حتى ليصلي من أجلي قبل أن أموت. على العكس، سيهرع من هنا ويتجه بالفرس مباشرة إلى "كوزكو" وينزل عند باب دير النصارى ويذهب إلى الكنيسة، وهو ما يمكنه القيام به في أي وقت. ثم يرفع منصة المذبح الرئيسي ويحفر لمسافة مترين ويقضي ثمانية أيام ليحمل كل الذهب، الذهب، والمزيد من الذهب الذي استغرق مني ثمانية أيام لإخفائه هناك بعدما ضربت رئيسة الدير عشر ضربات ثم سممتها في تلك الليلة حتى لا تبوح بما فعلت ... ما هذا الضجيج؟
في الواقع، التقطت أذن المرأة العمياء الحادة ما سمعه ديبجو للتو:
-خطى جواد يقترب.

نظر الأراجوني الجشع الآن، والذي كان يميل نحو وجه المرأة المتجعد ويتشرب بحرص كل كلمة من كلماتها من خلال الباب الموارب قليلاً. وبالخارج، في انعكاس صورة الثلوج البيضاء، رأى رجلاً يقترب على ظهر جواد ورجل آخر يقوده وهو يهرول أمام الحصان. كان راكب الجواد مُسجى في عباءة سوداء.

تعرف مالدونادو على الكاهن الذي أشارت إليه المرأة العمياء للتو؛ الكاهن الذي كانت قد استدعته لتبوح له بمكان كنزها السري والذي وصل الآن وكان على وشك الدخول والتحدث معها والذي سيستخدم تأثيره الكهنوتي ليعرف منها السر الذي اكتشفه ديجو للتو. كان هذا السر هو أمله الوحيد، الوسيلة الوحيدة لامتلاك "إليونورا"....

مرت سحابة حمراء أمام عيني ديجو وارتعش صدغاه كما لو كانا تعرضا للضرب من قبل مطرقة. تحركت المرأة العجوز من فراشها وهي تتألم وتمتمت:

-من يتحدث بالخارج؟ إنه صوت سيباستيان!
-إذن من هو الشخص الواقف بجواري؟ سيباستيان ...
ولكن تلك كانت آخر كلماتها. فأمسك يدان قويتان بعنقها وخنقتها حتى فارقت الحياة.

وعندما دخل الكاهن ومرشده إلى الكوخ، وجدا المرأة العمياء ميتة بالفعل ورجل حزينة ومكتئب يجلس بجانب النار.

كانت المرأة العمياء قد تنبأت بأن الكاهن سيتوجه مباشرة إلى "كوزكو" إذا علم بمكان كنزها؛ وعلى العكس، كان مالدونادو هو من فعل ذلك بمجرد أن علم سرها.

وبطبيعة الحال، كان همه الأول هو الذهاب لفحص المكان الذي يحتوي على الثروات والذي اعتبرها بالفعل تابعة له. ألم يبتاعها في الأصل بأعلى الأسعار بجرمة قتل؟

ركع في كنيسة النصارى كما لو كان يصلي، كانت عيناه ثابتتين على المنصة

التي تخفي كنزه. اختفى كل شيء أمامه: الكاهن، القاعة، الشعائر، وجود الرب نفسه. على العكس، لم ير سوى روحه التي بعدما تخطت مسافات كبيرة، رفرت الآن بصورة إليونورا فوق المناطق الرائعة التي سيفتحها الكنز أمامه.

ولكن كيف يمكنه الاستيلاء عليه؟ لم يكن هناك شيء يمكنه فعله بمفرده؛ فهو بحاجة إلى مساعدة شخص ما، وذلك الشخص يجب أن يكون مقيما داخل الدير. من يمكن أن يأتمنه على ذلك السر الخطير الذي كان ثمنه قتل رئيسة دير سابقة واختصار معاناة امرأة عجوز عمياء؟

وجهه مالدونادو بصره نحو الجوقة. كانت مليئة بشخصيات حزينة راکعة بلا حراك والذين نفت هياتهم الرزينة أية احتمالات لأي إغواء ممكن. نظر الرجل الأرجوني إلى تلك الطلعات بحثا عن أي علامة دالة على وجود عاطفة دنيوية يمكن أن تُشجّع آماله، ولكن لم ير فيهم أي شيء سوى الاستغراق العميق في الصلاة.

وفجأة، أسفل حجاب أحد الرهبان المبتدئين، رأى مالدونادو عينين سوداوين جميلتين تنظر إليه بنظرة معينة. غادر مالدونادو الكنيسة وهو يقول لنفسه أنه وجد الشريك الذي يحتاج إليه.

أوه! الاستهزاء المدنس بالحب! تلك النظرة التي اعتقدت ابنة زعيم القبيلة أنها اللقاء الغامض بين روحين تبحثان عن بعضهما البعض هي فقط نظرة لص ينظر بشوق إلى أقفال صندوق الكنز، ولكن مالدونادو تعوزه الموارد ويحتاج إلى توفيرها على الفور، ولكن الحصول عليها كان سهلا بما يكفي. في ذلك الوقت كانت كلمة "النبيل" لا تزال تعتبر شكلا من أشكال العملة ويمكن أن تقف في مكان كافة أشكال التشفّع. تلقى الأرجوني ترحيبا حارا من عمدة "كوزكو" الذي اقترح أن يعمل بوظيفة جامع الإتاوات.

قبل مالدونادو الوظيفة، وهو شكل من أشكال العمالة يجعله على اتصال بالسيدات الهنديات في البلاد، والذي يتوقع منهن الحصول على معلومات مهمة.

وفي الوقت نفسه، كان يذهب كل يوم إلى كنيسة النصارى، وينظر وهو راكع بإعجاب إلى الكنز الكائن بداخل تلك الجدران، والذي كان مفتاح الوصول إليه - بالنسبة له - هو روزاليا.

وذات يوم، عندما لم يرها على الجانب الآخر من حاجز الجوقة، استشاط مالدونادو غضبا وحنقا، ولكن عندما علم أنها تركت الدير، هدأه هذا الخبر على الفور بدلا من اعتقاده أنه يدمر كل خطته؛ فذهب للبحث عن ابنة زعيم القبيلة وأدرك أنها وقعت في غرامه، وعندما وجدها، أغراها بحبه فأصبحت طوع يده.

ومنذ تلك اللحظة، كان ينتظر الفرصة المناسبة ليُطلعها على نواياه السرية ويقنعها بالعودة إلى الدير للقيام بها.

بدأ بالتظاهر بأنه غيور إلى حد الجنون؛ فكان يثير الخوف في نفس تلك الفتاة المسكينة، ثم توقّف فجأة عن زيارتها. أراد أن يروّض روحها حتى تطيعه من خلال إغراقها في الحزن.

وذات ليلة، في حوالي ذلك الوقت، وجد مالدونادو نفسه حبيس إغراءات منزل للعب القمار. كان مكانا ساحرا باستمرار. كان الذهب يتدفق في سيول وكان صوت القطع النقدية العذب ينقر على أعماق أوتار النفس البشرية. كانت جميع الوجوه داخل المنزل شاحبة، بعضها من السرور والبعض الآخر من اليأس، وكانت أعين الجميع تتوهج بوميض الجشع المشؤوم.

وبعدما خسر آخر بلانكا^١ معه، جلس مالدونادو بلا حراك وظل يفكر وهو يسند كوعه على زاوية من زوايا طاولة القمار المصرية. بين الحين والآخر كان يمسح جبينه بيده كما لو كان يحاول إبعاد فكرة شريرة، لكنها ظلت تراوده، وللحظات يمكن أن نراها مستقرة في نظرتة الخبيثة الثابتة.

وفي الوقت نفسه، زادت حصص اللعبة حتى وصلت إلى مقادير هائلة. كان لباد الطاولة الأخضر تغطيه تماما أكوام من الدوبلونات اللامعة؛ كانت الرهانات موجودة وسرعان ما سيتم قلب البطاقة، وعلى الطاولة، رأى مالدونادو -مع كومة الذهب بجانبه- البطاقة التي جعلته يفقد الجولات السابقة، وفي نفس الوقت، في صدفة مشؤومة، قال لاعب آخر بجواره: -أراهن على هذه البطاقة، فلا توجد بطاقة حظ للفوز ثلاثة مرات متتابة.

لم يكن مالدونادو بحاجة إلى سماع أي شيء آخر، ففك إبريم سيفه الذي يحمل شعار النبالة عليه وألقاه على الطاولة، قائلاً: -أضع شعار النبالة التابع لمنزل نبيل كرها بألف دوبلون.

وأخذ بعيداً، ليحل محله كيس من الذهب للرهان، لكن خبرة المقامرة لم تغفل، ووجد مالدونادو نفسه مجبراً على المقايضة بالذهب الإضافي الذي يملكه من أجل استرداد شعار النبالة التابع له، وكان هذا هو الذهب الذي جاء من دماء وعرق الهنود الفقراء، إنه ذهب الإتاوات والذي أجبر ملاك هذه الأرض على دفعه لحاكم أجنبي، والآن يسرقه مالدونادو من الخزائن الملكية.

وبينما يشعر بالرعب من فكرة العقوبة الكبيرة المترتبة على جريمته، فُكر مالدونادو في الهرب، ولكنه أدرك أن الهروب من هذه البلد التي تقع في مركز كل شيء يعد مستحيلاً؛ فالتبص عليه ومصادرة الذهب أمر مؤكد

١ - بلانكا: عملة إسبانية قديمة.

وسرعان ما سيلقى به في أيدي العدالة؛ لذلك قرر مالدونادو التعجيل بتنفيذ خطته مهما كان الثمن، وذهب لبحث عن روزاليا كي يقنعها بالعودة إلى الدير.

ولكن كم كان مقدار مفاجأته عندما أخبرته بسر أحفاد الأمريكتين، والذي سبق وأن سمعه بين هزيز الرياح واندفاع التيارات وأصداء جبال الأنديز! وبعد أن أوقع ابنة زعيم القبيلة في شرك ذكائه الحقيق، وأقنعها بأن تأخذه إلى المكان الغامض الذي يحتوي على كنوز ملوك بيرو، بدأ مالدونادو بالشعور وكأنه في حلم وكان على استعداد ليضحى بعمره مقابل التعجيل باللمحة التي تفصله عن الواقع.

مضت بضع ساعات أصبح بعدها كوخ يوبانكي مظلما وصامتا بعدما انطفأت النار وصاح الديك، الذي يحط على قمة أشجار الصفصاف، بأغنيته الأولى.

كان الوقت هو منتصف الليل، السماء ممتلئة بالغيوم السوداء، ومن حين لآخر تضيء ومضات بعيدة من البرق داخل الكوخ بضوء بنفسجي.

كان زعيم القبيلة نائما بعمق من جرّاء العمل الشاق، وكان أندريه يرقد بجواره على نفس الفراش. ومن خلال الباب الذي يفصل بين غرفتي الكوخ، دخلت امرأة شاحبة ترتجف وهي تستتر بظلام الليل. كانت تلك المرأة هي روزاليا.

مدت رقبته إلى داخل الغرفة واسترقت السمع، اقتربت من والدها. انحنت عليه ومدّت يدها وفتحت حقيبة صغيرة تستقر على صدر الرجل المسن وأخرجت مفتاحا ثم التفتت لتغادر الغرفة والكوخ. وبالخارج،

اتخذت الطريق الضيق الذي يقود إلى المدينة، ومن وراءها، خرج شبح، صورة سوداء، في خفة وصمت من الكوخ وتابعها من بعيد.

وفي الوقت نفسه، كان هناك رجل يقف على ناصية "سان بلاس" ومُسجى بعباءته ينتظر بفارغ الصبر، عيناه تحدقان بثبات في الطريق الذي يؤدي إلى "روداديرو".
هتف"
-أخيرا!

بعد ذلك بوقت قصير، وقفت امرأة مسجاة من رأسها حتى قدميها بشال أسود كبير، أمامه وهمست بلهجة حزينة:
-ها أنا يا ديجو! أحمل غضب الرب ولعنة أجدادي على رأسي، ولكن هذا ما أردت. قدمك على وشك الدخول إلى المكان المقدس الذي لم يدخله سوى أبناء الملوك. أدعو أن يعاقبني باتشاكاماك العظيم^١ فقط على هذه الجريمة ولا يصب غضبه عليك!
والآن، دعني أقيد يديك وأعصب عينيك وأغطيك ببطانية والدي، حتى لا تتعرف أرواح "الأيكا" عليك وأنت تدخل المدينة المقدسة.

وأخيرا، وعندما حانت اللحظة الرائعة، تمكّن الأراجوني الجشع بالكاد أن يتحكم في نشواته الهائلة من السعادة والتي بدت تقريبا كنشوات الرعب.
قال:

-ها هي يدي يا روزاليا.
ومد يديه إليها:
-قديهما، واعصبي عيني ... ولكن أخبريني، لم ترتدين مثل هذه الملابس؟
-في المكان الذي سندخله يا ديجو، اسمي ليس روزاليا؛ هناك ، أنا ماما تيكا

^١ -باتشاكاماك: وفقا لتقاليد الإنكا، فهو "حاكم العالم"، أحد الآلهة.

سوما^١؛ لذا أترك ملابسى الفقيرة، وأسفل هذا الشال الطويل أرتدي الملابس التي تناسب مركزي الاجتماعي، والذي أكشفه فقط بين الظلال الهادئة في المدينة السرية.

كانت المرأة الهندية ترتدى توبو^٢ يربط الشال الذي يغطي جسدها. أخرجت من تحته نطاقا طويلا من الصوف وفضته وعصبت به عيني مالدونادو، ثم قيّدت يديه خلف ظهره ولفعته ببطانية كبيرة تشبه رداؤها وبدأت تسير وتمسك مالدونادو من ذراعه لتوجّهه.

شعر الأراجوني بأنه يُقَاد لفترة طويلة في طرق وعرة عبر التواءات ومنعطفات معقّدة ودائما ما يتسلق قمة عالية. لفحت رياح باردة وقاسية وجهه كانت تعصف بأي ورقة جافة في وجهه. بين الحين والآخر كانت اليد التي تقوده تهتز وترتعش، ووسط هزيم الرعد البعيد، اعتقد مالدونادو أنه يسمع صوت المرأة الهندية وهي تهمس بكلمات غريبة، كما لو كانت تصلي.

حاول الأراجوني الداهية مرات عديدة أن يحرر إحدى يديه بحركة مأكرة، وإن نجح يتركها تنزلق من تحت البطانية وتصل إلى عينيه، ولكن وجد أن العقدة التي تربطهما ضيقة جدا، فاضطر أخيرا للاستسلام.

وفي هذه الأثناء، كانت أصوات المدينة الليلية ونباح الكلاب وصياح الديكة تقل شيئا فشيئا كلما سارا لمسافة أطول كما كانت الرياح القوية تزداد قسوة، وكان مالدونادو يتنفس هواء الأراضي العالية الخفيف.

١ - ماما تيكا سوما: حرفيا "الأم الجميلة".

٢ - توبو: بروش كبير كان مُستخدمًا من قِبل النساء الهنديات لربط شالاتهم.

وفجأة، استوت الأرض من تحت قدميه وشعر أن الرياح تهب بدرجة أقوى وأكثر برودة.

وأخيرا توقفت المرأة الهندية، وسمعتها مالدونادو وهي تركع وتصلي ثلاث مرات، ثم اعتقد أنه سمع صوت يشبه صوت رفع صخرة كبيرة. وعلى الفور سمع صوت الصوّان وهو يشتعل، ووجد مالدونادو نفسه منقادا بسرعة على درج متعرج لا نهاية له. شعر بقدمه تنزلق على السطح الرطب لدرجات حجرية، وجعل هواء المناطق الجوفية الفاسد التنفس صعبا. ارتعش صدغاه بقوة وملأت خطواته، التي تتكرر بشكل لا نهائي، المناطق المجهولة التي كانوا يمرون عبرها بصوت قوي.

شعر الأراجوني بكل هذا دون أن يتوقف عن التفكير في الأمر. كان عقله مستغرقا في التفكير في فكرة واحدة: الكنز! كنز لا يصدق، تحرسه مجرد فتاة، قصبة هشة من السهل جدا كسرها.

وبينما يفكر في هذا، أصابه الدوار. ترددت أسماء إسبانيا سانشو وإليونورا في أذنيه وتدفقت زوبعة من الصور المتوهجة إلى عقله. -لقد وصلنا، نحن الآن في المدينة المقدسة! هكذا همست المرأة الهندية في أذن مالدونادو بشكل مفاجئ. -دييجو، لقد مرّت قدمك على مدخل القصر الإمبراطوري. نحن الآن في معرض التماثيل. المسها يا ديجو، وسترى أن الهنود عرفوا كيف يستخدمون الذهب بشكل يفوق الحرفيين في بلدك بشكل كبير. -كيف يمكنني لمسها ويديّ مقيدة؟

حلت المرأة الهندية الواثقة به العقدة التي أبقت يديه خلف ظهره. وبمجرد أن تحررتا، ارتعتشا بسبب النشوة وهما تلمسان سلسلة طويلة من التماثيل، جعله هذا الأمر يرتجف بسرور.

قالت ابنة زعيم القبيلة:

-هنا، هنا زهور حدائق "الإينكا". المس هذه الزهور الجميلة.

تمتم الأراجوني بصوت مرتعش:

-مصنوعة من الذهب!

-وهنا الذرة من حقولهم، وحباته الشقراء.

-مصنوع من الذهب!

-وعناقيد هذه الشجيرات بأوراقها العريضة.

-لآلئ! لآلئ! لآلئ سميكة، وذهب، ذهب في كل مكان!

-نعم! كل شيء، بدءاً من البلاط الذي يردد صدى أوزارك المعدنية وحتى

الرمال التي يمارس عليها محاربونا تدريباتهم، من عرش "الإينكا" ذو المظلة

وحتى الحصى الصغير الذي يلعب الأطفال به، واحدة من ضمن ما ركلتهم

- كل شيء هنا مصنوع من الذهب، ولكنه ذهب مقدس، ذهب لم يخرج

أحداً بدا من هنا، ولا حتى قيراط واحد؛ إنه وديعة ثمينة مختومة بقسم

مقدس وأنا على وشك الحنث به من أجلك ولكن دعنا نسرع؛ فالظلال

نائمة، دعنا لا نوقظها بقضاء المزيد من الوقت هنا. هناك أكوام من أجمل

اللالئ، أجمل ما تنتجه محيطاتنا؛ هناك تلال من أغلى الحجارة من مغاسلنا.

خذ ما تريد يا ديجو، ودعنا نخرج من هنا بسرعة.

هتف مالدونادو في حالة هذيان:

-اتركيه! اتركي هذا الكنز الضخم الذي يمكن أن يغير وجه العالم، ولكن الذي

أبقيته مدفوناً هنا أيتها الهندية الغبية! كلا! أريد أن يكون كل هذا ملكاً لي،

ويجب أن يكون ملكاً لي!

وبعد أن فقد القدرة على السيطرة على نفسه، مزق مالدونادو العصاة

التي كانت تغطي عينيه....

ما رآه بعد ذلك، في غضون لحظة، كان عبارة عن حقل هائل من الأشياء

الرائعة التي بهرت عينيه، رقعة كبيرة تحتوي على جميع العجائب التي

يمكن أن ينشدها خياله. كانت هناك معابد ينيرها عدد لا حصر له من المصابيح؛ صالات وقاعات عرض مليئة بالذهب بكل الأشكال: هنا على شكل تماثيل ومزهريات ومذابح؛ وهناك على شكل حدائق تتضمن زهورا كانت عبارة عن مجموعات من الأحجار الكريمة، وإلى جانبه كانت تقف المرأة الهندية المتواضعة ترتدي أساور وقلادات من اللؤلؤ وملابس عليّة القوم والوشاح البنفسجي لأميرة من بيرو.

ولكن، كما قيل للتو، ذلك المشهد السحري لم يستمر سوى للحظة؛ ففي اللحظة التي سقطت فيها العصابة من على عيني مالدونادو، قبضت يد حديدية على عنقه وألقت به على الأرض وعصبت عينيه مرة أخرى وقيدت يديه وراء ظهره بعقدة مزدوجة، ثم رفعتة ذراعان قويتان، وشعر الأراجوني بنفسه محمولا على كتف صلب بعيدا عن ذلك المكان المليء بالعديد من الأشياء التي لم يكن لديه الوقت ليراه، وتم إلقاؤه على الدرج الذي جاء منه منذ لحظات قليلة.

وعلى الرغم من فجائية الهجوم، تمكّن مالدونادو من التفكير بشكل سريع. وعندما شعر بنفسه ملقى على الأرض، توقّع مالدونادو تصاميم عدوه المجهول ووصلت يده إلى مسبحته، والتي كان يحملها جميع الإسبانين في جميع الأوقات آنذاك، وأمسك بخرزاتها في قبضته المغلقة بمجرد أن قيّد مهاجمه يديه خلف ظهره.

صعد المرشد الغامض الدرج الهائل بسرعة كبيرة دون أن يتوقّف ولو لمرة واحدة، ثم سمعه مالدونادو يفتح بابا ويدفع صخرة؛ وبعد ذلك بوقت قصير شعر برياح الليل تهب في وجهه مرة أخرى.

ومنذ تلك اللحظة، بدأ الأراجوني في تنفيذ خطته الفورية؛ فأسقط حبات مسبحته واحدة تلو الأخرى من مدخل المدينة السرية. كانت كل واحدة

من تلك الخزرات تمثل خطابا لـ مالدونادو، جزءا لا يتجزأ من الرحلة الثمينة التي سوف تجعله فيما بعد مالكا للكنز الهائل الذي لم يكن لديه وقت إلا ليلمحه فقط.

وبعد حوالي نصف الساعة، أفلتته الأيدي التي كان تحمله ليسقط على الأرض ورفعته يد العصابة من على عينيه، ووجد مالدونادو نفسه مرة أخرى في نفس زاوية شارع "سان بلاس" التي تركها منذ فترة قصيرة مع ابنة زعيم القبيلة، ووجد أندريه يقف أمامه ذلك المحارب الذي هاجمه وغلبه، كان صبيا يبلغ من العمر ستة عشر عاما.

ولكن أي إغاطة يمكن أن تكون قد تسببت في جرح اعتزازه بنفسه لم تكن تُذكر بالمقارنة بالسعادة الهائلة التي ملأت قلبه مع الفكرة التالية؛ لقد ترك في الطريق المؤدي إلى الكنز مؤشرا خلفه.

فقط تخيل، بعد ذلك، مقدار غضبه عندما تراجع أندريه - الذي لم ينطق بكلمة واحدة قبل ذلك - خطوة إلى الوراء ومد يده إلى الأراجوني ليسلمه شيئا في منتصف الليلة المظلمة وقال:
-سيدي، ها هي حبات مسبحتك التي أسقطتها على ما يبدو ونحن في طريق العودة.

صرخ مالدونادو وهو يغادر:
-أيها الهندي الشرير! ستدفع ثمن ذلك!
وتوجّه مباشرة للعثور على الحاكم الذي عقد معه اجتماعا طويلا جدا.

قبل أن يعود إلى منزله، سار أندريه إلى مجموعة من المنازل القريبة وطرق باب كوخ. انفتح الباب وظهر شاب بنفس العمر على المدخل.
-أندريه! ماذا تفعل هنا في هذا الوقت من الليل؟ يجب أن يكون أمر ما

قد حدث. لقد قال والدي اليوم أن أوراق الكوكا كانت مرة، وأنت تعرف أن هذا الأمر علامة سيئة.
-نعم. وأنت تعرف أيضا يا سانتياجو أنه عندما تصبح الساكساهيوامان^١ سوداء، فهناك مكروه يهددنا. انظر إليها الآن!

كانت مجموعة كبيرة من السحب الكبيرة والكثيفة تهب نحو التل وتهدر بصوت الرعد وتغطي السماء والأرض تحتها بظلال داكنة. وكل شيء، كما قال الشاب الهندي، كان يتحوّل للون الأسود، أسود كقلب الليل.
-هالبا- ماماغاضبة! تحدّث يا أندريه!
-سأتحدّث؛ ولكن دعنا نتحدّث بمنتهى الهدوء حتى لا نسمعنا الارواح التي تجوب الهواء الخفيف.
تحدّث الشابان لفترة طويلة بهمس. وفيما بعد، عانق الشاب الذي كان بداخل الكوخ أندريه وأعطاه هذا الأخير شيئا لمع بشدة في ضوء البرق الذي ومض فجأة.

في نفس تلك الليلة هُوجم زعيم القبيلة وأولاده في كوخهم. أُلقي القبض عليهم وتم تكميم أفواههم وتقييد أيديهم وأقدامهم بالسلاسل واقتيادهم إلى منزل ريفي معزول يمتلكه حاكم "كوزكو" في ضواحي المدينة، والذي يقع عاليا وسط الجبال.

وعندما وصلوا إلى هناك تم فصلهم، واستجوب الحاكم كل منهم عن الكنز، لكن زعيم القبيلة وأولاده أحاطوا أنفسهم برداء من الصمت العميق، ولم تفلح الوعود أو التهديدات في دفعهم للاعتراف. وبسبب غضبه مع هذا العناد البارد والصامت، قرر الحاكم تحطيم قلب الأب برؤية أولاده وهم

١ - الساكساهيوامان: حرفيا، "النسر الملكي لجبال الأنديز". في تاريخ "الأيكا"، هو اسم قلعة مهمة بُنيت على قمة جبل بالقرب من "كوزكو". هنا، "جوروتي" تشير إلى الجبل نفسه.

يُعذبون أمامه تعذيباً رهيباً، وتحقيقاً لهذه الغاية، أحضروهم إلى غرفة تحتوي على أدوات التعذيب اللازمة: عصاة للعنين وسداة الأوردة والمَشَعَلَة.

عندما أُدخل زعيم القبيلة، أخذه رجل ملثم كان ينتظر بالقرب من الباب للحاكم الذي كان يجلس على كرسي ذي ذراعين في الطرف الآخر من الغرفة. قال:

-يوبانكي، هل فكرت في هذا؟ هل تريد أن تعرف ما الذي يمكن أن يؤدي إليه صمتك؟

-لتكن إرادة الرب!

هكذا أجاب الرجل المسن باستسلام متواضع.

-سرعان ما نرى ما إذا كنت ستقول نفس الشيء عندما ترى أطفالك يُسَلَّمون إلى أيدي المعذب.

انتفض جسد زعيم القبيلة بأكمله ووقفت خصلات شعره الأبيض الجليلة التي تتوّج رأسه.

في تلك اللحظة أُدخل أندريه وروزاليا إلى الغرفة.

اتجه الرجل الملثم إليهما وأحضرهما أمام الحاكم. حدّقت المرأة الشابة مباشرة في عينيه وبدا الغضب على ملامحها.

هتفت:

-خائن! أسرع واقتلني، لكن هنا، في وجود الرب الذي سيحاسبني وسيحاسبك، أدعوك للمثول أمام محكمته المقدسة؛ لكي تُحاسب على أفعال اليوم.

ظهرت ابتسامة غامضة شريرة على شفاه أندريه وهو يستمع إلى كلمات أخته. وفي المقابل، ألقت روزاليا بنفسها في أحضان زعيم القبيلة الذي عانقها

بقوة وبكى على أيدي ابنته المقيّدة بالسلاسل. همست في أذن الرجل المسن:
-أبي، جفف دموعك، أنا أستحق الموت؛ فلقد بُحت بسرّنا ...
شحب وجه زعيم القبيلة وأبعد ابنته عنه وقال لها بصرامة:
-إذا كان ما تقولينه صحيحا، فالرب يرحمك. وفي الوقت نفسه، على الأقل
قومي بواجبك الأخير؛ ظلي صامتة وموتي.

أشار الحاكم بعلامة معينة؛ فأمسك الرجل المثلثم بـ أندريه الذي كان
يقف إلى جوار والده ويده مقيّدة بالسلاسل خلف ظهره وأجلسه على
مقعد مثبت بقوة إلى عارضة على الأرض. أخرج رافعة وحبلًا من فجوة تقع
في منتصف العارضة. ولف الرجل المثلثم الحبل حول رأس الشاب

وأدار ذراع الرافعة مرة أخرى، ولكن هذه المرة في الاتجاه المعاكس؛
فأصبح الحبل مشدودا مما أدى إلى ظهور دائرة زرقاء حول صدغي .
التفت الحاكم إلى يوبانكي.
قال له:

-انظر إلى ابنك، إنه على وشك الموت. اشفق على شبابه! هل الذهب الذي
تملكه أثنى من حياته؟
قال أندريه بابتسامة شهيد:
-لا تقلق يا والدي. انظر إليّ وأنا أموت واحمد الرب على القوة التي يمنحها
لمخلوقاته.

أدار المعذّب الذراع مرة أخرى، وظل الشاب الهندي يبتسم وهو ينظر
إلى والده، حتى وهو في قمة عذابه والحبل يضيق أكثر وأكثر حول رقبته.

عندما سمع زعيم القبيلة رأس نجله وهي تنفجر من الداخل، وابنه يموت
دون أن ينطق بأنة واحد، خدش صدره بأظافره ونظر إلى ابنته نظرة سامية
أخيرة. كانت الشابة الهندية قد فقدت الوعي. لقد حان الآن دور الفتاة

البائسة. أمسك بها المعذَّب وجردها من ملابسها ووضعها على العجلة، وعندما شعرت باللمسة الآتمة ليديه القذرة، فتحت الشابة عينيها ووجدت نفسها عارية أمام المعذَّب، لكن شجاعتها تغلبت على حيائها وخوفها. هتفت وهي تنحني إلى الخلف على الأداة البشعة ووجهها تعلوه لفطة سامية:

-أي! سامحني!

كرر زعيم القبيلة المسن كلماته:

-ظلي صامته وموتي.

عانت الشابة الهندية من العذاب برزانة أسلافها. وفي كل دورة للعجلة، تلتفت إلى زعيم القبيلة وتقول له وهي تبتسم:

-أي! هل أنت فخور بي؟

وعندما أطلقت آخر نفس لها، تمزق جسدها إربا وكررت:

-أي! هل أنت فخور بي؟

هتف زعيم القبيلة عندما رأى جثث أبنائه:

-أوه يا باتشاكماك العظيم! إله آبائي، المجد لك، فلقد منحت الطفلين القوة اللازمة لمواجهة تعذيبهما كما سيأخذنا إلى قبريهما السر الذي حافظنا عليه عبر القرون!

دفع المعذَّب جانبا وركض طوعا وقفزا إلى المشعّلة التي تنتظره. صرخ من وسط النيران - هالبا-ماما! احفظي كنز "الأينكا" في أعماق أجزاء الأرض! كوني حارسته، كورا بونا سارا سارا^١، اغمري بثلوجك الأبدية من يتجرأ ويحاول العثور عليها. وصعدت صلاته الخفية من النار في زوبعة من الشر....

عقب الصمت العنيد لضحاياه، ظن الحاكم أن قصة الكنز عبارة هذيان. لم يفكر كثيرا في حياة الهنود البائسين، ومع ذلك، لم يفكر في تحويل إعدام

١ - كورا بونا سارا سارا: حرفيا، أراضي الذرة الكبيرة العالية.

زعيم القبيلة وأولاده إلى جريمة تستحق العقاب.
وعلى رغم ما فعله مالدونادو، لم تثبّطه عدم جدوى جريمته؛ فلقد
تضاعف طموحه وحاجته لإعادة المبالغ التي خسرها، فترك الحاكم وعاد
مباشرة إلى المكان التي فقد فيه مرشده في الليلة السابقة، وبدأ بحثه من
هناك. اتّبع نفس الخطوات واتخذ نفس الالتواءات التي تذكرها؛ بدأ يبتعد
عن المدينة دون أن يدرك ذلك، فكان عقله شاردًا لما رآه.

بعد ذلك اليوم، لم يعلم أحد شيئًا عن ديبجو مالدونادو مرة أخرى؛
اختفى كما لو كانت الهاوية قد ابتلعتة.

ولكن منذ اليوم التالي، رأى سكان "كوزكو" أباتشيتا^١ هائلة على قمة
الساكسا هيوامان. رفع سانتياجو- راعي الماعز- الحجارة من على الأطراف
الدامية لجثة أراجوني. وكل هندي يسير إلى جوار كومة الحجارة يبصق
عليها ثم يلقي فورًا بالصخور عليها ويلعنها.

١ - أباتشيتا: تل شعائري من الحجارة أقامه الأينكا.

خطبة المتوفي

إلى صديقي العزيز فيسنتي جي. كيسادا^١

في المنطقة المبهجة التي تمتد من الحدود مع "بوليفيا" إلى خط "باتاجونيا"، في وسط منطقة تحتوي على كافة إبداعات السماء الجميلة، على سهل مُخَدَّد بنافورات واضحة تماماً، ومفقود كعش طير بين الورود والياسمين، كانت هناك مدينة لها ملامح شرقية. قبابها البيضاء ترتفع بشكل رائع فوق اللون الأخضر الداكن لغابات أشجار البرتقال التي تحيط بها، والتي تلفت انتباه المسافر الذي يتأملها من بعيد. كانت الزهور تصطف بطرقاتها وكان هواءها دافئاً وفواحا، كان نهارها يتوهج باللونين الذهبي والأزرق، وكانت لياليها المرصعة بالنجوم هادئة، مليئة بالموسيقى وأغاني العشق. تكفي زيارتها لمرة واحدة كي تتذكرها إلى الأبد، وإذا عاد ذلك الشخص مرة أخرى، وحتى إذا جعله الرب أعمى، فبمجرد استنشاق هواءها المعطر سيهتف على الفور "توكومان!"

وحيث إنه مقدر لها أن تكون مسرح أحداث عظيمة، كانت مسرح أمجادنا ومصائبنا. فهناك أعلن الكونجرس الأمريكي استقلالنا كما أنها شهدت مطالبنا الأولى بالحرية^٢، هناك مزقنا أغلفة الطغيان للمرة الأولى،

١ - كان في "سنتي جي. كيسادا" (١٨٣٠-١٩١٣) دبلوماسياً، مشرعاً، صحفياً، وراعي "جوانا مانويلا جوروتي

٢ - في كونجرس "توكومان"، أعلنت "الأرجنتين" استقلالها عن إسبانيا في التاسع من يوليو ١٨١٦.

وللمرة الأولى أيضا هزمت شجاعة أمريكا الأسود الإسبانين، هناك أفرزت شرور الحرب الأهلية أقطع الوحوش وأنبل الأبطال، إلى هناك نزل زعيم التخريب، "مر السهول" المتعطش للدماء تليه جحافل الوحشية، يوما ما من مرتفعات جبال "الأنديز" البرية، وهاجم فجأة الجيش الوطني الذي كان قد استسلم للنوم في مسرات "كابوا" جديدة، وحولوها إلى مذبحة هائلة^٢.

إنها صورة جنة عدن، الخير والشر ينخرطان في معركة دائمة لامتلاكها، ولكن من سينتصر؟

وبعد فترة من الزمن سيسود تعقيم الأفق السياسي لمنطقة "ريو دي لا بلاتا". بذل أبطال معركة "إيتوزاينجو"^٣ المتحدين حول راية السماء الزرقاء للبلاد، بذلوا جهودا جريئة عبثا ضد الكتائب الهمجية التي، بعد أن تبنت مبدأ الفوضى، روعت العالم بفظائع حرب أهلية.

وتلت أيام معركتي "تابلادا" و"أونكاتيفو"^٤ نكسات قاسية، ووقع الجنرال باز، ضحية مصادفة النظام المشؤومة، في أيدي العدو وأسر في سجون "سانتا في"^٥. وعندما حُرِم من زعيمه، اضطر الجيش الوطني، والذي كان القلب

١ - لقب شائع لـ "فاكوندو كويروجا"، زعيم برز في الحروب المدنية وكان موضوع تحفة "سارمينتو" فاكوندو، الحضارة أو الهمجية (١٨٤٥).

٢ - إشارة إلى معركة "كويروجا" التي اندلعت في "سيوداديللا" (٤ نوفمبر، ١٨٣١)، مذبحة للموحدين الذين دفعوا أسرة "جوروني" لمغادرة "سالتا" والسعي للمنفى في "بوليفيا".

٣ - معركة "إيتوزاينجو": إجراء حاسم قام به الجيش "الأرجنتيني"، تحت قيادة "ألفير" ضد البرازيل (٢٠ فبراير، ١٨٢٧).

٤ - معركتي "تابلادا" و"أونكاتيفو": مواقع هُزم فيها فاكوندو كويروجا، في معركة "لا تابلادا" (٢٣ يونيو، ١٨٢٩)، قام كويروجا بهجوم شرس ضد الجنرال باز وهُزم هزيمة ساحقة؛ انتصر باز مرة أخرى على كويروجا في أونكاتيفو (٢٥ فبراير، ١٨٣٠).

٥ - الجنرال جريغوريو باز (١٧٩٧: ١٨٥٧)، بطل حروب الاستقلال ضد إسبانيا والحروب الأهلية التالية ضد الزعماء. أُرِس من قبل الفدراليين في ١٠ مايو، ١٨٣١.

والروح، إلى التراجع بشكل كبير، مثل تراجع "بيريزينا"، إلا أن ذلك كان كارثياً؛ فلم تكن الشجاعة الرائعة للبطل المسؤول عنه^٢ كافية لمنع هزيمته.

وعندما وصلوا إلى "توكومان"، اختار الجيش زعيمه الجديد - النبيل والشجاع ألفارادو^٣ كان نبيلًا وشجاعًا، نعم، ولكن سيئ الحظ ونذير شؤم على الجيوش التي قاتلت تحت قيادته.

على أي حال، كان ماهراً، استراتيجياً جيداً، وماهر جداً في فن الحرب، وعندما تحمّل مسؤوليته الهائلة، استطاع تقييم الوضع بنظرة واحدة فقط؛ اكتشف نقاط ضعفه وحسب مزاياه. وبعد أن فكر في التجربة المشؤومة للتراجعات السابقة، وزن نتائج هذا التراجع وقرر التوقف هناك وتحصين قواته وانتظار العدو في نفس المكان الذي كان، في وقت آخر وتحت نفس الظروف، موقع انتصار "بلجرانو" الخالدة^٤.

بنى المراكز واستعرض قواته وعزز جماعته؛ جمع أسلحة إضافية وطلب مساعدة إضافية من المقاطعات المجاورة، كل ذلك بالتصميم السريع العاجل الذي يميز القادة الكبار. في تلك المعركة الكبيرة، لم ينس ألفارادو أي شيء. لم تخدعه عبقريته، كما كان يحدث دائماً، لقد خانه الحظ هذه المرة.

١ - التراجع البطولية لجيش نابليون عبر "بيريزينا"، ٢٦-٢٩ نوفمبر، ١٨١٢.

٢ - جريجوريو أراوز من مدريد (١٧٩٥ - ١٨٥٧) لمع في معارك الاستقلال والحروب الأهلية اللاحقة، وبعد معارك "لا تابادا وأونكاتيفو"، تم اختاره ليحل محل باز تم أسر هذا الأخير. وعلى إثر ملاحظته من قبل "كيروجا"، هزم جريجوريو في معركة "سيوداديللا" ثم هاجر إلى بوليفيا حيث عاش هناك لمدة سبع سنوات.

٣ - روديسيندو ألفارادو (١٧٩٢-١٨٧٢)، من "سالتا"، ضابط في حروب الاستقلال والذي برز من بين الرتب العسكرية وحاز على لقب المارشال الكبير لبيرو في عام ١٨٢٦، وأصبح فيما بعد قائد جنرال الأرجنتين. تميزت حياته العسكرية بالعديد من الهزائم الخطيرة، والتي كان أولها خلال المعارك ضد الملك الإسباني، عندما كان يخدم تحت لواء بلجرانو، وفيما بعد كقائد للجيش المتحد. وبسبب مثله الليبرالية، سيق ألفارادو إلى المنفى منذ عام ١٨٣١ حتى عام ١٨٣٨. وعندما عاد، شغل منصب حاكم "سالتا" (١٨٥٤-١٨٥٦).

٤ - مانويل بلجرانو (١٧٧٠-١٨٢٠)، الأب المؤسس والقائد العسكري لحركة الاستقلال.

أنعم الربيع بأكاليله الخضراء على المدينة التي أصبحت مخيما عسكريا. عطرت العطور النفاذة للبراعم الجديدة النسيم، واختلطت أغاني القبرة والعندليب مع أصوات الأبواق، وكان صخب الأسلحة غير كافٍ ليغطي على الأصوات الحلوة لذلك الوقت الجميل من السنة.

ربيع "توكومان"! إنه اندفاعات الضوء والعطور، السماء الزرقاء المخططة بالسحب البيضاء كعرق اللؤلؤ، البساتين المليئة بالزهور، النساء الرائعات التي تشرق عيونهن كالنجوم اللامعة؛ باختصار كل شيء ينم عن عطاء الطبيعة. وهكذا، في ذروة اليوم، ترك جنود جيش الموحدين أرواحهم تنساب مع خيالات الحب الأبدي.

لم يأت أحد ليزعج الجيش خلال تلك الفترة المبهجة، حيث ترك أكتوبر أشعته الأخيرة من الشمس على البتلات الذهبية للوژال الإسباني. ومع ذلك، كان أولئك المؤمنون بالخرافات يتطلعون إلى الأفق البعيد لغروب الشمس الأحمر، وهتفوا وهم يهزون رؤوسهم كالقديسين:
-هناك دماء في الطبيعة! دماء!

لكن فرق الجيش ردت على ذلك الفأل النحس برقصة "الكوادريل" الاحتفالية والتي رقصت فيها بنات "توكومان" تحت تعريشات الياسمين بتلك الصورة الغريبة التي تسبق الكوارث.
عند حلول الظلام في الثالث من شهر نوفمبر، كانت هناك فتاتان جميلتان تستلقيان وتضحكان في كوة نافذة. صرخت إحداهما فجأة:
-إيميليا! تعالي بسرعة. ها هو رافيلو الوسيم! يمتطي جواده السريع اليوم، الجواد الذي يترك وراءه الرياح.
أجابها صوت يتنهد من الأعماق:

-لقد أخذت على نفسي عهدا بعدم رؤيته.
-ومن يمكنه المطالبة بمثل هذا الوعد الرفيع منك؟
-أستاذي.
-وما الذي يضير هذا الضعيف المسن برؤيتك لـ رافيلو؟ هل يشعر بالغيرة يا تُرى؟!
-يقول أنه يشعر بالذنب لوجود نظرة معينة بالرضا في عينيه، والتي تعني أنه لن يحبني.
-وماله بهذا! أود رؤية شخص يمنعي من فعل شيء أرغب حقا في فعله!
كلا يا سيدي! لن أدع أحدا يحرمني من متعة رؤية شخص حلو الشمائل،
وقبل كل شيء تلك العيون الداكنة وتلك النظرة العميقة آه يا إميليلا،
إنه وسيم للغاية! استمعي فقط إلى خطوات حصانه.

هكذا أضافت الفتاة المؤذية، وهي تبتسم بمكر وتخفص صوتها حيث يمر
من تتحدث عنه أمامهما.

كان الرجل الذي جذب انتباه هاتين الفتاتين هو، في الواقع، شاب جميل
بكل معنى للكلمة.

كان يرتدى زيا موحدا ودعرا، وكانت كتفيه القائد تتدلى من كتفه اليمنى.
ومثل كل ضباط جيش الموحدين الذين يعملون بقسم ذي أهمية بطولية
بالنسبة لهم، ترك لحيته السوداء المتموجة تنمو بالكامل وتتدلى شعيراتها
الداكنة بشكل متموج على درع صدره اللامع. كان يمتطي مهرا خفيفا من
السهول المعشوشية الكائنة بجنوب أمريكا الجنوبية، وإذا كان هناك أي
شيء يتمشى مع رشاقة مهره فتلك هي البراعة التي يقوده بها.

كان هوراسيو رافيلو أجراً من الجيش والذي علّمه ألفياري القتال. كان بالكاد يبلغ عشرين عاماً من العمر، ومع ذلك، منذ معركة "إيتوزاينجو" وحتى ذلك اليوم، كانت حياته عبارة عن سلسلة من الأحداث المجيدة. وحيث إن رفاقه غير قادرين على التفوق عليه، اعتادوا على الإعجاب به وأشادوا بانتصاراته بحماس صادق.

كانت جميع الشابات في "توكومان" تهيم بعشقه. وعندما يرونه يمر، سواء على رأس فوجه مع الجنود الذين يرتدون خوذاتهم ودروعهم المصقولة من أجل مناوراتهم الرائعة الخاصة بالاستعراض، أو وحده في نهاية اليوم وهو يرتدي قلنسوة زرقاء ويحمل خُنّاق جواده العظيم الذي أتى به من السهول الكائنة بجنوب أمريكا الجنوبية، يحلمن بكل أبطال الماضي، بدءاً من "أورلاندو" وحتى "مورات"، ويصبحن على استعداد للتضحية بأرواحهن من أجل نظرة واحدة فقط منه.

لكنه، الحبيب في حلم الكثير من الفتيات الجميلات، لم يرضَ بأيّ منهن. كان يحييهن ببسالة رائعة عندما تتوقف مسيرة ويركب بجانبهن أثناء التنزه إلى المدينة ويرقص معهن في قاعات الرقص، ولكن دائماً حينما يعتقدن أنه وقع في شباكهن، يفلت من بينهن ويهرب من الحفلات المسائية ويقفز على متن جواده السريع ويعدو به ويختفي. إلى أين يذهب؟ ما هي النجمة غير المعروفة التي تدعوه إليها وتبهّر روحه؟

على مرمى حجر من آخر بيوت المدينة، في نهاية الطريق الذي تصطف به شجيرات الزعرور البري، وعلى حافة بستان أشجار السايبو الذي يمتد إلى بلدة مونتيروس يمكن رؤية الواجهة البيضاء لمنزل ريفي تحيط به أوراق

١ - ١٢ كارلوس دي ألفياري ماريا (١٧٨٩-١٨٥٢)، قائد عسكري أثناء حروب الاستقلال وزعيم مجلس الناهبين عام ١٨١٣، والذي حدد القوانين الرمزية للأمة الأرجنتينية المستقبلية. وباعتباره زعيم الدولة لفترة وجيزة، كان فاشستياً ومستهترا في نفس الوقت. استعاد هيئته مع هزيمته المذهلة للقوات البرازيلية في معركة "إيتوزاينجو" عام ١٨٢٧.

الشجر الداكنة لمجموعة من أشجار التوت. وأمام هذا المنزل تكمن حديقة مليئة بأشجار الليمون وأشجار الكرم الكثيفة والتي كانت امرأة عجوز وأخرى شابة تنزهان تحت ظلالها وهما متببطتان الذراعين.

كانت إحداهما، والتي تنحني وتتحرك بصعوبة، تجمع الأعشاب في ثنية شالها وكانت الأخرى، التي ترتدي رداءً مصنوعاً من قماش أبيض رقيق وترفع شعرها الأسود على شكل ضفائر، تساند خطوات المرأة العجوز البطيئة بنفاد صبر واضح. ومن حين لآخر كانت تنظر إلى أعلى وتستمتع وتبحث بقلق في ظلمة الليل.

كانت تلك الشابة ابنة أفندانو، وكان هذا المنزل الريفي هو المخبأ الذي يغادر من خلاله كل ليلة الزعيم الجريء مع فرقته من المحاربين الذين يفرقهم عند الفجر ويسعى معهم إلى استعداد الجيشين طريق سرقة إمداداته واعتراض اتصالاته عن جيش الموحدين في الشمال.

قالت المرأة العجوز وهي تواصل المحادثة الجارية:

-حتى ولو كنت تسخرين مني، أصر على أن هناك شيئاً بك من الماضي يجعل جمالك مشرقاً. شيء ما ... كيف يمكنني قول ذلك؟ ... شيء كروعة أمل قَلِق يجعل عينيك تلمعان ويجعلك تبدين وكأنك ترتدين هالة. أجابت المرأة الشابة:

-إنه الربيع فقط يا عمّة، الربيع، الذي ينعكس لونه القرنفلي على وجوه جميع من يبلغون من العمر عشرين عاماً.

-كلا، مازلتُ أصر على كلامي! ففي العام الماضي وفي هذا الوقت كان وجهك يبدو كأى يوم عادي؛ أبيض ووردي، جميل ومبتسم، ولكنه الآن مختلف، في غضون دقيقة فقط، يتغير لون وجهك، بشرتك، تعبيراتك عشر مرات. حفيف الرياح يؤثر عليك، وتشحبن عندما تسمعين صوت بوق ... والخطى البعيدة لجواد يجعلك ترتعشين؛ ماذا بها هذه الفتاة يا ربي؟ يمكن للمرء أن يقول أنها تعشق شخصاً ما، كما لو أن هناك شخصاً ما في "توكومان" يمكن

أن تقع معه الشابة في غرامه، ولكن لا يوجد أحد ... لا أحد باستثناء هؤلاء
الموحدين الأشرار ذوي اللحى المخيفة.

تنهدت الشابة بشغف وقالت:

-هوراسيو!

هوراسيو؟ آه! آه! استمري! إنها إحدى الروايات ، واحد من تلك الكتب
الثرثرة الملتهبة التي تبقي الفتيات مستيقظات وتجعل عقولهن تهيم في
السحب. نعم، حسنا، هذا هو المكان الذي يجب أن تأتي منه تلك الموجات
من الأرق والسعادة، الحزن والقلق، ويجب أن يكون هذا هو سبب
انعزالك في غرفتك منذ الثامنة مساءً وتركك إياي بمفردي، وكل هذا نتيجة
لقراءة الروايات. يا لها من حماقة! ومع وجود الاثني عشر مجلدا من آنة
كريستيانو^١ في متناول اليد.... على أي حال يا فيتال، أخبريني حكاية هذا
"الهوراسيو"، فهو ليس كتابا محرما، أليس كذلك ... ؟

- هو راسيو حبيبي! إنه قصيدة سامية، لغز جميل يتذوقه القلب بسرور

- نعم! الحزن والسعادة، النعيم والألم، فهو مصدر كل شيء!

كان صوت فيتال تشوبه العاطفة وهي تجيب على عمتها لدرجة أنها
أيقظت عددا من الذكريات القديمة في روح المرأة العجوز المتجمدة.
هتفت:

-يسوع! يا لها من فتاة! تتحدث بنشوة تجعل القلب يخفق؛ قد يعتقد
المرء أننا عدنا إلى أوقات "بيلجرانو"،عندم اكان هناك رجالا يستحقون حب
امرأة.

-أوه! بطل قصتي هو جندي وسيم كالحلم وشجاع لا يعتريه الخوف أبدا.
الرجال معجبون به ويشعرون بالغيرة تجاهه، والنساء تحبه بشدة، ولكن
من بينهن جميعا التي استولت واحدة فقط على روحه، وأصبح قلبه وحبه
ملكا لها. مثل روميو جوليت، ينتميان إلى سلالتين متعاديتين؛ فهو كولوني،

١ - في تقليد التدريبات الروحية للقديس إجناتيوس، العام المسيحي أو تمارين المخلصين لكل يوم من
أيام السنة، والتي ألّفها بي جيه كروزيت، مجتمع المسيح (١٦٥٦-١٧٣٨)، والتي تم تداولها على نطاق
واسع حتى وصلت إلى أمريكا الإسبانية من خلال الترجمة التي أعدها الإسباني بادر إيزلا.

وهي أورسيني.

-بعبارة أخرى، كما لو كان أحد أفراد جيش الموحدين سيقع في غرام ابنة الفيدراليين.

-نعم، ولكن مثل حب روميو وجولييت، فحبهما تجاوز هوة الكراهية التي فرقت بينهما....

-آه! آه! كما لو كنت تستفيد من غياب والدك وتسخرين من وصيتي ...
-نعم. بحثت رغبتهما عن آفاق بعيدة من المستقبل عن يوم المصالحة الذي قد يجمع مصيريهما في نفس الطريق التي التقت فيه روحاهما فيه بالفعل، في حين ألفت العائلتان المتناحرتان كل التحديات القاتلة نحو الأخرى من فوق جدرانها، شهد رعاة الأراضي المحيطة كائنين رائعين يخرجان كل ليلة. أحدهما يرتدي خوذة سوداء، والآخر حجاباً أبيضاً. التقي الاثنان وتشابكت أيديهما وتنزها في المسارات المشجرة حتى فرقتهما أشعة شروق الشمس الأولى وأجبرتهما على التراجع إلى ظلام قلاعهما.

-هذا تقريبا هو ما أتى سياستيان المزارع ليخبرني به بالأمس.

-آه! ... وماذا قال سياستيان؟

-كانت إحدى قصصه السخيفة. في الليلة التالية، بينما كان يرعى الماشية غير المستقرة عند المورد عند بستان أشجار السايو في الفترة بين منتصف الليل والواحدة صباحا، تصوّر أنه رأى رؤيا غريبة تمر فجأة في المكان الذي يختبئ به، رجل يرتدي درعا ويحمل سيفاً، يمشي وهو يتأبط ذراع امرأة ترتدي عباءة بيضاء والتي تختلط طياتها الطويلة بأشعة القمر الفضية ... لقد كانت رؤى رسمها السراب يا فتاة، لا تحاولي أن تستنتجي أي شيء منهم. لقد سمح هذا الشاب لنفسه بزيارة المخزن المحلي أكثر من الرجل العادي، وتلك الخرافات ليست سوى ثمرة زجاجة الخمر.

-وكيف لم ير! أباك مثل هؤلاء الأشخاص أبدا وهو يمضي الليل بأكمله مع

متمرديه وجيادهم في الغابات المجاورة؟!

قالت الفتاة وهي ترتعش:

-والدي! ولكن... ألا يمش الليل في المنزل؟!

-رباه! ألا تعلمين ذلك، كم كان أفيندانو محقا عندما أخبرك بأنك يجب ألا تتقي في امرأة عجوز؟ وها أنا، أخبرك ما طلب مني عدم الحديث عنه. والآن تجلس ابنته أمامي، خائفة وترتعش! اهدأي يا فتاة. ما الغريب في ذلك؟ أليس والدك فيدراليا؟ ما الخطأ لو استسلم للنوم كالأموات طوال اليوم ويفتح عينيه في الليل كالخفافيش؟ ذلك أفضل بكثير لقضيتنا. بدون احتراس أفيندانو، لكان جيش الموحدين قد تلقى بالفعل تعزيزات لا تحصى، في حين أنه بفضل أبيك ليسوا على علم بأن كيروجا يقترب بمسيرة قوية وأنه سيهاجمهم بعنف أثناء حفلاتهم القليلة

غمغمت فيتال:

-يا إلهي، ارحم حبي! إذا! لو لم أتكلم، سأفقدته؛ ولو تكلمت، سأخون والدي...

-ماذا تقولين يا فتاة؟

-قلتُ أن الوقت قد فات بالفعل وأن الندى بدأ في النزول.

-هذا ضار للغاية بالنسبة لي، تعالي يا فتاة، إنني على استعداد للنوم. غدا سنذهب إلى كنيسة "سانتو دومينجو" لسماع القداس في الساعة السادسة صباحا. تصبحين على خير أوه! لا تدع أباك يعلم ما أخبرتك به للتو؛ فهو قاس كالشيطان، ولا أريد أن أخاطر معه.

حبست فيتال نفسها في غرفتها وصلت على ركبتيها أمام تمثال العذراء المجاور تماما لسريرها، ثم نهضت على الفور، وبعد تقبيل وجه المرأة المقدسة كما لو كانت أما دنيوية، ذهبت إلى النافذة ونظرت وبحثت في كل مكان.

كان القمر يلقي بالفعل بأشعته على الريف المهجور وترددت اليراعات كالنجوم الساطعة تحت أوراق الشجر الكثيفة في البساتين.

في تلك اللحظة ترجل رجل تحت فروع شجرة توت وقيّد جواده بجذعها.

قال وهو يداعب عنق الحيوان الجميل:

-اصمت أيها الصبي، اهدأ واصمت، لمصلحتك. آه! متى سيأتي اليوم الذي أستطيع فيه أن أحملها بين ذراعي وأعانقتها بقوة وأركض بك في الحقول البمب المبهجة؟

توقّف عن الكلام، فلقد اعتقد أنه سمع صوتا بين الفروع، ولكنه كان فقط صوت بومة خائفة تحلق وهي تحمل معها في الرياح الشريرة لأجنحتها المرفرفة تعجّب الشاب من الأمل في المستقبل. ظلال الفارس والجواد مختبئين بين الأشجار، ولكن العيون التي تبحث عن الحب تعرف كيف تعثر عليه حتى في الظلام.
هتفت فيقال:

-ها هو!

وعادت إلى تمثال العذراء وهتفت:

-أمي! لقد حانت ساعة قدرتي؛ تلاحقت الأحداث والآن تنتزعني وتلقي بي في أحضان حبيبي. غدا يجب أن أكون له وأن أتبعه، لكن في الوقت نفسه، وللمرة الأخيرة، أقرضيني حجابك المقدس، تلك التميمة المقدسة التي حمّنتني حتى هذا اليوم وباركت حبي.

غطت نفسها بحجاب العذراء الأبيض وسارت إلى النافذة حيث أزالّت قضيبا كانت قد بردته خلسة قبل ذلك وأعادت لصقه بالشمع. أصبح المرور من خلال تلك المساحة الإضافية متاحا الآن، فانزلقت من خلال نافذة واختفت وسط الظلال.

كانت الساعة السادسة صباحا وكان الفجر جميلا جدا. ظهر الشفق الرائع لعرق اللؤلؤ والذهب المخطط بأشعة لامعة في الشرق، أعطت كل من السماء الواضحة ذات اللون الأزرق الصافي وعبير النسيم المعطر و أغاني

الطيور ورنين الأجراس كل ذلك دلائل أن هذا اليوم سيكون مليئاً بحسن الحظ - ذلك اليوم، الرابع من نوفمبر، الذي سيملاً "توكومان" يمثل هذه الذكريات الكثيرة.

ارتفع صوت الأبواق معلنة وقت الاستيقاظ؛ من مرتفعات الأبراج دعت الأجراس الكبيرة الجميع لقداس الصباح الباكر، وفُتحت الأبواب واحداً تلو الآخر، وسمحت لحشد من الناهضين المبكرين - بملامحهم المملونة بهدوء بدفء أسرّتهم وعيونهم التي لا تزال ثقيلة بالرغبة الكبيرة في النوم وخصلات شعورهم المضفرة والتي تختبئ نصفها تحت الضباب الرائع للحجاب الذي ترتديه نساء "توكومان" - حينما يدخلوا إلى كنيسة "سانتو دومينجو" للحصول على الغفران الذي سيتم منحه في ذلك القداس على يد الراهب الكبوشي - الوجيه الرهباني الذي وصل مؤخراً من روما مع الامتيازات الوفيرة من البابا والذي يعتبر ممثلاً فخرياً.

بالنسبة لمن يتوقف منكم لينظر إلى النساء عند أبواب الكنائس، أنت -يا من بعدما تصلي إلى الله داخل المحراب تعبه من خلال تأمل جمال خلقه بالخارج: لا تبحث عن تلك المحاسن عندما تغطي نفسها بتلك الحلي المبهجة وتخفي نفسها بأحمر الشفاه أو أي من مستحضرات التجميل الأخرى، عندما تتبع أشكال الموضة بإفراط وبالتالي تفقد النمط الخاص بها. بدلاً من ذلك، ابحث عنها خلال تلك الساعات الأولى من اليوم، وبعد ذلك، ستتكشف لك أسرار جمالها مثل أسرار الطبيعة.

بدأ القداس وسط الاستغراق الصامت المستوحى من ظلام صحن الكنائس القديمة، ولكن الضوء الوردي الذي يسبق أشعة شروق الشمس الأولى انعكس على الجزء العلوي من القبة، فجعل الشموع المشتعلة في المذبح تبدو شاحبة وتلهي الشباب وهم ينظرون حولهم، بفضل ذوي العشرين عاماً الذي لا يهدأ والذي تشبع غبائه كافة الأشياء النافهة.

همست إحداهن في أذن أخرى:

-هناك، نحن جميعا هنا الآن، جميع راقصي الليلة الماضية. اشتقت إليك بشدة، لم يكن هناك من أتبادل معه النكات.

-وحبيبك؟

-رافيلو؟ ظل هناك لمدة ساعة ثم غادر. أقسم! قلبه مصنوع من حجر!
-اف! ليس بقدر ما ستقنعيني به. لقد رأيته مؤخرا؛ ربما أتى لبحث عنك.
-هو! أوه! أنت لا تعرفين ماذا سأهب لو كان ذلك صحيحا!

-حسنا، حقاً! قولي، من هي تلك الشابة التي نهضت للتو من جانب تلك المرأة العجوز القبيحة ومن تختفي في هذه اللحظة وراء هذا العمود؟
-ألا تعرفينها؟ هذا لايفاجئني. إنها ابنة فيدرالي ولا تأتي إلى حفلاتنا الراقصة.
-ألم تسمعين عن جمال فيتال، ابنة أفيندانو الداغر؟ إنها هي.

وهكذا كان الأمر عندما أنشدت آخر رسالة في القديس؛ تركت فيتال عممتها وذهبت للقاء رجل كان ينتظرها وراء عمود. لقد كان هو راسيور افيلو.

قال:

-فيتال!

وأمسك بيدها :

-يا من اخترتها لتكون شريكة حياتي، هل تحبيني؟

أجابت الشابة وصوتها تشوبه عاطفة قوية:

-أكثر من روعي!

وركع الاثنان.

في تلك اللحظة التفت الكاهن تجاه الناس في الكنيسة داعيا الرب عز وجل، وأعطاه مبركته.

هتف الزوج:

-أنت لي!

ورفع يد محبوبته إلى شفتيه.

أجابت وهي تحديق في عينيه بنظرة يملؤها الحب:

-أنت لي!

تمتم صوت فظ من أعلى كتاب الكنيسة المقدس:

-اللعة! ذلك الجمال المصري الذي تراه عيني على الرغم مني؛ الصورة التي

أشعلت نارا غير طاهرة في أحلامي المباركة؛ إنها حواء، المغرية، التي، دون

أن تعلم، اتخذت لنفسها مكانا بين روعي وبين الرب ...!

وفجأة، سُمع ضجيج عال مختلط بأنين ونحيب من بعيد. وبعد ذلك

بوقت قصير، هرع حشد كبير من الناس إلى داخل الكنيسة وهم يصرخون

في خوف:

-إنهم الفيدراليون، الفيدراليون!

بدأت فيتال في البكاء وألقت بنفسها في أحضان زوجها، لكنه أولاها ظهره؛

لقد أصبح حبيبها الآن جنديا. قبل زوجته على جبينها وهمس في أذنها:

-سأراك الليلة!

قالت بحماس:

-آه! أين سأكون هذه الليلة؟

أجاب:

-هنا!

وهو يعقد ذراعيه أمام صدره:

-سواء كنت ميتا أو حيا، سأكون هنا!

واستل سيفه والتفت بعيدا عن زوجته واندفع خارج الكنيسة.

شق خط أرجواني مجزع بصواعق البرق طريقه نحو "توكومان" فوق

سهول تتخللها الأشجار التي تمتد نحو مدينة "مونتيروس"، لقد كانت الرماح

والقمصان الحمراء لجيش كيروجا. وصل نمر السهول، بعد أن قطع مسافات

كبيرة بسرعة البرق إلى فريسة والتي سيحدد هو مصيرها. شكّل الجيش الوطني قواته في حقل "سيوداديللا" وانتظر عدوه بشجاعة.

لقد سجل التاريخ في صفحاته الدامية ذلك اليوم المشؤوم الذي اختصر حياة نصف جيل ووضع النصف الآخر في مواجهة أهوال المنفى. غيّر التمرد الإجرامي لأحد أهمقادة الجيش، والذي دفع في وقت لاحق حياته ثمنا لعواقب عصيانه، مصير ذلك اليوم، فحوّل نصرا مؤكدا إلى هزيمة. ندعو الرب أن يرحم الجنرال لوبيز وتكون الأرض التي تغطي رفاته المشوهة خفيفة!^١

وقعت المعركة واستغرقت تقريبا اليوم بأكمله. لقي جميع المشاة حتفهم؛ فلقد قاتلوا حتى الموت دون تراجع. هرب سلاح الفرسان من ساحة المعركة، ولكن قادته وضباطه قفزوا إلى الأرض وانضموا إلى قواتهم وحاربوا حتى النهاية معهم. أصيب مائتين منهم -صفوة الجيش وقبض عليهم في ميدان المعركة، وتم اقتيادهم إلى الساحة المركزية للمدينة كي يعدموا. وفي اللحظة الأخيرة، رفع أحدهم ذراعا ضعيفة بصعوبة كبيرة ونادى على أحد الكهنة الذين جاءوا ليقوموا برعايتهم. همس له بشيء ووضع شيئا في يده. كانت هناك ومضة من التقدير في عيون الراهب، ولكنه خفض قلنسوته ومد يده نحو رأس الرجل الذي يصارع الموت وأعطاه الغفران.

وبعد لحظة أطلقت الأسلحة وانتهى الأمر. تركت الجثث هناك ولم تُدفن بأمر من المنتصر كدرس للشعب. وبعد أن استولى على المدينة، أمسكها نمر السهول بلا رحمة بمخالبه الرهيبة.

لم تعرف النساء البائسات الذين حارب أزواجهن الأعزاء مع الجيش

^١ - فيليبي لوبيز (١٧٩٥-١٨٥٨)، ضابط في الجيش في حروب الاستقلال وتابع للا مدريد في معركة "سيوداديللا".

المهزوم مصيرهم؛ كان على تلك الأمهات والأخوات والزوجات قضاء الليل
بأكمله في منازلهن وهن يتعذبن من عدم التيقن من عدم معرفة ما إذا
كانوا على قيد الحياة أم لا.

في منزل ريفي بجانب بستان أشجار السايبو، حبست ابنة أفيندانو نفسها
في مختلاها العذري الأبيض وركعت على ركبتها وهي شاحبة ومرتعشة
وتوسلت لوالدة الرب من أجل زوجها، بينما كان والدها يحتفل مع رجاله
بانتصار قضيتهم بوليمة لا نهاية لها.

وبينما تحمل الألم في روحها حتى تستطيع استراق السمع في سكون الليل،
كانت تنتظر أي صوت -أي شيء- من الخارج ليعطي قلبها أي أمل، ولكن
معاناة تلك الليلة الأبدية استنزفت كل قوتها؛ بدأ جسدها يضعف وبدأت
الهلاوس الغريبة في غزو عقلها.

وفجأة شعرت بجسدها كله يرتعد. لم يمكنها إنكار ذلك؛ شخص ما كان
يقترّب. كانت في ظلام حالك لأنها أطفأت الضوء ليتمكنها المراقبة سرا؛ لكنها
ترى بمنتهى الوضوح ظلا جاء وتوقف بين النافذة وضوء النجوم الباهت.

وبعد ذلك بوقت قصير سمعت صوت القضيب الذي تم برده وهو
يتحرك من مكانه ودخل رجل إلى غرفتها.
أرادت أن تصرخ:
-هوراسيو!

وقاومت رغبتها في النهوض من حيث تركع لاستقبال زوجها، ولكن قوبلت
شفتيها بزوج من شفاه عاطفية، وأحاطت ذراعان قويتان جسدها بعناق
عنيف، واختلط الصمت مرة أخرى بالظلام.

أيقظ نسيم الفجر البارد فيتال عندما هب على شعرها غير المعقود على جبهتها. كانت بمفردها؛ لم تكن هناك إشارة في أي مكان تدل على وجود رافيلو. لم يتبق من تلك الليلة الرومانسية سوى ذكرى باردة مرعبة. هل حدث ذلك حقاً؟ هل كان حلماً؟ كم هو لغز غريب!

عندما لمست جبينها بيدها، صرخت فيتال وملأت سعادة غامرة روحها. لقد وجدت في إصبعها خاتماً كانت قد أعطته لـ رافيلو في أحد الأيام الأولى لحبهما. لم تتصور ذلك، لم تحلم بذلك؛ فقضاءها تلك الساعات الثمينة الطويلة لم يكن وهماً من أوهام الموت، لقد كان زوجها.

جاءت العمدة العجوز لإخراج الفتاة من النشوة التي استوعبتها. صاحت السيدة الطيبة وهي تدخل:

-فيتال! فيتال! تعالي معي يا ابنتي؛ لقد أعطاك والدك الإذن لتقومين بعمل خيري. أتعرفين ما هو؟ إنه دفن الموحدين البائسين الذين أُعدموا رمياً بالرصاص بعد ظهر أمس في الساحة. لقد قال كيروجا أنهم قد يدفنوا، ولكن بشرط أن ترافقهم أمهاتهم وزوجاتهم إلى قبورهم. يا والدة الرب! أيها الأبناء المساكين! لقد تحولت كل كراهيتي إلى شفقة. دعينا نذهب يا ابنتي، دعينا نذهب لنساعد في تنفيذ هذا الواجب المؤلم.

تنهدت فيتال وفكرت في الأرواح البائسة التي كانت على وشك رؤيتها. تبعت عممتها وهي تشكر الرب لأنه حافظ على زوجها.

كانت المدينة مسرحاً لمشهد كئيب من المستحيل وصفه. امتلأت الشوارع بالدماء وكانت البيوت مفتوحة ومنهوبة. كانت طوابير طويلة من النساء بملابس الحداد السوداء تتجه نحو الساحة وهن ينتحبن عندما يجدن جثث أحبائهن المملخة بالدماء. تبعت فيتال ورفيقتها الموكب الكئيب، وعندما وصلن إلى الساحة المصرية التي تحولت إلى مجزرة رهيبة، بحثت كل

واحدة من تلك النساء البائسات بين الرفات الدامية عمّن أخذهم الموت
منهن. وفجأة، صرخت فيتال وانهارت فاقدة الوعي على الأرض؛ فمن بين
جثث مائتي ضابط والذين تم إعدامهم في اليوم السابق تعرّفت على جثة
زوجها....

ومنذ ذلك اليوم، تحولت فيتال إلى كائن غير حقيقي والذي انزلق
بين الأحياء وكأنه شبح. لم تكن تهدأ؛ ولم يعرف النوم طريقه إليها، كانت
شفتاها صامتتان، وفقط عندما تغرب الشمس وترى ظلّها مرسوما في
صور ظلية طويلة على عشب الحقول الجاف، تقطع صمتها الدائم وتهتف
بسعادة لانهائية:
-هوراسيو!

مرّت السنون، ولكن وجودها الغريب لم يتغير بأي شكل من الأشكال. كان
سكان الحقول المجاورة لا يزالون يجدونها في ليالي الصيف، في ضوء القمر،
تحت أوراق شجر البرتقال الكثيفة المعطرة، تتجول شاحبة ولكنها هادئة،
تحيك تيجانا من زهور البرتقال وتضعها على شعرها الذي كان لا يزال كثيفا
وأسود اللون - فالوقت الذي عادة ما يترك تلك الآثار العميقة قد
مرّ دون حتى أن يلمس طرف جناحه ملامح الناعمة البيضاء لذلك الوجه ،
بعد ثلاثين عاما من الجنون.

آه! ولكن من يدري إذا كان هذا السر الذي يشير إليه الرجال بمنتهى
الجنون ليس في كثير من الأحيان الرؤية المتوقعة للسعادة الأبدية!

ابنة مازوركويرو^١ أسطورة تاريخية

كان روكي الشرير هو مصدر الرعب في "بوينس آيرس". كان القاتل رقم واحد في جمعية للقتلة تُسمى "مازوركا"؛ كرس جسده وروحه للمؤسس البغيض لتلك الأخوية الرهيبة. كان يعد الساعات في اليوم بعدد الجرائم التي ارتكبها، وكانت يده - التي تحمل دائما خنجرا فوق رأسه - دائمة القتل. كان يترك الدماء وراءه أينما ذهب، واختفت من عنده كل آثار الرحمة منذ فترة طويلة لدرجة أن قلبه لم يعد يتذكر معناها؛ صرخات الأيتام والزوجات والأمهات لم تؤثر فيه؛ فكان كنصل الفولاذ البارد الذي يوجهه بعمق نحو صدور ضحاياه. اختفى كل مظهر من مظاهر الإنسانية من ملامح ذلك الرجل وكلماته؛ كان التعبير الحقيقي عن الاسم الذي أكسبته إياه جرائمه؛ مزيج من الضراوة والتكفير جعل أي فرد يسوقه حظه العثر للاقتراب منه يشحب من الخوف.

ومع ذلك، من خلال تلك المفردات الرهيبة الدالة على القسوة والاستهتار

١ - المازوركا المشار إليها "الاسترداد الشعبي المجتمعي" هي شرطة سرية مهمتها كشف معارضي نروزاس وتأمين قوته في الأرجنتين. اقتبست "المازوركا" اسمها من قشر الذرة الذي ظهر على شارة المجتمع. أسست عام ١٨٣٣، وكانت موضوع العديد من حكايات الرعب وأغاني المقاومة والشعر الهزلي الفاحش الذي أُلّف عن نظام روزاس. وحسب ما يُقال كانت زوجة روزاس، دونا إنكارناسيون، منظمة نشطة للمجتمع والتوجيهات الصادرة لعملاء الإرهاب الذين يرتكبون بعد ذلك الفظائع باسم أمن الدولة أومسبرات شعبية منظمة للدفاع عن روزاس. يشير اللقب الإسباني لقصة جوروني إلى روكي أسود الروح باعتباره عضوا بالمازوركا. استخدم جوروني قواعد الإملاء المشهورة في ذلك الوقت بكثير من الحرية، وبالتالي استخدمت أحيانا ماشوركويرو بدلا من مازوركويرو.

مثل زهرة تنمو في الوحل، كانت هناك كلمة مباركة يتلفظ بها روكي دائماً.

عندما عاد هذا الرجل المملطخ بالدماء إلى المنزل عند شروق الشمس وهو مرهق من الجرائم التي ارتكبها في تلك الليلة، كان يقول دائماً:
-كلمنسيا. وردا على هذا الاسم الذي بدا وكأنه تهكم على شفاه ذلك القاتل،
يجيب صوت حلو وشجي للغاية -والذي يبدو وكأنه يأتي من جوقة الملائكة
- بحنان:
-أي!

وتخرج فتاة كاملاك في السادسة عشر وذات عيون زرقاء كبيرة، متوجة
بهالة من الشعر الاشقر للقاء المازو ركوירו واحتضانه بعاطفة يشوبها الألم.
كانت كلمنسيا هي ابنته. أحبها روكي كنمر يحب أبنائه بحب شرس. كان
على استعداد للذهاب إلى نهاية العالم من أجلها، على استعداد لإسالة دمه
من أجلها، ولكن لم يكن ليتخلى عن قطرة واحدة من انتقامه، ولا التضحية
بأي من ميوله للقتل.

كانت كلمنسيا تعيش بمفردها في منزل المازو ركويرو الشرير. توفيت
والدتها منذ فترة طويلة، ضحية لمرض غير معروف. شاهدتها كلمنسيا وهي
تذبل وتموت ببطء في عذاب طويل دون أن تتمكن من إعادتها إلى الحياة
برعايتها الحنونة، كما لم تستطع أن تنتزع من قلب والدتها، ولا حتى من
خلال المناشدة والدموع، السر المصيري الذي كان يجرها إلى قبرها، ولكن
حينما توفيت والدتها، حينما رأتها تختفي تحت غطاء التابوت الأسود،
وحينما ذهبت لتلقي بنفسها في أحضان والدها وهي خائفة من الفراغ
الهائل الذي تشكّل حولها، وجدت ذراعي والدها ملطّخة بالدماء، فتبدى
الرعب فجأة على ملامحها. تطلعت إلى الوراء واستعادت ذاكرتها المشاهد
التي كانت آنذاك لغزا بالنسبة لها، ولكنها شاهدتها الآن بوضوح، بلا ريب،
وبشكل مربع للغاية. تذكرت اللعنات الموجهة نحو روكي المازو ركويرو

التي أذلتها مرات عديدة، وأنها في حبها، في تبجيلها لوالدها، لم تتمكن من تصديق ما هو موجّه إليه بالفعل. وحتى ذلك اليوم كانت تعيش في عالم من الحب والرحمة إلى أن وجدت نفسها فجأة في عالم مختلف تماما، عالم مليء بالجريمة والرعب. تراءت لها الحقيقة الكاملة، وعندما قارنت آلامها بالألم التي قبلته والدتها في صمت، فهمت لماذا فضلت والدتها الخلود على الحياة ووسادة القبر باردة على وسادة الفراش الزوجي، لكن مشاعر المرارة لم تختلط مع الحزن الذي شعرت به كلمنسيا. لقد كانت روح الفتاة الجميلة تشبه إلى حد كبير اسمها، كل العذوبة والعاطفة. لم يقلل اكتشافها المفزع بأي شكل من المودة التي تحملها لوالدها. على العكس، ازداد حبها لها، لأنها أحبته بشفقة عميقة. وحينما تراه يسير بمفرده مع جرائمه في طريق تندفق فيه الدماء وهو يحمل الكراهية على ظهره والانتقام في رأسه، بعيدا عن الغيرة من راحة والدتها الأبدية، أرادت كلمنسيا أن تعيش فرما ترافق والدها البائس في طريق الشر كملاك حارس؛ ولو لم تتمكن من إبعاده عنه، على الأقل تقدّم إلى الرب حياة مليئة بالمعاناة والتكفير نيابة عنه.

رفضت كلمنسيا بفزع الرفاهية التي تحيط بها؛ فلقد رأت فيها مكافآت الجريمة. تناسلت أنها شابة، تناسلت أنها جميلة وأن العالم مليء بمتع رائعة للشباب والجمال وأخفت هيئتها الممشوقة وملامحها العذبة تحت عباءة بيضاء طويلة وغطت شعرها الحريري الرائع بحجاب ثقيل والذي أسكت ضربات قلبها الباحثة عن الحب، وكوّست نفسها تماما لتخفيف حظها العثر. وللتغلب على الرعب الهائل في روحها، بحثت في القوائم الملطخة بالدماء حيث سجّل والدها أسماء ضحاياه، وبالاسترشاد بهذه الحقائق القائمة، هرعت لتبني الأيتام والأرامل الذين تركهم خنجره بلا حماية في هذا العالم. ولكي تنقذهم، استخدمت المواهب التي اكتسبتها من تعليم والدتها شديد التدقيق؛ فأعطت دروسا في الموسيقى والرسم، وكوّست وقتها كله لعملها. ملأت الفتاة المسكينة عقلها بأفكار كئيبة، وعلى الرغم من أن قلبها كان دائما مثقلا بالأسف، كانت تعزف موسيقى "البولكا" المبهجة والتي رقص

طلابها عليها بفرح ومرح. وفي عزلة لياليها المخيفة، شغلت نفسها - من قالت وداعاً للأبد لجميع مباحج الحياة- بتطريز باقات أزهار شفافة في حجاب المتزوجات حديثاً أو في الطيات الشفافة والجدابة لثوب رقص، دون أن تبتئس من الأفكار المؤلمة التي أيقظتها تلك الأكسسوارات المفرحة في روحها والتي لم تعد تستطيع الحلم بها ثانية. وبمجرد الانتهاء من هذه المهام، والتي ملأ ثمنها روحها بالعديد من العواطف الحزينة، تهرع لنشر الراحة والسلام في منزل شخص قتله فأس والدها. كانت تداعب وتساهم في تعليم الأطفال كأم حنون، كانت تراعي المرضى منهم بعناية الراهبات الفائقة، وساعدت من هم على وشك الموت بعطف ورحمة.

وحيث أنها نسيت نفسها تماماً، بدت كلمنسيا وكأنها تعيش فقط لحياة الآخرين. ومع ذلك ابتسم العالم في وجهها من بعيد وفتح ذراعيه وأظهر مسراته لها. في كثير من الأحيان، في نزهاتها الخيرية، كانت كلمنسيا تسمع أصوات مبتهجة للغاية خلفها تهتف قائلة:

-انظروا كم هي جميلة! مباركة، ألف مرة مباركة، من الذي يستحق نظرة من تلك العيون!

لكن تلك الكلمات الجريئة للحب في منتصف الصمت الجنائزي لمدينة بائسة أزعجت آذان كلمنسيا، كما لو كانت أغاني محرمة بين قبورالمدفن؛ وبينما تخفي وجهها خلف طيات حجابها، تهرع وقلبها مثقل بالحزن والاشمئزاز.

ذات ليلة، رأت كلمنسيا مجموعة من الرجال يدخلون منزلها ويتجهون نحو غرفة والدها؛ كانت ملامحهم مثيرة للرعب وتنم عن الشر. كانوا يغطون أنفسهم بعباءات طويلة، والتي يمكن رؤية نصال خناجرهم اللامعة في طياتها. توقعت كلمنسيا الشر في وجود هؤلاء الرجال، وبعد التردد للحظة وجيزة، سارعت ووضعت أذنها على ثقب مفتاح الباب الذي يؤدي

إلى غرفة والدها.

كان روكي، الذي يقف بالقرب من طاولة وهو يحمل بعض الأوراق في يده، يتحدث بصوت عال أمام الحاضرين في الغرفة.
قال:

-نعم يا أصدقائي، إنها حرب حتى الموت ضد أولئك الموحدين! حرب حتى الموت ضد أولئك الأشرار! تعتقدون أنكم حققتم إنجازا كبيرا؟ حسنا، أنتم فقط تخذعون أنفسكم. كل ما عليكم القيام به هو قراءة قائمة من نفّذنا فيهم حكم الإعدام هذا الشهر ومقارنتها بجميع الاتهامات التي تلقيناها اليوم فقط. اقرأوها وسترون أنه لا يزال هناك الكثير من العمل الذي يتعين على نصل "المازوركا" القيام به. عندما تقارنون عدد أولئك الذين سقطوا مع عدد أولئك الذين سوف يسقطون...نعم، من سيسقطون، حتى ولو اختبأوا تحت عباءة مريم العذراء نفسها!

غمغمت كلمنسيا:

-يا ملكة السماء!

وشبّكت يديها بألم واتجهت نحو صورة العذراء، رفيقتها الوحيدة في هذا المسكن الانفرادي.

-إذا وصل هذا الكفر إلى أقدام عرشك الإلهي، لا تستمعي إليه أيتها الأم السماوية! تجاهليه بغفران وتألقي بابتسامة شفقة على تلك الروح البائسة التي تسير في الظلام.

وبعد النطق بهذه الكلمات، التفتت كلمنسيا لتعاود الاستماع إلى والدها الذي كان يقرأ بصوت عال:

-الليلة، في التاسعة مساءً، سيتوقف رجل ملثم عند سفح المسلة الكائنة في ساحة "فيكتوريا" ، وسيصفر ثلاث مرات.هذا الرجل هو مانويل دي بويريدون^١ متآمر الموحدين الفاسد، صديق لافال الذي هاجر إلى

١ - مانويل دي بويريدون (إملاء حديث) (١٨٠٢-١٨٦٥) انضم إلى جيش الاستقلال ضد إسبانيا، ودعم لافال لاحقا في نضاله ضد مؤيد روزاس: دوريجو. سجنه روزاس عام ١٨٣٥، وعند الإفراج عنه، هاجر أولا إلى "مونتيفيديو" ثم إلى البرازيل.

"مونتيڤيدو" الإشارة هي لابنة أحد الفيدراليين التي انضمت إليه في السر، وبعدها أصبحت أقوى مساعديه، أبلغته أسرار أبيها. وبعد أن تبلغها تلك الإشارة بعودة المتآمر، ستذهب بالتأكد لمقابلته ومساعدته في خطة القاعدة التي جلبها من أجلها ليتم تنفيذها في "بوينس آيرس".

هتف روكي بغضب شرس:

-هل تسمعون ذلك يا رفاق؟ والخناجر لا زالت في أحزمتنا؟

صاح القتلة وهم يستلون خناجرهم الطويلة:

-الموت لـ مانويل ديبويريدون!

نظرت كلمنسيا من خلال ثقب المفتاح إلى الساعة الكائنة أمام والدها وارتعدت؛ فالعقارب أشارت إلى التاسعة إلا خمس دقائق.

-خمس دقائق لإنقاذ حياة الرجل! خمس دقائق لمنع والدي من ارتكاب جريمة أخرى! أوه! يا إلهي، مدد هذا المقدار القصير من الوقت واجعل قدامي تطيران كالأجنحة.

غطت نفسها بحجابها الأبيض الطويل وهرعت خارج منزلها إلى الشارع في اتجاه الساحة، ولكن ليس دون أن تنظر حولها عدة مرات خوفاً من أن يلحق بها القتلة ويجتازونها، فيحبطون رغبتها في إنقاذ البائس الذي كان في تلك اللحظة -دون أن يدري- يسير في طريق وفاته.

وعندما وصلت إلى زاوية كالي ديلا فيكتوريا وكالي ديل كوليجيو، رصدت كلمنسيا هيئة سوداء تعبر الساحة "بلازا" بشكل مائل متجهة نحو المسلة.

غمغمت بصوت مرتعد:

-ها هو!

١ - جوان لافال (١٧٩٧-١٨٤١) انضم إلى حشود سان مارتين وأطلق العنان لاحقاً للحروب الأهلية التي قسّمت الأرجنتين نتيجة اغتياله لـ دوريجو في ١٨٢٨. سعى روزاس إلى الانتقام منه، فبدأ سلسلة من المعارك والتي استمرت حتى مقتل لافال في ١٨٤١.

وركضت نحوه، ولحقت به عندما وصل إلى السور الحديدي. كان هناك أشخاص عديدون يتجولون في تلك الليلة في نسيم المساء، وأعاقوا كلمنسيا من التحدث مع شخص غريب بشكل مباشر؛ لذا اتخذت طريقا جانبيا وسارت نحوه ولمست ظهره برفق وأشارت إليه إشارة غير ملحوظة كي يتبعها.

استدار الرجل الملثم بتهور واتجه إلى كلمنسيا وهتف:

-إميليا! حبيبتي إميليا!

وجذبها بلطف بذراعه، ولم تكن قادرة على منعه خشية لفت الانتباه إليهما.

وحيث أنها أُجبرت على التزام الصمت، نظرت كلمنسيا من خلال حجابها إلى الرجل الذي أضاء ضوء القمر وجهه فقط في تلك اللحظة تحت قناعه. كان شابا وسيما والتي لم ترَ كلمنسيا مثله قط طوال الستة عشر عاما التي عاشتهم، حتى في أحلامها الغنائية. كان طويل القامة ورشيق. عكست جميع تحركاته السلسلة تلك الأناقة المبهمة تقريبا والمكتسبة فقط من خلال معرفة العالم والمنشأ المتميز. نظرت عيونه الجميلة، والتي أصبحت نظرتها على الفور عميقة ومتخاذلة بجاذبية لا تقاوم والتي، جنبا إلى جنب مع التناسق السحري لصوته، جعلته واحدا من هؤلاء الأشخاص الذين لا يمكن نسيانهم بمجرد النظر إليهم، ومن يتركون دائما إمّا أثرا لا يُحى من السعادة -وإمّا الحزن- في حياتنا.

واصل الغريب، الذي جرفه سوء الفهم، حديثه في أذن كلمنسيا: -إميليا، أنا هنا يا حبيبتي، ليس كمتآمر لأشرك مرة أخرى في دمار أحلامي غير الواقعية، ولكن كزوج حنون .. زوج سيأخذك بعيدا عن أحضان والدك ويضمك إليه، حتى يتسنى لنا أن نبتعد، بعيدا جدا عن هنا، إلى الصحراء، إلى مكان مجهول يحوِّله حبك إلى جنة عدن ممتعة. تعالي، يا حبيبتي إميليا، دعينا نترك بلدتنا المنكوبة. لقد لعنها الرب، وأصبحت جهودنا وتضحياتنا

لإنقاذها دون جدوى ...
-أوه!

واصل المغترب حديثه في صوت خافت وهو يضم كلمنسيا أكثر وأكثر إلى صدره.

-أترين يا إميليا، هذه الفكرة تمزق قلبي ... ولكنك هنا لتهدئة ألمي وملء قلبي بالفرحة ...

-ونجلنا؟ سيكون وسيما للغاية! كم عانيت عندما كان فراقك له لزاما عليك بسبب الحاجة القاسية لإخفاء وجوده ... !

في تلك اللحظة كانا قد وصلا إلى جزء خالٍ من الساحة. نظرت كلمنسيا حولها وأبعدت نفسها بسرعة عن الغريب؛ ثم رفعت حجابها حتى يدرك خطأه.

صاح:

-يا رب السماوات! إنها ليست إميليا!

-كلا يا سيدي، ولكن إذا كان اسمك هو مانويل دي بويريدون، يجب أن تباعد عن هذا المكان المشؤوم؛ لأن كل ثانية فيه هي خطوة تقربك من الموت.... ألا تراهم؟

وأشارت برعب إلى مجموعة من الرجال يرتدون ملابس سوداء في الطرف الآخر من الساحة. تابعت قائلة:

-ها هم، خناجر "المازوركا" المملوطة بالدماء تنتظر التبرؤ بك ... اهرب من هنا، بحق السماء، من أجل زوجتك، من أجل ابنك... اهرب معهم بعيدا عن عرين الوحوش؛ لتحقيق حلم السعادة الجميل الذي يملأ عقلك.... اذهب، اذهب!

ظلت تكررهما وهي تفقد الغريب نحو شارع مظلم بينما أسرع هي نحو شارع آخر.

عندما عادت إلى المنزل، ذهبت كلمنسيا وجثت على ركبتها عند أقدام العذراء وهي تخفي وجهها تحت نقاب التمثال المقدس. ظلت تبكي لفترة طويلة متممة بكلمات غامضة بين تنهيداتهما. ربما تكشف هذه بعض الأسرار الحلوة والمؤلمة والتي أرادت الاحتفاظ بها لنفسها، وتجرات فقط لتبوح بها للوحيدة التي تحمل مفاتيح قلوب جميع العذارى.

ومنذ ذلك اليوم أصبح وجه كلمنسيا الساحر والحزين أكثر شحوبا، وحملت ملامحها حزنا أعمق. من يدري أي رؤية بهيجة ومضت في عقلها عندما سمعت الكلمات العاطفية التي قالها هذا الرجل؟! من يدري ما العواطف التي تحركت في ذلك القلب الشاب الوحيد؟!

في بعض الأحيان، كانت تبتسم بعذوبة وتحقق في الفضاء، ولكن بعد ذلك، تهز رأسها في استسلام مؤلم كما لو تذكرت شيئا مريرا، وتهمس بهدوء: -أنت ابنة شخص بائس، وارثة لعقوبة السماء، ضحية يجب أن تكفر عن خطيئة آخر، تذكرني قسمك، ولا تنسي أن هذا العالم ليس مملكتك.

وتتهاوى مرة أخرى في حزنها العنيد، وتكرّس نفسها بحماسة أكبر لمهمة التقوى التي كرّست نفسها لها.

قال المازوركوبيرو ذات يوم لابنته:

-كلمنسيا، لماذا أجذك أكثر حزنا وتأملًا طوال الوقت؟ من يجروء على أن يسبب لك مثل هذا الحزن؟ أخبريني باسمه.

أجابت وجسدها يرتجف:

-لا أحد! يا أبي... لا أحد!

ورفعت يدها بشكل عفوي ناحية قلبها، كما لو كانت تخشى أن يقرأ والدها بعض الأسرار المكتوبة هناك.

-كلا... أنت تكذبن عليّ.... منذ فترة وأنا ألاحظ الدموع حتى في صوتك عندما تأني لتعانقيني.

قاطعته الفتاة:

-أيي ...

وتطلعت إلى عيونه المملطخة بالدماء بعينيهما الزرقاوتين الرحيمتين:
-ألا يمكنك أن تستنتج ما الأمر؟ بعد ليلة من البقاء مستيقظة ومملأني
القلق، رأيته تصل أخيراً، وعندما خرجت لأعانقك، ظننت بحزن عميق أن
أطفال أولئك البائسين الذين تجعلهم فؤوس عصابتك يصمتون للأبد كل
يوم لن يستطيعوا التمتع بالسعادة التي لازال الرب يمنحها لي. أوه يا أيي!
ألا يكفي هذا السبب كي أصبح حزينة وعينا مليئة بالدموع؟ في منتصف
تلك المشاهد الدامية، ألم تضع يدك أبداً على قلبك أو لم تسأل نفسك ماذا
ستفعل لو رأيت يدا تمسك بخنجر تتجه نحو ابنتك وتقطع رأسها...؟
صاح قاطع الطريق:

-اصمتي...! اصمتي يا كلمنسيا...! ماذا أفعل؟ الجحيم نفسه لا يعرف غضبا
كالغضب الذي سيدفع ذراع روكي لينتقم لموتك ... ولكنك مجنونة يا فتاة!
ألا تعرفين أن الموحيدين الهمج لا يملكون قلوبا كقلوبنا، أنهم لا يعرفون
كيف يحبون ويكرهون بالتساوي كما نفعل... ؟
-أيي، أنت تعلم أن هذا ليس صحيحاً! ماذا تمثل بالنسبة لك صرخات هؤلاء
الأمهات الفاجعة وعويل تلك الزوجات وصرخات الأيتام الحزينة التي
أسمعها في كل ساعة ترتفع إلى السماء من جراء ما نفعله بهم؟ ألا يقولون
أن الأحشاء التي يخترقها خنجرك في أعماق أرواحهم حساسة مثل أحشائنا؟
كرر:

-اصمتي، اصمتي يا كلمنسيا! صوتك متملق ومقنع لدرجة أنني قد أبدأ
في تصديق ما تقولين؛ وماذا سيظن الجنرال روزاس في خادمه المخلص إذن؟
أيمكنك أن تتخيلي كم سيخر سالومون وكويتينو من رفيقهما! كلا، كلا...
اصمتي! لا أطيق سماع ما تقولين، وخصوصاً اليوم، عندما يقوم مانويل دي
بويريدون، قاطع الطريق التابع للموحيدين والذي أقسمت على قطع رأسه،
بالتجول بحرية بيننا، كما لو كانت تحميه قوة خارقة ... أوه! ولكني فقط
أقلق نفسي عبثاً... ما هذا الجنون! قلبي مليء بالكراهية! ليست هناك

فرصة أن تجد الرحمة طريقا إليّ على الإطلاق.... إذا كنت لا تصدقيني،
استمعي فقط إلى تلك القصة... قبل بضعة أشهر، ذهبت إلى كنيسة العون
لحضور القداس.

-أي! هل تجرأت على دخول معبد الرب بيديك المملطختين!
-المملطختين بالدماء؟ نعم، بالطبع. ولما لا؟! إنهما ملطختان بدماء الموحدين،
والموحدين هم أعداء الرب.

-ذهبت، كما كنت أقول، إلى كنيسة العون. كان القداس قد بدأ للتو، عندها
التفت إليّ رجل راكع بجواربي فجأة وحق في وجهي للحظة، كما لو كان
يتأكد من أنني من يقصده. ثم نظر إليّ بازدراء، وابتعد عني باشمئزاز وقح
واتجه إلى الجانب الآخر من الكنيسة. لقد تعرّف البائس على روكي، لكنه
لم يكن يعرف مدى انتقامه.

-لم أرفع عيني عنه طوال القداس؛ وبعدما غادر الكنيسة، تبعته حتى ذهب
إلى منزل صغير متهدم.

-في تلك الليلة، في حين نسي ذلك الرجل تماما إهائته لي وكان يقضي المساء
بأمان وطفلاه الصغيران بين ذراعيه وإلى جانبه زوجته التي كانت تطرز
الحليات الموجودة على خزانة الثياب من أجل الطفل الثالث الذي سيولد
قريبا، تزعمت "المازوركا" إلى منزله. وبينما كان لا يزال في أحضان زوجته
وأطفاله، غرزت خنجري ألف مرة في صدره، وتناثر الدم في كل مكان، حتى
على حفاظات الطفل الذي لم يرَ الدنيا بعد...
كلمنسيا! كلمنسيا! ماذا بك؟

قفز القاتل ليحمل ابنته التي كانت ترتجف وتتأرجح دون ثبات وتحاول
أن تبقى بعيدا عنها وعلى وجهها علامات الرعب والتي أخفتها بالكاد. تابع
قائلا:

-لبعض الوقت، ظننت أنني أشعر بما يسمونه تأنيب الضمير، فلم يمكنني
نسيان ذلك المشهد الدموي ولا الصرخات والدموع؛ ظلت مخيلتي تذكرني
به، ولكن، كلا! لم يكن تأنيب الضمير، بل فرحة الانتقام الراضي. في اليوم

الذي يعلم فيه روكي الشفقة أو الندم، سيصبح نصل هذا السلاح بليدا....
انظري كيف لازال يلمع حتى اليوم.
قالها قاطع الطريق وهو يلوّح بخنجره العريض أمام عيون ابنته. بعد
ذلك، أعاد الخنجر مرة أخرى إلى الشيريبا^١ وخرج ليوصل أعماله الرهيبة
بلا شك.

شعرت كلمنسيا بالدمار التام تحت وطأة تلك الكلمات المرعبة التي
سمعتها للتو. وبينما تشعر بالضعف والدوار وخيبة الأمل، انهارت عند
قدمي حاميتها الإلهية ورفعت يديها نحوها وتضرعت إليها بدعاء متألم.

وبينما تصلي، عاد الأمل والإيمان ببطء إلى قلبها. وعندما نهضت مرة
أخرى، أشرقت ملامحها من جديد بصفاء الاستعفاء.
قالت وهي ترفع عينيها إلى السماء:
لا يفوت أوان رحمتك المطلقة أبدا يا إلهي؛ فوقت التوبة لم يحن بعد،
ولكنه سيأتي، سيأتي.

وعلى الفور توجهت إلى الصندوق التي تحتفظ به من أجل الضحايا
البائسين وأخرجت سلة من المون وحقيبة صغيرة من الذهب، وبمساعدة
ظلال الليل، اتجهت لتبحث عن المنزل الذي تحدث عنه والدها للتو.

تعرفت على المنزل من خلال العلامات التي خلفتها فؤوس قاطع الطريق.
بينما كان يكسر الباب الخلفي مما تركه مفتوحا على مصراعيه، كانت
كلمنسيا على وشك اجتياز العتبة المؤدية إلى غرفة فارغة فقيرة عندما
سمعت صوت في الداخل، وتوقفت لترى من يقدم نفسه إليها.

في إحدى زوايا الغرفة، كانت هناك امرأة ترقد على فراش بسيط ذي
١ - الشيريبا: السراويل التي يرتديها رعاة الأبقار، مصنوعة من شال صوفي مطرز مع زاوية بين الساقين
فوق شرائط السراويل.

أغطية قليلة؛ كانت صغيرة، ولكن شاحبة ونحيلة، تحمل طفلاً حديث الولادة بين ذراعيها. وعلى مسافة أبعد، كان هناك طفل في السادسة من عمره وآخر في الرابعة؛ كانا يجلسان تحت أغطية فراش صغير معلق كالمهد بواسطة أربعة حبال مربوطة حول عارضة متقاطعة في السقف.

أظهر الضوء الخافت لشمعة موقدة على الأرض المسكن بمظهر قاتم. هذا بالإضافة إلى التفكير في المشهد المرعب الذي وقع مؤخراً هناك، ألم قلب كلمنسيا.

-لقد تناولناه يا إنريكي، لقد تناولناه، ليس لديها أيمال لشراء خبز آخر لأنها مريضة ولا تستطيع العمل. لاتعذبها؛ دعها تخلد للنوم مثل الملاك الصغير المسكين الذي أرسله لنا الرب بالأمس. قال إنريكي وهو يبكي:

-أوه! بفمه ثدي أمي وأنا جائعأنا جائع!
هتفت الأم بين تنهيداتهما:

-يا إلهي! إذا كان من حكمة تصاريك أن يقطع الفأس القاتل أقوى شجرة، أقبل إرادتك وسأستسلم لها، ولكن ارحم هاتين الزهرتين الرقيقتين اللتين بدأتا للتو فتح أوراقهما لأشعة شمسك. يا إلهي الكريم! يا من تطعم طيور السماء والديدان في الأرض، ويا من تسمع بكاء أولادي الجائعين، ألا يمكنك إرسال واحد من آلاف الملائكة التي تعيش في السماء لمساعدتهما ... ؟!
تمتعت:

-آه! ها هو

ورأت كلمنسيا تركع أمام فراش الأطفال وتعطيهم المون التي أحضرتها.
قال الشقيق الأصغر بصوت حزين:

-أمي، ماذا فعلت بالخبز الذي تناولناه بالأمس؟

تنهدت الأم بعمق وزفرت الدموع بحزن، في حين أجاب الصبي الآخر بنبرة جادة مستسلمة، شبكت الأم يديها وحدقت بشدة في امرأة شابة جميلة

والتي يبدو حجابها الأبيض المطوي إلى الخلف كهالة حول وجهها وكأنه يضيء الظلام الذي يحيط بها، ومن تنحني نحو الطفلين كروح رحيمة وتنظر إليهما بعيون مليئة بالعاطفة والألم. ظنت المرأة المسكينة أن كلمنسيا كانت ملاكا نزل من السماء استجابة لصلواتها. جلست بلا حراك، فكانت تخشى أن تؤدي حركة واحدة فقط أو نسمة واحدة من الرياح إلى تلاشي ذلك المشهد الإلهي والعودة ثانية إلى واقعهم المروع. عندما اقتربت كلمنسيا من الفراش مدت المرأة البسيطة يدها بقلق لتلمس كلمنسيا كي تقنع نفسها بأنها حقيقة وليست شبحا خارقا للطبيعة.

هتفت وهي تضع ذراعيها حول ركبتَي كلمنسيا:
-أوه! أنت، يا من أتيت لتقديم الراحة في هذا المنزل المليء بالمعاناة. من أنت، أأنت مخلوق ملائكي؟

-أنا كائن تعيس، مثلك تماما، ولقد جئت أبحث عن رفاق مثلي يعانون. لقد جئت لأقول لكم: الأم المسيحية، ثقي في من يمسح كل الدموع ويسكت كل الصرخات. يرعانا جميعا من أعالي السماء ويمكنه تحويل أضعف المخلوقات إلى أداة لرحمته. أتُركت وحيدة ودون حماية؟ سأكون قريبة منك وستكونين أختي العزيزة. هل أطفالك في حاجة إلى الحماية؟ سأوفرها لهم. هل تحتاجين إلى كل شيء تقريبا؟ لقد أحضرت إليك الذهب كي تبتاعين ما تحتاجين.

قالت الأرملة:

-أوه! أنت قديسة!

وسجدت بخشوع:

-باركي طفلي وأعطيه اسما، فهو لم يُعمد بعد.

ووضعت المولود الجديد بين ذراعي كلمنسيا.

قالت بصوت منخفض:

-أسميه مانويل.

وبمجرد أن نطقت الاسم، احمر وجه العذراء الشاحب وأشرقت عينيها

بتألق غريب.

تابعت قائلة وهي تقبل الطفل بخجل:

-مانويل، سأكون عربتك الخاصة والمحبة، ولكن والدتك لن تشعر بالغيرة مني؛ فكل المداعبات ستكون من أجلها. كل ما سأحتاجه كي أكون سعيدة هو أن أكون قادرة على أن أقول كل يوم: "مانويل، أنا أحبك!".
هتفت الأم المسكينة وهي تقبض على يد كلمنسيا وتغطي بها عينيها وهي تبكي بشدة:

-أوه، يا! قريبا ستكونين كل شيء بالنسبة له. زوجي يدعوني من السماء. فخنجر القاتل لم يتمكن من كسر الرابطة التي تجمع أرواحنا؛ على الرغم من أنني لا أمتنى ذلك، وأبكي بهمارة من أجل تلك الأرواح الأخرى التي ستظل تعاني على الأرض، سرعان ما ستترك روحي هذا العالم لتتضم إلى زوجي مرة أخرى.
هذا ما قالته المرأة المسكينة وهي تشير إلى أطفالها في لفتة يائسة.

استمعت إليها كلمنسيا وهي مرعوبة. كانت ابنة القاتل تفكر وترتجف وتشعر بالرعب من جرائم والدها؛ صورة تلك الجرائم التي لم تعلن أبدا عن نفسها بمثل هذا الوضوح والرعب. ولكن بعد أن تغلبت على الأفكار القائمة التي طغت لها، تذكرت أهم واجباتها وهي لا تزال في هذا العالم، تذكّرت كل منهما بالحاجة إلى الاستسلام إلى إرادة السماء.

قال الصبي الأكبر عندما أصبحوا وحدهم مرة أخرى:
-أماه، أي الملائكة الربانية تلك التي جاءت للتو لزيارتنا؟ شعرها جميل، طويل كالسيدة العذراء!
وقال الأصغر:

-وعيناها يا أمي، كانت عيناها زرقاوتين كالسما، ورموشها، أليس صحيحا أنها بدت كأشعة ذلك النجم الذي يطل علينا من خلال النافذة؟
أجابت الأرملة وهي تبتسم بحزن في وجه أطفالها:
-نعم يا أطفال، إنها ملاك جميل أرسله الرب إلى الأرض لمواساة البائسين.

-أوه! إنها ملاك على الأرض، ولهذا هي غير سعيدة. رأيتهما تبكي .

-ما اسم هذا الملاك يا أمي؟

قالت الأرملة:

-مهما يكن، دعونا نباركه يا أطفال، ونصلي للرب أن يجفف دموعها كما جففت دموعنا.

وجعلت الطفلين يركعان ليؤديان صلاتهما المسائية.

في هذه الأثناء، ابتعدت كلمنسيا بخطوات بطيئة غير ثابتة. كشفت تعبيرات وجهها عن حزن عميق. كانت تفكر في جبروت الشر وضعف الخير فضربة واحدة فقط من خنجر هي كل ما تكبده والدها ليفتح هاوية البؤس التي رأتها للتو، ومع حياة كاملة من التضحيات ونكران الذات، ماذا أنجزت للقضاء على الجوع وتوفير الملابس لعلاج الآلام المادية، ولكن بالنسبة لأحزان الروح، لم تستطع تقديم شيء سوى الدموع. وهذا الفكر هو ما جعل كلمنسيا تشعر بالقهر وخيبة الأمل بشكل هائل، ولكن كما هو الحال دائماً، عندما كانت تخشى تزعزع إيمانها، ترفع الفتاة العذراء أفكارها تجاه الرب وتطلب منه بعض التضحيات الكبيرة التي من شأنها أن تكشف عن السر الكامن وراء كيفية حلول السعادة الآن إبان سيادة الحزن.

ثم سمعت اسماً يتكرر مرات عديدة بنبرات شرسة، أيقظها فجأة من تأملاتها الحزينة. تطلعت حولها وأدركت أنها تقف مباشرة إلى جانب مجموعة من الرجال والذين لفتت ملامحهم الشريرة انتباهها. كانوا يرتدون عباءات طويلة وكانوا يحرسون باباً بعناية، وكان جميعهم مسلّحين بالخناجر. كان هؤلاء الرجال هم رفاق والدها، وذلك البناء هو مقر الحكم، الموقع المكرّس للعمليات السرية، حيث دخل الموحدون في سلام ولن يخرجوا أبداً، وبداخل قبوره كتب إصبع الرعب نقش دانتي الحزين.

وبينما تهتز وترتعش بقلق، حاولت كلمنسيا الاختباء خلف عمود كي

تسمع ما يقوله هؤلاء الرجال. وصل فارس على حصان أسود؛ كان يتحكم بصعوبة في دابته وهي فرس نشيط، وكان يسب ويلعن -كالعادة- وترك أحزمة سيفه الطويل تدق بصوت عالٍ في مؤخرة الرمح الذي كان يلوح به مهدها، ثم اقترب من المجموعة التي تحرس الباب.

صرخ بصوت فظ وأجش من فوق حصانه:

-الملازم كوربالان، خذ عشرين رجلا وحاصر "باجو" بينما أقوم بتمشيط "باراكاس". وأقسم، والشيطان على ما أقول شهيد، بأنني سأقتل نفسي لو أشرقت شمس الغد ولم تشهد رأس مانويل دي بويريدون على نهاية هذا الرمح!

ركعت كلمنسيا على ركبتها وهي شاحبة وقد بلغ منها الرعب مبلغه؛ فالرجل الذي أقسم للتو بهذا اليمين الرهيب هو والدها. قال أحد قطاع الطرق: "

-كوربالان، خذني معك أريد أن أقتل الرجال لا البقاء هنا لحراسة النساء. وقال آخر بلهجة مخيفة:

-إذا أعطاك أسود الروح المرأة الكامنة في خلية الثلاثة صلبان، لن تكون حراستها أمرا صعبا للغاية بالنسبة لك، أليس كذلك؟

-أوه! هذه النمرة العجوز! لقد فاجأ هذه المرأة الجميلة وهي تنتظر حبيبها وقيدتها كحمل إلى الجزء الخلفي من سرجه، وجلبها إلى مقر الحكم وهو يخفيها تحت عباءة طويلة، وسجنها في زنزانة الثلاثة صلبان- موقع به أكثر من خمسين مقبرة-....أنساءل عما يعتزم القيام به معها الآن. -لا أكثر ولا أقل من قتلها بدلا من زوجها، أو قتلها مع زوجها إذا تمكّن من الإمساك به.

سمعت كلمنسيا ما يكفي؛ فنهضت وهي قوية وحازمة وسارت بجراً

١ - مانويل كورفالان (إملاء حديث) (١٧٧٤-١٨٤٧) دافع عن "بوينس آيرس" ضد الغزوات الإنجليزية، وتعاون مع سان مارتين. وعندما أمسك روزاس بزمam السلطة، أصبح كورفالان مستشاره وكاتم أسرارته المقرب، وكان مواليا لـ روزاس طوال فترة وجوده في السلطة.

نحو زعيم قطع الطريق ثم رفعت حجابها ونظرت إليه بنظرة عيون والدها
السوداء، وقالت بلهجة آمرة:
-ملازم كوربالان! هل تعرف من أنا؟
صاح المازوركوبيرو وهو ينزع القناع عن وجهه:
-ابنة القائد!

ابتعد قطع الطريق عن الطريق بكل احترام وسارت المرأة الشابة، دون أن
تتفوه بكلمة أخرى، مباشرة أمامهم في ظلال المبنى المشؤوم.

وفي ظلام مدخل القاعة القائمة والتي تؤدي إلى فناء الزنازين، رأت
كلمنسيار جلا يقف بثبات، متوكأ على مطرد. كان يرتدي زي حارس؛ ظنت
أنه يجب أن يكون خفيرا، ولكن عندما اقتربت منه، بدأت ما تنتويه.

لم تكن الشابة بحاجة إلى أن ترى وجهه - المغطى برداء واسع لأحد أغذية
الرأس التي يستخدمها الرجال في الأحياء كي تتعرف عليه.
همست كلمنسيا في أذنه:
-أيها البائس!

وجذبتة من ذراعه في خوف:
-ماذا تفعل هنا؟ ألم تسمع ما قاله الرجال بالخارج للتو؟
أجاب مقاطعا إياها:

-بلى، أنا من يبحث عنه هؤلاء القتلة بشراسة. خناجرهم معلقة فوق رأسي،
ولكن جئت لإنقاذ حبيبي أو الهلاك معها. انظري.
وركل جسدا مشوها ملقا على الأرض إلى جواره وتابع قائلا:
-لقد قتل أحد الحراس، والآن أرتدي زيه العسكري وأنتظر هنا وسأقتل
أول رجل يأتي إلى عتبة ذلك الباب.
قالت كلمنسيا:

-مانويل دي بويريدون!

وكشفت عن وجهها الجميل وحدّقت في عيون الغريب بنظرة لا توصف.
-هل تذكرني؟

هتف الموحّد:

-إنها... الملاك الذي أنقذ حياتي..!

-هل تثق بي؟ هل تترك لي مهمة إنقاذ المرأة التي أتيت لإنقاذها؟
أجاب:

-أوه!

قالها بعاطفة يشوبها فرح شديد لدرجة أن كلمنسيا حاولت تجاهلها وهي خائفة:

-فقط من أجل قولك تلك الكلمات أيها الكائن الجميل، أنا رهن إشارتك، في خدمتك. اطلبي أي شيء... أن أسفك دمي... من أجل أن... أمنحك كل شيء.
-اترك هذا المكان المشؤوم إذن. سر من خلال هذا الباب المصيري وانتظر حبيبتيك حيث كانت تنتظرك منذ فترة ليست بالطويلة.

-كلا! سأفعل أي شيء... إلا الابتعاد ولو لخطوة واحدة بدونها.

"أوه! يا ربي! إنه مصمم على قتل نفسه! ... حسنا، إذن في هذه الحالة، أقسم لي أنك ستبقى هنا، بتنكرك، وأنت لن تتحرك ولن تهاجم أي شخص، أيّا كان من يأتي من هناك."

"هذا وعد يصعب الوفاء به! ... ولكن حيث أنك ترغيبين في ذلك، فليكن!"
هتفت:

-شكرا لك! شكرا لك!

وصافحت يد الغريب الذي شعر بسقوط دمعة عليها:

-فلتسعد يا مانويل بويريديون ... إلى اللقاء!

أنزلت الشابة حجابها واختفت في الظلال. سمع الموحّد صوت قعقة الأقفال والمزليج وهي تُفتح على بُعد وقال:

-هذا هو الباب المؤدي إلى زنانتها... إيميليا! حبيبتي إيميليا!

وبعينين وأذنين منتبهتين، انتظر بيقظة ومعاناة في سكون الليل. وعلى

هذا النحو، مرّت دقيقتان، خمسة، عشرة؛ كانت كل دقيقة تبدو وكأنها تستمر لقرن من الزمان. وبقلق عنيد، كان بويريدون في النهاية على وشك الحنث بيمينه والركض وراء المرأة التي فرضته عليه.

ولكن بعد ذلك، من على بُعد، رأى فجأة حجاب كلمنسيا الأبيض يظهر في ظلمة الممر القاتم. رأى بويريدون أنها جاءت وحدها، فنسي وعده ونسي الخطر المحيط به ونسي كل شيء، وسمح لتنهيذة متألمة بالخروج وركض ليلقائها، ولكن عندما وصل إليها، شعر بذراعين حنونتين تعانقانه حول رقبتة، وشفاه ملتبهة تطغى على صرخة فرحته.

همس صوت حلو رقيق في أذن المنفي:
-اصمت يا حبيبي! لقد أنقذت بمعجزة. لقد أتت السيدة العذراء إلى زنازنتي لتحررني. نعم. تعرّفت عليها بجمالها الذي يشبه جمال السماء الزرقاء والابتسامة الحزينة لشفتيها الإلهية. هذا هو حجابها المقدس...
سبحمينا.... دعنا نبتعد عن هنا...
وجذبت المرأة المسجاة الغريب بعيدا معها.

وعندما وصل الهاربون إلى الباب، رأيا فارسا يتبختر على ظهر جواده في مدخل القاعة، ثم قفز على الأرض واستل خنجره، وتوجّه بصمت شرس نحو الفناء الذي يحتوي على الزنازين. وبمجرد أن رأياه، شعر بويريدون بيد شريكته وهي ترتعش في يده وسمعها وهي تتمتم من تحت حجابها بنبرة مذعورة:
-إنه الشرير!

وبعد ذلك بقليل عبر كلاهما عتبة الشر واستطاعا تنفّس هواء الحرية المعطّر. وفي الوقت نفسه، عبر الشرير الفناء؛ وعندما وصل إلى زنازنة الثلاثة صلبان، فتح بقوة المزاليج الثقيلة وشق طريقه وسط الظلام.
تسلل شعاع شارد من القمر المتناقص من خلال نافذة القبو الضيقة،

فشكّل بقعة داكنة على الأرض الحجرية الرطبة وزاد من ظلام الزنزانة المخيفة. ومع ذلك، رصدت عين قاطع الطريق الجشع الشكل الأبيض التي كانت تبحث عنه في الزاوية.

اندفع نحوها ومد يده المملّخة بالدماء، وعندما لامس رقبتها، غرز خنجره فيها وهو يهتف بغضب:

-أنت مخبرة، أفشيت أسرارنا. أنت متواطئة مع الموحدين الحقراء، والآن ستموتين بدلا من المتآمر الذي تحبينه، ولكن يجب أن تعرفي قبل أن تموتي أن حتى عظامك لن تكون معا، فقبرك سيكون في الجزء السفلي من هذه الزنزانة.

ثم ضحك ضحكة عالية مرعبة.

وعندما شعرت أنها أصيبت بجرح قاتل، وضعت الفتاة المسكينة يديها على رقبتها المذبوحة وحاولت إيقاف الدماء المندفعة من الجرح، وغمغمت:

-أوه يا إلهي! لقد أتممت تضحيتي! والآن أكملت المهمة التي نظرت نفسي من أجلها في الدنيا، اجعل دمي يا إلهي يطهر الدماء الأخرى التي تصل إليك من هذا العالم.

وعندما سمع هذا الصوت، شعر الشرير بقلبه يتحطم وبلغ منه الرعب مبلغه. نهض بسرعة وحمل ضحيته بين ذراعيه وركض ناحية الضوء الآت من النافذة حيث تطلع إلى وجهها الدامي في ضوء القمر. صرخ القاتل صرخة رهيبة:

-كلمنسيا!

تلعثم صوت الفتاة الحلو وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة:

-أيي...! أيي المسكين...! أدر عينيك نحو السماء وانظر لها هناك.

انهار قاطع الطريق على الأرض وهو يحمل جسد ابنته المذبوحة بين ذراعيه، لكن دماء العذراء وجدت الفضيلة أمام أعين الرب، وكمعمودية الافتداء،

بثت شعاعا إلهيا من الضوء بداخل هذا الرجل، وقوّمته.

القفاز الأسود

أمارة الصداقة

كانت واحدة من تلك الليالي السارة في الريف الأرجنتيني. فغمر القمر ضفاف مصب نهر "ريودي لا بلاتا" بأشعته الفضية وأضاء نباتات وأشجار البساتين المظللة ومنتزهات شجر الحور التابعة لألف منزل ريفي جميل والمزارع التي تحيط بـ"بوينس آيرس". وعلى الرغم من أن الوقت لم يكن متأخرا جدا، كان كل شيء هادئا ومهجورا خارج المدينة العظيمة، وكانت الأصوات الوحيدة التي يمكن سماعها هي خرير أمواج النهر القريب وصفير الرياح من خلال أوراق أشجار الصفصاف.

وفجأة، انضم صوت بشري، صوت امرأة ملائكي إلى أصوات الطبيعة؛ كان صوتها يرتفع بهدوء وخجل من إحدى الطرق المشجرة التي تصطف فيها الأشجار بكثافة، وبدأت المرأة في غناء ذلك اللحن الرائع من "روميو وجوليت" بصوت شجي لا يمكن وصفه:
-أأنت من أراه ثانية؟
ولكن قاطعت الأغنية أصوات مركبة تقترب.

توقفت مركبة مسجاة أنيقة عند سفح الدرجات الأمامية لأحد قصور العزبة. فتح صياد يرتدي سترة فاخرة الباب ومد يده لشابة جميلة ممشوقة القوام حلوة السمائل وذات نظرة حادة متغطرسة، خفيفة كالطير، نزلت

من على مسند القدم وصعدت بسرعة الدرجات الأمامية ودخلت إلى القاعة
الكائنة بمدخل البيت. وعندما رآها البواب في الدهليز الأول، انحنى بشدة.
قالت وهي تنظر حولها بقلق:
-يا صديقي، هل سيدك الشاب نائم؟
-سيدي مصاب يا سيدي، و...
-أعلم، أعلم، هذا هو سبب مجيئي. خذني إلى غرفته.

انحنى البواب مرة أخرى وقاد الشابة عبر معرض يؤدي إلى حديقة
داخلية، ثم توقف أمام باب كان على وشك فتحه ليقدم السيدة، ولكنها
أزاحته جانبا وهي تبتسم، وفتحت الباب بنفسها. ركضت عبر قاعة أنيقة
ودخلت غرفة نوم يضيؤها مصباح يعمل بالغاز؛ وفي نهاية الغرفة، بين
قفازين مثبتين على حامل، كان هناك فراش يرقد عليه شاب ذو ملامح
وسيمة. فتمت جبهته العريضة عن علامات الذكاء المتطرس، في حين برقت
عيونه الكبيرة السوداء الكامنة تحت رموشه الطويلة، مما كشف عن صراع
العواطف القوية والمتعارضة. انسدل شعره اللامع في حتى عنقه، وكان
شاربه الأسود الحريري -والذي حُسد بالتأكيد- مجروحاً فوق فم يمكن أن
يجعل المرأة ترتعش من الخوف، أو الحب.
ركضت الشابة نحوه، ثم رفعت حجابها من على وجهها الجميل بيدها
وناولته الأخرى وقالت:

- وينسيسلاو! لقد استغرقت وقتاً طويلاً كي آتي، أعلم!
-من أرى؟ مانويليتا!^١ أنت هنا؟
-هل كنت تعتقد أنني جاحدة؟ أوه! الحقيقة أنني على الرغم من أنني

١ - مانويلا روزاس (١٨١٧-١٨٩٨)، ابنة جوان مانويل دي روزاس وإنكارناسيون إيزكورا. شخصية
أسطورية في الأدب ألّفها معارضي نظام روزاس، قُدمت مانويليتا كشخصية لطيفة نذرت نفسها لمساعدة
أنصار الموحدين الذي تعرضوا للظلم من قبل الشرطة السرية التابعة لروزاس. غالباً ما قُدم المثقفون
أمثال جوزيه مارمول مانويليتا على أنها روح ضائعة تحتاج إلى الإنقاذ من قبل الموحدين، في حين قدمتها
الكاتبات المعارضات لنظام روزاس كشخصية فاسدة ومشوومة (أمثال جوانا مانسو دي نورونها، أسرار
الفضة، ١٨٤٦).

كدت أن أموت من نفاد الصبر والرغبة في رؤيتك، لم يمكنني الهرب ولو للحظة واحدة من نظرات والدي، أو من ذلك الحشد المروّع من الخاطبين والمتملقين الموجودين دائما حولي.

-أعتقد أنك جاحدة؟ أوه، كلا يا مانويليتا! أعلم أنك كنت تفكرين فيّ، وإلى جانب ذلك، فأدنى اهتماماتك ثمينة للغاية بالنسبة لي لدرجة أنني أعتقد أنني لا يمكنني مكافأتها بشكل صحيح حتى ولو كان الثمن هو التضحية بحياتي كلها وروحي من أجلك ولكن دعيني أفنّع نفسي بأن السعادة لرؤيتك هنا، في هذه الساعة، وأنت تنحنين عليّ، ليست حلما.

وبعدما أزال القفاز الأسود الحريري المطرز بالزخرفة العربية الذي يغطي يدها الجميلة، قبلها بقبلة يجب أن تكون حنونة جدا حيث سحبت مانويليتا يدها بسرعة ونظرت إلى أسفل كما لو كانت سحابة قرمزية قد غطت وجهها.

قالت في محاولة لتهدئة نفسها:

-أوه أيها المتملق!

وابتسمت:

-ليس هناك شيء أكثر طبيعية بالنسبة لي من التواجد هنا، في هذا الوقت، وأنا أنحني على سريرك مثلما أفعل الآن. لقد انتهك رجل شرير شرفي، معتقدا أنه يمكنه بالتالي تشويه سمعة حكم والدي -كما لو كان العار- تلك الكلمة التي ألقاها في وجه امرأة شابة -سيلقي بظلاله على نجمة روزاس القوي اللامعة، لكنك نهضت للدفاع عن صديق طفولتك ونزعت سلاح خصمك وأجبرته على الاعتراف بزييف الادعاءات التي أدلى بها من "مونتيفيديو". ومع ذلك، في هذه العملية، أصبت، وواجبي ليس فقط أن آتي لرؤيتك، ولكن لأكون ممرضتك. كم سيسعد قلبي أن أكرس نفسي تماما لك! ولكنني كنت بعيدة عنك بسبب حاجة والدي إليّ والخوف من هذا العالم الذي استحوذ على حياتي ليدمرها، كما لو لم أكن بالفعل حزينة

١ - "مونتيفيديو" هي المدينة التي هرب إليها العديد من معارضي روزاس.

ومتكدرة بما يكفي! أوه يا وينسيسلاو! لما لا نعود بعقارب الساعة إلى الورا
وتكون أنت مع والدتك وأنا في الظلال الباردة مرة أخرى؟

رفعت ابنة الديكتاتور عينيها، ربما لمنع الدموع من التدفق على وجنتيها،
وأسندت رأسها الجميل أحد أعمدة الفراش.

اعتدل وينسيسلاو ووضع إحدى يدي المرأة الشابة على صدره المجروح
وهتف:

-مانويليتا، يا زهرة جميلة بين العليق! فالعالم الذي تعيشين فيه ليس جديرا
بك. غير قادر على فهمك، يسعى إلى تشويهك، ولكن إذا أمكن أن لرجل
نشط مخلص وملتزم أن يفعل أي شيء من أجل سوء حظك الذي جعلك
تعيشين في عالم لا يفهمك، لن يكون عليك سوى أن تأمريني - حياتي ملك
لك. هذا القلب الذي ينبض تحت يدك مخلص لك تماما. ثقي به، انقلي
بعض أحزانك إليه.

ضغطت مانويليتا على يد الشاب بحنان وعلت وجهها ابتسامة حزينة.
قالت:

-أوه يا صديقي! مصير مانويلا روزاس المحسود حكم على قلبها بالوحدة
والعزلة، وأبعد عنها جميع أصدقائها واحد تلو الآخر. أمّا أولئك الذين ظلوا
قريبين مني، فانضموا إلى جيش لافال، عدو والدي العنيد؛ وعلى الرغم من
أنني أعلم أنهم لازالوا يحتفظون بذكرى صداقتي الرقيقة، يتطلب الواجب
أن أخرج ذكراهم من قلبي^١ أنت نفسك، وينسيسلاو، آخرهم وأقربهم،
ستظل قريبا مني لفترة أطول قليلا فقط؛ رأيت على مكتب والدي الرسالة
الإخبارية الخاصة بك والتي تأمر بإرسالك كالمدير الثاني إلى الفوج العسكري
الذي يقوده والدك الكولونيل راميريز، وأمر الفوج بالتوجه إلى الشمال.
هتف وينسيسلاو بصوت يُعرب عن حزن غامض:

١ - جوان لافال (١٧٩٧-١٨٤١)، بطل حرب الاستقلال وفي الأصل رفيق روزاس. وعندما تهور، أمر بإعدام
دوريجو، فاندلعت الحرب الأهلية وانقلب روزاس عليه.

-ماذا؟ أتركك! أترك "بوينس آيرس"! أوه!
فهمت الشابة ونهضت بسرعة وغطت وجهها بحجابها وقالت:
-وداعا يا وينسيسلاو.
ومدت يدها عبر غطاء الفراش لاستعادة القفاز الذي أزاله:
-إنها الحادية عشرة وليس لدي وقت كاف للوصول إلى "باليرمو" قبل أن يتم
إغلاق أبواب المنزل.... ولكن... ماذا أفعل بقفازي؟
أجاب وينسيسلاو:
-إنه معي.
وكشف صدره وأظهر القفاز وهو مستقر على قلبه:
-مانويليتا، أود أن أحتفظ إلى الأبد بذكرى هذه الليلة. ولكن كيف ذلك؟
كتذكار للغزو أم كأمانة؟
أجابت:
-كأمانة على الصداقة.
ورفعت طرف حجابها بتدل جميل وبعثت بقبلة لـ وينسيسلاو من الباب.
قال عندما أغلق الباب خلف مانويليتا:
-إنها تحبني! إنها تحبني ويمكن أن أكون زوجها وبالتالي أحقق السعادة
والرخاء اللذين طالما حلمت بهما لبلدي. لو لم يصل حب مصيري لطريق
مسدود مع رياح عاصفة، لكان أفق الطموح والمجد المشرق والمجد قد
انفتح أمامي. إيزابيل! إيزابيل! لما يتعين عليّ مقابلتك؟ لما تخترق عيناك
وصوتك قلبي بشدة؟

في تلك اللحظة سُمع الصوت الذي كان يغنى في الشارع المشجر الذي
تصطف فيه أشجار الحور. صاح وينسيسلاو:
-هذا هو صوتها! هذه هي!
ونهض وفتح مقبض باب سري على رأس سريه.

القفاز الأسود

انفتح الباب وظهر من خلفه الريف الذي ينيره ضوء القمر على بُعد دخل شيء ما كشبح من قصيدة ألمانية. كانت امرأة شابة مسجاة في مبذل أبيض طويل وحجاب شفاف فوق رأسها. كانت طويلة إلى حد ما؛ كان شعرها الطويل، اللامع والأسود كالفتح، كموجات على الأرض، وكانت عيونها السوداء المشدودة ذات تملك تلك النظرة الثاقبة المنسوبة إلى أولئك الذين يمكنهم التنبؤ بالمستقبل.

وعندما رآها، طارت ذكرى مانويليتا وكل ما معها من المجد والطموح من عقل وينسيسلاو.

هتف:

-إيزابيل! ملاكي الجميل، جنيتي الطيبة! أنت هنا! أوه! أدعو أن تغفر والدي عقوق نجلها، ولكن كيف أشكر الرب على غيابها الذي أجبرك على أن تأتي إليّ كملاك حارس، وسط الظلال وسكون الليل، لتعالجي جراحي بيدك وتغرقي قلبي بالسعادة النابعة من سحر عينيك، من صوتك، من ابتسامتك!... ولكن... أنت شاحبة!... ترتجفين! أليس هناك حتى عناق واحد، كلمة عشق واحدة لمن يحبك؟ إيزابيل! ما الحزن الذي يُلقي بظلاله على جبينك يا حبيبتي؟

أجابت وهي تركع عند طرف الفراش:

-ليس بي شيء.

وساعدت وينسيسلاو على الاستلقاء مرة أخرى على وسادته:
-ليس بي شيء. الشمس أشرقت بسطوع والطيور غنت أغانيها التي أحبها،
حيث أن قيثارتي صامته منذ أن بدأت معاناتك؛ نجوم سمائنا الجميلة
تبتسم لي كما اعتادت، أنت يا من أحبه بشغف، هنا، بالقرب مني، وأرى
حبك في عينيك؛ ومع ذلك، كان هناك شيء في تلك الشمس، في تلك العطور،
في تلك الألحان، في الليل، في النجوم، وفي عينيك، شيء كئيب يثقل قلبي
كالرصاص!

-اسمع يا وينسيسلاو. عندما كانت أمي تحملني في رحمها، سمعني أبكي
ذات ليلة عندما كانت تفكر في الكائن الذي كانت على وشك ولادته. هناك
اعتقاد في بلدنا -خرافة إذا صح التعبير- يؤكد أنه إذا بكى الطفل وهو في
رحم أمه، وإذا حافظت الأم على هذا الحدث سرا، فسيولد هذا الطفل
بهدية القدرة على الرجم بالغيث. ظلت والدي صامته وهي تعتقد أنها
تعطيني شيئا مبهجا. أوه يا والدي المسكينة! لم تكن تعرف أنها في الحقيقة
تورث مصير ابنتها حاضرا حزينا مثقلا ككل شيء موجود وفقا لذلك النظام
الأبدي المسمى بالقدر، أشعر بحدوث المكروه، ولكنني غير قادرة على
تجنبه، أشعر باقترابه في الهواء، في الضوء، في الظلال، ولكنني أجهل من أين
أتى واللحظة التي سيهاجمني فيها. عندما سقط والدي بضربات "المازوركا"
- منظمة الهمج - رأيت الأحداث بأكملها في أحلامي. تكشفت كل مصائب
حياتي في قلبي. واليوم، تلاحقني أبشع الهلاوس؛ روعي شهدت مشاهدا
بشعة يمارس فيها القتل أعماله الدموية؛ وسمعت صوت الغيرة، هذا المرض
القاتل للروح، صرخة بنبرات كثيفة: 'الخيانة! الغدر!' الآن يا وينسيسلاو،
عندما دخلت غرفتك، شعرت بظل قريب مني، روح معادية أعاق
طريقي، وكيد منافس، سعت لإبقائي بعيدة عنك. لقد عانى قلبي كثيرا
لدرجة أنني عندما اقتربت من فراشك ووجدتك بمفردك في انتظار حضور
ورعاية حبيبك إيزابيل، شكرت الرب حقا على جروحك التي سلمتك فقط
لحبي، بل إنني تمنيت أن تستمر معاناتك للأبد حتى لا ينتهي احتياجك إلي!

أجاب وينسيسلاو وهو يقبل يد الشابة بحرارة:
-حبيبتي، هناك كلمات الهدف منها أن تُسمع فقط والمرء راكعا، وتلك هي ما تلفّظت بها للتو. ماذا فعلت حتى أستحق حب كائن جميل مثلك؟ وبعد أن امتلكت هذه الفرحة التي ستكون موضع حسد جميع الملائكة في السماء، هل يجب أن أقابلها بالغدر بدلا من العشق الأبدي؟ أوه يا إيزابيل يا حبيبتي، أبعدي هذه المخاوف الخرقاء والتي تعكر صفو حبك!

تحدث وينسيسلاو بإخلاص؛ لأن أفكاره الطموحة، كما قيل، اختفت بمجرد حضور إيزابيل. ابتسمت الشابة برقة وهزت رأسها بحزن. وفي تلك اللحظة دقت الساعة الموجودة في القاعة معلنة منتصف الليل. قالت إيزابيل:
-يا إلهي، إنه منتصف الليل، ولم أعتني بعد بجرحك.

ومضت صورة رهيبة كالبرق في مخيلة وينسيسلاو، فرفع يديه بسرعة إلى صدره، ولكن بعد فوات الأوان؛ فلقد كشفت إيزابيل صدره لتغيير ضمادة الجرح. وساد صمت رهيب في الغرفة. نظر وينسيسلاو الذي صمت بارتباك ورعب إلى إيزابيل؛ وبينما هي شاحبة كالأشباح، كانت تحمل الآن القفاز الأسود بين يديها وتفحصه بنظرة شرسة وثابتة.

وبعد ذلك، وفجأة، اتسعت عيناها الكبيرتان بشكل كبير وانطلقت صرخة مكتومة من صدرها وتراخت ذراعاها إلى جانبيها؛ وترنّحت قدامها؛ سقطت على ركبتيها وتهافت على الأرض وهي تخفي وجهها؛ فبداخل القفاز، وعلى الشريط الذي يغطي المطوط، قرأت إيزابيل اسم مانويلا روزاس. هتف وينسيسلاو:

-إيزابيل! حبيبتي، أوه، أرجوك تفضلي واستمعي إليّ للحظة! لا تتهميني دون الاستماع إليّ!

ومد ذراعيه في محاولة لمساعدتها على النهوض، لكنها رفضت مساعدته بصمت وظلت في مكانها. بقيت بلا حراك في هذا الوضع لفترة طويلة،

صامته وغير مبالية لتوسلات وينسيسلاو، ثم رفعت رأسها ومررت يدها على جبينها كما لو أنها تسترجع ذكرى، ونهضت.
هتفت:

-أوه يا والدي المسكين!

وتلاقى ذراعاهما على شكل صليب، وتطلعت عيناها الكبيرتان إلى السماء:
-هذه الضربة لقلبي عقاب ملائم لابنة مذنبه بالحنث بقسمها وترك ذلك الدموي حائراً، منسياً، تستبدل باستخفاف انتقامك غير المتبادل بمحبة فيدرالي.

-أوه يا أبي! ربما كان من الضروري بالنسبة له أن يطردني من قلبه، فرمى بذلك تعود ذكرى موتك المشؤوم والشعور بواجبي إليّ، ولكن لم يفت الوقت بعد يا أبي. القسم الذي أقسمت به إليك في القبو المظلم لزنزانتك لن يضيع هباءً؛ أجدد تعهدي هنا بتكريس الوجود الكئيب الذي ما زال ينتظرنى للتأثر لك ومتابعة انتصار قضيتك، الشهادة التي ختمتها بختم استشهادك!

ونظرت إلى عشيقها الذي كان يستمع إليها برعب شديد وقالت:
-وداعاً يا وينسيسلاو! هذه هي المرة الأخيرة التي سأذكر فيها اسمك، ذلك الاسم الذي كانت تسعد شفتي بتكراره بلا توقف يوماً ما وهو يرن في قلبي كلحن مبهج. وداعاً إلى الأبد! اعشق في سلام تلك المُسمّاة بـ مانويلا روزاسو التي تضع مكافأتها على الحب على قلبك؛ وعندما تفكر في إيزابيل، تذكرها دون أي ندم؛ فخيانتك لها قادتها إلى مسار الواجب، كما قادتك إلى مسار الشرف والسعادة.

ظل وينسيسلاو بلا حراك حتى تلك اللحظة وهو مثقل بالدليل القاطع، ولكن الآن رفع وجهه الشاحب بفخر وقال للشابة التي كانت أخذت بالفعل خطوة نحو الباب:

-إيزابيل! باسم والدك، واستمعي إليّ للحظة، للحظة وجيزة، لحظة واحدة

فقط!

التفتت إليه إيزابيل بهلامحها الشاحبة.

-أوه! إيزابيل! هل ترفضين الاستماع إليّ؟ تكرمي إذن وأخبريني بنفسك يا حبيبتي، ماذا يمكنني أن أفعل كي أقنعك أنه لم تستطع امرأة أخرى الاقتراب من الحرم الذي تقيمينه في قلبي؟ تحدثي! حتى ولو اضطررتُ للنزول إلى أعماق الجحيم لإنقاذ حبك، سأفعل.

انطلقت تنهيدة عميقة من صدر إيزابيل؛ وبينما ترتعش وترتجف، خفضت عينيها حتى لا يستطيع وينسيسلاو أن يرى حبها له فيها، ولكن سقطت نظرتها فجأة على القفاز الأسود الملقى على الأرض، فسرت انتفاضة حاسمة عبر جسدها وومضت لمحة من الغضب الهائل في عينيها، ثم تراءت لها واحدة من تلك الأفكار الشريرة، المتولدة من الغيرة والقادرة على تحويل الملائكة إلى شياطين، وتملّكت من قلبها.

غمغمت:

-دعيه يموت من أجل حبي، طالما سيتركها إلى الأبد!

وثبتت عينيها الساحرتين على وينسيسلاو وقالت:

-هناك موضع يمكنك منه إقناعي بأن ما رأيته الليلة لم يكن سوى حلم، أحد تلك الكوابيس التي تتبادر لتعذيب قلب المرء، ولكن هذا الموضع هو ... هذا الموضع هو وسط صفوف جيش الموحدين! واختفت بين الظلال التي امتدت خلف الباب.

ظل وينسيسلاو بلا حراك لبضع لحظات، مصدوما بثقل تلك الكلمات الرهيبة. أغلق عينيه وتوقّف قلبه عن النبض وغطت حبات العرق البارد جبينه ثم اجتاح شعور هائل باليأس قلبه وجعله ينتفض بقوة مرعبة.

صاح:

-لقد فقدتها إلى الأبد!

وضرب قمة رأسه بيده:

-لم تعد تحبني، فهي ترغب في إذلاي. إنها تريدني أن أتخلي عن القضية التي يدافع عنها سيفي منذ أن كنت طفلاً صغيراً، قضية ولي نعمتي اللامع... قضية صديق طفولتي! باختصار، إنها تريدني أن أصبح خائناً! أوه! إيزابيل!... أبداً... أبداً... ولكن ماذا سأفعل بحياتي الفارغة والصامتة، والتي لن تعد بعد الآن مشرقة بحبك؟ كيف سأتحمل كل تلك الساعات، كل تلك الأيام التي أسرها وجودك للغاية؟ ففقدانك يعني أكثر من مجرد فقدان قلب امرأة، بل يعني الهواء، الضوء، السماء...أوه! الموت أفضل! وبيد قاتلة متجهة إلى صدره، جذب ضمادات جرحه ففتحه مرة أخرى.

تفجرت الدماء على الفراش، ثم، شيئاً فشيئاً، هداً اليأس الذي كان يُدمر روح وينسيسلاو ببطء حتي سكن. انتشر ضباب مزرق أمام عينيه؛ وعندما لم يعد يسمع الأصوات الخارجية، غزت قعقعة مرتبكة أذنيه؛ بدأت برودة الموت في الطغيان على أطرافه، وامتلاً قلبه بإحساس السلام الذي يجب أن ينتظرنا جميعاً بالتأكيد على الجانب الآخر من القبر، والذي يُرى دائماً مرسوماً على وجوه المتوفين.

الأم

وبدون سابق إنذار، جاء صوت حلو ناعم ليقطع صمت سكرة موته. سُمع الصوت وهو يغمغم بين تنهيداته: -أوه يا إلهي! لقد وصلت في الوقت المناسب كي أنقذه! وينسيسلاو! متمم الرجل الذي يصارع الموت بصوت ضعيف: -إيزابيل!

هرعت امرأة إلى الفراش الممتلئ بالدماء. كانت طويلة القامة، ذات ملامح حلوة وجميلة على الرغم من الشحوب الشديد الذي يغمرها الآن.

عكست نظرتها روحا عانت مرارا ونيرانا مشتعلة بصدرها.

أسندت رأس وينسيسلاو على صدرها وأحاطته بذراعيها وحاولت إيقاف الدماء المتدفقة من الجرح. تحدثت إليه بصوت ناعم وحنون ودموعها تنحدر على وجهها. وعندما سمعت شفتيه تنطقان باسم إيزابيل قالت: -أوه! إنه لا يدرك من أنا، إنه يحب أخرى، ولكن هذا لا يهم! بارك الرب في الاسم الذي أعاده مرة أخرى إلى الحياة! أوه يا إلهي، أعده لي حتى ولو كنت آخر حبيباته الأخريات! فأنا أعلم أنه على الرغم من أنه يستحوذ بالكامل على روحي، لست أنا من سأملأ روحه.

من تلك المرأة التي أحبت للغاية وكانت أيضا قادرة على تنفيذ تضحية مقدسة بالنفس والتي كانت أقوى من الغيرة، من تلك الشيطانة القوية التي بنت جحيمها داخل حدود القلب الإنساني؟ لقد كانت أمًا.

الرسالة

وبعد أيام قليلة، كانت تلك المرأة ذاتها تسير، أو بالأحرى تتجول بلا هدف كالظل بمفردها تحت الأشجار العالية لحدائق عزبة البلدة. كانت ملامحها أكثر شحوبا أكثر من ذي قبل، وكشفت عيناها عن قلق متجهم. كانت تقول:

-يا إلهي! ماذا يمكن أن يكون منبع هذا الأسى العميق، ذلك الغضب الرهيب الذي استحوذ على زوجي منذ أن سلّمه جاسوس الحكومة تلك الرسالة. لقد سمعته يتمم باسم وينسيسلاو ومتبوعا بلعنات فظيعة. أوه! ما المكره الذي لا يزال يهدد ابني الحبيب؟ أيتها العذراء المقدسة! وتابعت وهي تقبل مدخرا يحتوي على صورة لمريم العذراء وخصلة من

شعر وينسيسلاو.

-أنتم يا من عانيتم كثيرافي ذلك الوادي من الدموع، ارحموا معاناة أم، وأنتم تذكرون معاناتكم! ارحموا ابني! إذا كان لا تزال هناك أي أخطار تنتظره في طريقه، أنقذوه، كما فعلتم من قبل! أسعدوه، وأعطوني، بدلا منه كافة محن هذا العالم....

-ولكن لم أعد أطيع تحمُّل ذلك الغموض الرهيب الذي يجعلني أعاني كثيرا، الذي يجعل كل لحظة تبدو وكأنها قرن كامل. يجب أن تكون تلك الرسالة في...يجب أن تكون في مكتبه... أعلم أنه ليس هناك الآن... أعلم أنه ذهب إلى غرفة الرسم.... ماذا سيحدث لو ذهبت بسرعة واطلعتُ على هذه الرسالة؟ نعم، سأذهب! أوه يا راميريز، سامحني! لستُ زوجة طائشة تراقب أسرار زوجها؛ أنا أم تحافظ على مصير ابنها.

هرعت عبر أحد الطرق الطويلة التي تصطف بها الأشجار، في المساء المظلم بالفعل، وفتحت نافذة منخفضة، وعندما نظرت حولها بحرص، تسلمتها. تمتت:

-ليس هناك أحد، لا أحد.

ودخلت غرفة محاطة بخزانات المكتب والأسلحة المعلقة على الجدران، ومكتب مليء بالأوراق، وأعلاه استقرت لوحة للجنرال بيلجرانو في إطار أنيق.

ومن بين آلاف الأوراق الأخرى تعرّفت عيون الأم على الرسالة التي تبحث عنها والتي تحتوي على المعلومات التي تخشاها للغاية. انتزعتها بيد مرتعشة، وبعد أن نظرت إلى ما هو مكتوب على الظرف وهي تفتحه، قالت:

-يا إلهي! إنه خط وينسيسلاو- ابني!

انزلق قفاز أسود من الرسالة المطوية وسقط عند أقدام والدته وينسيسلاو مما جعلها تصرخ فجأة.

-أوه! لم أخافني هذا الشيء لهذه الدرجة؟ كما لو كانت يد الموت جاءت لتستحوذ على قلبي!

وبعدما نظرت حولها، بدأت في القراءة:

-إيزابيل، الرجل الذي أعطيته البديل الرهيب: إمّا الخيانة أو العيش بدونك، هذا الرجل القوي الذي يصفه أصدقاؤه بالأسد حينما يحارب استسلم على نحو بئس في المعركة الواقعة بين الحب والواجب. أوه، يا للعار! الشرف، الواجب، الصداقة، الامتنان؛ كل تلك المشاعر النبيلة صمتت بسبب فكرة فقدانك إلى الأبد، فكرة التخلي عن لذة النظر إلى وجهك، الاحتراق تحت لهيب عينيك، الشعور بلمسة يدك، سماع رنين صوتك. عاشقك، والذي يعد الشرف بالنسبة له هو كل شيء في الحياة، سيحمل قريبا علامة الهجر فوق جبهته، معمودية من العار عميقة للغاية لدرجة أن حتى الموت لن يتمكن من محوها. إن جيش لافال على بُعد رحلة يومين من هنا، وقريبا ستشرق عليّ الشمس وأنا بين صفوفه، حاملا سيفي المشهّر به في وجه القضية التي استحوذت على كامل تعاطفي يوما ما، في وجه أبي. في هذا الخطاب ستجدين هذا القفاز، أساس كل هذه المعاناة. أرسله إلى مانويلا روزاس، وأخبرها أن صديق طفولتها، الرجل الذي بحثت في قلبه عن ملجئ بعيد عن الافتراء، لم يعد يستحق امتلاك تلك الأمانة على الصداقة؛ لأنه أصبح خائنا الآن. إيزابيل! هذا ما رغبت به ! فليكن!

كانت الأم المسكينة غير قادرة على قراءة الكلمات الأخيرة من الرسالة. هزت ارتجافة حاسمة أطرافها وغزا خوف مثلج قلبها؛ انزلقت الرسالة من بين يديها ولم تقوَ ساقاها على حملها وسقطت على الأرض كثقل هامد. وعندما أفاقت، وبينما كان عقلها لا يزال مشوشا، سمعت صوتين قريبين. منعها الضعف الذي أصاب أطرافها بالشلل من التحرك، فظلت مختبئة في طيات البساط الطويلة.

-براشو!

إنه الكولونيل راميريز يقول لخادمه المفضل والذي سُمي بهذا الاسم لأنه

وُلد في الصحراء الساخنة التي تحمل نفس الاسم^١
-على الرغم من أنني لدي ثقة مطلقة فيك؛ فأنا بحاجة لأن تقسم على شيء.

أجاب براشو بطريقة عسكرية.

-في خدمتك يا سيدي الكولونيل! جنديك المخلص جاهز لطاعتك.
اتجه الكولونيل نحوه وأمسك بيده بحزم ووضع الأخرى على قلبه وقال له
بنبرة رسمية:

-براشو! أقسم لي بأيام متاعبنا وأمجادنا المتعددة الماضية وبالأكايل الطاهرة
التي حصلنا عليها سويا خلال ثلاثين عاما من الخدمة في العديد من ساحات
المعارك، أنك ستلتزم كامل الصمت بشأن كل ما أنا على وشك إخبارك به،
وأنك ستأخذه معك إلى القبر.

أصبحت ملامح براشو الصارمة برونزية اللون أكثر صرامة، واستسلمت
لضغط يد الكولونيل؛ وبينما يضع يده الأخرى على قلبه أجاب بصوت حازم:
-أقسم بذلك!

تابع الكولونيل وهو يشير إلى معول ومجرفة مستقرين على الأرض:
-براشو، خذ هذه الأدوات التي أحضرتها إلى هنا واحفر حفرة في تلك الزاوية
من الغرفة هناك؛ اجعل طولها حوالي سبعة
أقدام وعمقها ستة أقدام.

وبذلك الدم البارد الذي يتميز به - والذي يثير الإعجاب في بعض الأحيان
والرعب في أحيان أخرى، والذي يعد من سمات أبناء هذا الوطن - جذب
براشو واحدة من زوايا البساط المثبتة إلى أسفل وبدأت في اتباع أوامر قائده.
ولفترة طويلة كانت الأصوات المسموعة فقط هي أصوات أنفاس الكولونيل
الثقيلة والضربات المتناغمة للمعول الذي يستخدمه براشو ببراعة.

١ - براشو هي صحراء في مقاطعة توكومان.

انتاب الأم هاجس رهيب، لكنها حبست أنفاسها وواصلت الاستماع. وبمجرد أن تم حفر الحفرة، اتكأ براشو على المعول والتفت ليكون في مواجهة قائده. اتجه الكولونيل إلى فتحة الحفرة السوداء وقاس عمقها بالنظر.

قال بصوت كئيب بعث شعورا مميتا باردا في قلب الأم:
-براشو! في غضون بضع ساعات ستحتوي الحفرة على جثة! استمع، اليوم، في هذا المكان، سيحاكم مرتكب جريمة كبرى وسيُعاقب أحد المجهولين حتى الآن بين الجنود الأرجنتينيين، واحدا لم يلطّخ أبدا حولياتنا العسكرية - بالخيانة!

-اذهب الآن إلى المدينة وابحث في الشكنات التي يتمركز فيها فوجي عن النائب؛ أخبره أنني أمره بأن يقابلني هنا على الفور، وانصحه بالحفاظ على السرية المطلقة بشأن وجهته.

قام براشو بحركة تلقائية تعرب عن المفاجأة المؤلمة عندما سمع الأمر. تردد ونظر إلى قائده كما لو كان يريد أن يقول شيئا، ولكن نظرة حادة من الكولونيل جعلته يطيع الأمر بصمت.

حب الأم

صاح الكولونيل بمجرد أن وجد نفسه وحيدا:
-هارب من الجندية! هارب من الجندية! جندي أرجنتيني، راميريز، هارب من الجندية! أوه يا روح بلجرانو!
واصل حديثه بألم وهو يخاطب لوحة لبطل قومي.
-يا روح بلجرانو العريقة، لا ترتعشي من الغضب عندما تسمعين اسم صديقك -بمجرد أن يتكرر بشرف في الحديث عن مئات المعارك- يتحالف

الآن مع العار؟ ألا تأنين من الألم عندما ترين آثار جروح رفيقك القديم يلحقها الخزي؟ ولكن كلا، ليس الخزي، الحمد للرب؛ الجريمة لم تتحقق. وهذا القبر، وهذا الخنجر، سرعان ما سيدفناه إلى الأبد جنباً إلى جنب مع الفرد المذنب.

وعندما سمعت الصوت المعدني الذي أصدره خنجر الكولونيل الكبير وهو يوضع على الطاولة، شعرت الأم المسكينة، التي كانت حتى ذلك الحين تحاول إقناع نفسها بأن كل هذا كان حلماً، بدواخلها ترتعش بجنون. بدا قلبها وكأنه يشعر بالنصل البارد موجهها إلى قلب نجلها! وبعد أن سمحت لصرخة رهيبية بالانطلاق، نهضت فجأة؛ كانت شاحبة للغاية لدرجة أنها بدت كشبح في عيني زوجها. تراجع الكولونيل المشدوه بضع خطوات إلى الوراء وهتف:

-مارجاريتا! ماذا تفعلين هنا؟

صرخت بحزن:

-راميريز! أوه، ارحم! أخبرني أنني مجنونة، وأن كل الكلمات المروعة التي سمعتها للتو لهي جزء من هذيان! راميريز! راميريز! باسم الرب، أخبرني أن هذا القبر، وهذا الخنجر، وهذا الحكم المخيف عبارة عن مجرد هلاوس لكابوس فظيع طغى على عقلي! قل لي أن هذا ليس صحيحاً، أنك لا تخطط لقتل نجلنا! نجلنا!

-ابنك! ابننا!

هكذا انفجر الكولونيل بألم وغضب:

-لم يعد لديك ابن يا أكثر النساء بؤساً، من كان ابننا أصبح الآن خائناً، دفعته العاطفة للتخلي عن علم بلادنا المقدس. لقد أصبحت لحظاته في هذا العالم معدودة بالفعل، تنتمي فقط إلى رأيي. مارجاريتا! اذهبي وصلي من أجله، وانس اسم ابنك إلى الأبد.

صاحت الأم بنبرة عالية مخيفة:

-أوه! أصلي من أجله، كما لو كان ميتاً بالفعل؟ أنسى اسم ابني، هذا الاسم

الجميل للشخص الذي كان قرة عيني طوال العشرين عاما الماضية؟! من يطلب مني ذلك؟! من؟!... أوه، لا أحد... لا أحد! أوه يا إلهي! يجب أن أكون مجنونة... مجنونة!

سارت البائسة المسكينة ذهابا وإيابا في الغرفة وهي تقول ذلك وهي تعتصر يديها، ثم لطمت براحتي يديها على صدغيها، كما لو كانت تحاول أن تجعل الجنون ينفجر من رأسها.

كان الصوت الهائل للشرف المهان قد طغى على صوت الحب الأبوي في نفس الكولونيل، ولكنه صمت بدوره مع يأس الأم. شعر راميريز بقلبه يتحطم وقراره الرهيب يتزعزع. مدّ ذراعيه إلى زوجته وقال بحزن: -مارجاريتا! أيتها الأم المسكينة! تعالي، ابكِ على صدر زوجك، صديقك! أنا أيضا بحاجة إلى ذرف الدموع.

لكن عينيه التفتتا فجأة بعيون بلجرانو؛ وبدأت النظرة الحادة والثاقبة للبطل القومي، والتي تسطع بوضوح من خلفية الغرفة الكئيبة، وكأنها توبّخه على ضعفه؛ فطغى العار على ملامح الكولونيل المشوهة الغاضبة بظلال أرجوانية اللون، فلمعت عينيه النارية وشحبت ندبة طويلة على جبهته - ذكرى أمجاد الماضي - في وجهه محمر اللون، مما جعلها تبدو كما لو كان يرتدي تاجًا مشؤوما.

-كلا!

قالها بصوت عالٍ لزوجته، واندفع بعنف كي يقف أمام لوحة قائده القديم. هتف وهو يخاطب لوحة بلجرانو: -هو من عمل بجانبك ووقف برصانة في مواجهة الموت في الوقت الذي تطايرت فيه شظايا المعركة حوله، لن يدحض شجاعته في تنفيذ واجبه، مهما يكن رهيبا.

وتابع وهو يضرب صدره:

-إذا أعاقني قلبي، سأكسره، ولكن سأكون قد حفظت الشرف. المذنب سيهلك!

صرخت الأم وهي تلقي بنفسها في أحضان زوجها وتهز ذراعه بجنون:
-أوه! أيمكن أن يكون هذا صحيحا؟ ألا تخونني أذناي؟ راميريز! راميريز!
أيمكن أن تجد تلك الفكرة الرهيبة التي لا تقوى شفتاي على نطقها مكانا بداخلك؟ آه!

وتابعت وهي تسقط عند قدمي الكولونيل وتجذبه من ركبتيه:
-إذا كنت تحتاج إلى الدم، هنا، خذ دماي! خذ هذا الخنجر واقطع كل عروقي، واحدا تلو الآخر؛ اقتلني، مزق قلبي، ادفني حية في هذا القبر الفارغ، ولكن ارحم ابني! احترم حياته، تلك الحياة الغالية بدأت تزهر للتو. أوه! راميريز! إذا كنت قد نسيت أنك أب، تذكر على الأقل أنك رجل؛ أشفق على شبابه، على جماله ومستقبله، على ذلك الأفق الرائع من الأحلام والوعود الذي تتمنى أن تسرقه منه. الجريمة لم تقع بعد، لا يزال هناك وقت أمامه ليتوب. بأي حق تكون أكثر شدة من الرب الذي يمنح المذنبين الفرصة دائما للاعتراف بالذنب والتوبة عن أخطائهم؟

ولكن لحظة الضعف كانت قد مرت بالفعل بالنسبة للكولونيل. فابتسمت شفتاه البيضاءوان القاسيتان بمرارة وتهكم. هتف:
-توبة؟! هل يستطيع تخليص نفسه من جريمة مخلة بالشرف، حتى ولو كانت موجودة فقط في شكل فكرة؟ مارجاريتا! أنت تعلمين أن هذا ليس ممكنا! أنت، حينما كنت زوجة شابة، أخبرت زوجك عندما وجد نفسه في انتظار الموت بلا حماية وظل حيث كان فقط لأنه أعطى كلمة شرف للقيام بذلك: 'راميريز! من الأفضل أن تبقى وتموت بدلا من عدم الوفاء بكلمتك وفقدان شرفك! لا شيء يمكن أن يطهر شرف المرء بمجرد أن يتلطح! أجابت وهي تبكي:

-آه! ولكنني كنتُ زوجة آنذاك، أمّا الآن أنا أم! أوه! امرأة حملت ذات يوم

في رحمها وأطعمتك بدمائها؛ كذكرى لها، ارحم أم تتوسل إليك وهي على
ركبتها كي تنقذ حياة ابنها!
تردد صوت بضعة جياذ في فناء عزبة البلدة.

حمل الكولونيل زوجته بعنف بين ذراعيه وحاول أن يحملها إلى خارج
الغرفة، ولكنها أمسكت بأحد دعامات المكتب؛ أصبحت أصابع المرأة
الرقيقة والحساسة قوية كالزنبرك الفولاذي لدرجة أن قوة الكولونيل لم
تتمكن من حلها.

همهمت:

-كلا! لن أخرج من هنا؛ أريد أن أنقذ ابني من الموت وأنت من جريمة
مروعة! أريد أن

أحيل بينه وبين ضربات قاتل!

صاح بنبرة رصينة:

-مارجاريتا! أتريدين مشاهدة ابنك وهو يموت؟ فليكن! سترينه وهو يموت؛
فلقد أقسمت أنه لا يمكن أن ينقذه شيء!

عندما سمعت هذه الكلمات، برقت عيون الأم فبدت كعيون لبؤة مصابة.
جفت دموعها فجأة ونهضت، وبعلامح شاحبة ومرعبة كصورة الموت نفسه،
صرخت وهي تتجه نحو زوجها:

-راميريز! هل صحيح أن لا شيء يمكن أن ينقذ ابني من المصير الرهيب
الذي تدخره له؟

أجاب الكولونيل بحزم:

-لا شيء!

كررت بنبرة غريبة:

-لا شيء! لا شيء، لا توسلاتي، ولا دموعي، ولا ذكرى جميع الأيام السعيدة
التي منحنا إياها طوال سنوات عمره العشرين!

كرر بشكل كئيب:

-لا شيء! أنا قاضٍ، لقد أدنت مجرماً، وسأقوم بنفسى بتنفيذ الحكم.
صرخت الأم:

-إذن ستموت! ستموت، لأننى أريد أن يعيش ابنى، حتى ولو كان ذلك فى
عالم من الأطلال.

واختطف الخنجر الذى كان موضوعاً على الطاولة وغرسته بعمق فى
صدر زوجها. فى الوقت نفسه، انفتح الباب وترددت صرخة مؤلمة فى الغرفة.
هتف وينسىلاسو:

-أمّاه! ماذا فعلت؟

وألقى بنفسه على جسد الكولونيل الذى كان قد سقط ميتاً دون أنين.
التفتت الأم نحوه دون إحباط.
قالت:

-أقسم زوجى أنه سيقتل خائناً؛ هذا الخائن هو ابنى. لقد قتلتُ زوجى
لإنقاذ ابنى!

فى اليوم التالى، وعلى رأس فوجه، تقدّم وينسىلاسو الشاحب الحزين الذى
يحمل فى قلبه حزن كونه متفجعاً لثالث مرة، للانضمام إلى جيش الجنرال
أوريبي^١. وضع الواجب قاسماً رهيباً بينه وبين السعادة. وبينما يقف أمام
جثة والده المملّخة بالدماء بين يدي والدته التى كانت على وشك الموت،
أقسم على نسيان إيزابيل إلى الأبد.

كويراشو هيرادو

حلت ليلة الثامن والعشرين من نوفمبر على نفس ميدان هذا الرجل. فى

١ - مانويل أوريبى (١٧٩٢-١٨٥٧)، ولد فى مونتيفيديو وحارب مع أرتيجاسو أصبح فيما بعد رئيس
أوروغواي. وكمؤيد لروزاس، حارب ضد لافال وتُصّب رئيساً للقوات الفيدرالية. - نسخة.

٧٢٨ نوفمبر، ١٨٤٠. هزم أوريبى لافال فى معركة كويراشو هيرادو. وهُنا، خسر لافال ١٥٠٠ جندياً
من إجمالى جنوده البالغ عددهم ٤٢٠٠ جندياً.

ذلك اليوم، شهدت الشمس انتصار قوات أوريبى وهزيمة جيش الموحدين؛
بقى هذا الأخير، والذي يتألف من محاربين كرماء بنفس قدر شجاعتهم،
وحارب معركة مع قوات أقل شأنا وعلى أرض غير ملائمة بدلا من التراجع
القسري والتخلي عن مجموعة كبيرة من الناس الذين كانوا يفرون وانضموا
إليهم، ولكن الحظ لم يكافئ شجاعة هؤلاء الأبطال والتضحية السامية
بالنفس؛ فعلى العكس، توج رؤوس أعدائهم- الذين أصبحوا أسياد الميدان
بحلول نهاية اليوم- بأمجاد النصر.

وما تلى المعركة كان مشهدا مخيفا؛ فلقد أشبع النهب والقتل والعنف
عطشهم الرهيب بشأن تلك المجموعة الهائلة من كبار السن الضعفاء
والعذارى الجميلات والأطفال الأبرياء.

ولكن الآن، توقفت الأصوات الصاخبة للأسلحة وصرخات الجنود ونحيب
الضحايا. حجب الظلام بحيرات الدم البشري التي أريقَت على الأرض؛ نشرت
رياح الليل العطر المبهج للغابات الفواحة القريبة عبر الحقل الجنائزي؛
أعار الضوء الجميل للنجوم- والذي يعكس وجوه الموتي- المشهد مظهر
حلم جميل. لا شيء، باختصار، كشف أنه كانت هناك ساحة معركة،
باستثناء الصمت العميق الذي ساد في كل مكان، صمت يقطعه فقط أغنية
"الكويو"^١ الطويلة الحزينة والحشرات المختبئة بين فروع أشجار الخروب
المظلمة والتي بدت وكأنها
تنعي مصير الأبطال الذين سقطوا

النبوءة

فجأة، سُمع صدى صوت حلو من بعيد، مما هدا من أغنية الحشرات
الحزينة. اقترب الصوت، وهو يغني أغنية جوليت الأخيرة:

١ - الكويو هي أحد حشرات الزيز الكبيرة والتي توجد في سهول وبراري الأرجنتين.

استمع إليّ، آه أيها المحظوظ
لا تتركني يوما ...^١

برز خيال من الظلام. كبير حراس الجيش المنتصر، الذي كان يخيم على
بعد بضع مئات من الأقدام أمام الميدان، عبر بنفسه وأغمض عينيه عندما
رآها، معتقدا أنها روح أحد المتوفين في المعركة.

دخل الخيال الأبيض ساحة المعركة. وعلى الرغم من ضعفها الشديد
والواضح، كانت في الواقع امرأة شابة وجميلة.

كان شعرها الأسود الكثيف منتشرا بغزارة على رداؤها الأبيض الطويل
والذي بدا وكأنه حجاب حداد كبير يرفرف في رياح الليل. كانت النظرة في
عيونها السوداء الكبيرة غامضة وغريبة كما لو كان هناك ظلا بينها وبين
الأشياء حولها؛ كما لو كانت قد توقفت أمام جثث الموتى، تناوبت شفتيها
ما بين تمتمة أغنية جوليت والصلاة من أجل المتوفين وذكر اسم نيجيل
وينسيسلاو.
-ليزيكا!

هذا ما قالته وهي تنحني على جثة وهي تمسح برفق الشعر البني الحريري
الذي كان يخفي وجه شاب سرق الموت جماله^٢.
-ليزيكا! أيها الطفل المسكين الذي جاء إلى هذا العالم محاطا بالترف
والثروة، من الممكن أن تكون قد والدتك أخبرت، حينما كانت تهدئك في
مهدك وأنت محاط بالذهب والحرير، أنك ستنام نومتك الأخيرة على أرض
الصحراء الجرداء. وعندما كانت تقبل عينيك الزرقاء الجميلة، أكانت تتصور
أن مصيرهما، في نهاية المطاف، هو مخالف النسور؟!

١- (لغة إيطالية).

٢- جوان أنطونيو ليزيكا (١٨١٢-١٨٧٤) ملازم ثان في معركة كويبراشو هيرادو. لم يُقتل ولكن أسره،

أوربيبي؛ هاجر في وقت لاحق إلى مونتيفيديو.

هتفت:

-فاريل!-

وهي تتأمل الوجه المتيبس الثابت لرجل ملقى في مكان قريب في بركة من دمه^١ سليل نبيل لعائلة طيور البجع التي سحرت بأغانيها ضفاف نهر "ريو دي لا بلاتا". لقد وضع الموت بصمته السوداء على أمجاد وجهك، ولكن لماذا؟! ففي حين أن ابن آوى يرتوي بدمائك الكريمة، في حين أن النمر يلتهم قلبك الذي احترقت فيه الكثير من الإلهامات السامية في يوم من الأيام، أعد خنجر القاتل نفسه في الخفاء ليسكت إلى الأبد أغنية الشاعر وصرخة الوطني من أجل الحرية بضربة واحدة فقط! أوه! أوه! وسارت وهي تبدأ أغنياتها الجنائزية من جديد.

كانت المنطقة التي عبرتها مليئة بمئات الجثث ومروية بتيارات الدماء التي كانت تلطخ القدمين الرداء الأبيض لتلك المسافرة الرائعة. يمكن للمرء أن يقول أن الأمر كان كما لو أن سيف ملك الموت قد اتخذ لنفسه مساراً هناك، أو أن اليد البشرية التي اختصرت حياة العديد من الرجال قد فعلت ذلك لتنفذ عملاً انتقامياً كبيراً، أو لتفتدي نفسها من عمل خطير.

ومن بعيد، وعند نهاية هذا الطريق الغارق بالدماء والمُحاط بالجثث والبنادق التي أطلقت نيرانها والسيوف والرماح المحطمة، كان هناك جسد محارب لا يزال وجهه النبيل الوسيم، على الرغم من الموت، يحتفظ بتعبيرات مخيفة. وعلى الرغم من أن كل شيء كان يشير إلى أنه هو الشخص الذي عاث مثل هذا الفساد في صفوف عدوه، لم يجرؤ نصل هذا الأخير على الاقتراب منه؛ فهذا الجسم الممشوق الذي يرتدي ملابس أنيقة لم يُمس باستثناء الموضع التي تسببت فيه رصاصة واحدة في وفاته عندما نفذت إلى قلبه. كانت يده لا تزال تحمل سيفه من مقبضه، وكان ذلك الشريط

١١- روفينو فاريل (١٨١٥-١٨٤٠)، حارب مع لافال ضد روزاس، وبعد معركة كويراشو هيرادو، رافق

السجناء السياسيين إلى معسكر أوريبى وأعدم بعد ذلك.

الأحمر الرهيب، جنباً إلى جنب مع صورة روزاس وحكم الموحدين بالإعدام،
يرفرفان في نسيم الليل.

اقتربت المسافرة الغربية وألقت نظرة عابرة على وجوه الموتى الدموية
المشوهة، منادية أسماءهم بنبرة كئيبة:
-مونس! توريس! بوستيلوس!^١
صرخت فجأة:
-وينسيسلاو! وينسيسلاو!
وانتابها فجأة إحساس مجنون غريب من السعادة وركعت على ركبتيها
واحتضنت جثة المحارب الوسيم وقالت:
-ها أنا يا حبيبي! لقد وصلت بعد فوات الأوان، ولكنك أنت من تركت
فراشك اللطيف.

عند شواطئ "ريو دي لا بلاتا" كي تأتي وتستلقي في هذه الأرض البعيدة
المضربة بأشعة الشمس والغارقة بالدماء البشرية.

-حينما سمعت صوتك يناديني، تبدد فجأة الظلام الذي كان يعميني قبل
ذلك؛ رأيتك عين روعي مستلقيا على فراش زواحي، ماداً ذراعيك نحوي
وتصيح، 'إيزابيل! حبيبتي، زوجتي، تعالي!' وكسرت السلاسل القوية التي
تعوق رجلي ومشيت لمسافات طويلة، وكان يوجهني دائماً ذلك الصوت
الذي ظل يناديني، 'إيزابيل! إيزابيل!' وها أنا، أرتدي صندل حديثي الزواج

١ - جريجوريو مانويل مونس (١٧٧٣-١٨٤٠) حارب في حروب الاستقلال وقاتل في وقت لاحق ضد
روزاس. في معركة كويراشو هيرادو، تم أسره وإعدامه بعد عدة أيام بأمر من أوربي. مانويل جوزيه
بوستيلو (١٨١٧-١٨٤٠) تعقبه روزاس لتأمّره ضد ماذا عام ١٨٣٩. التحق بقوات لافال وقُتل في معركة
كويراشو هيرادو. ومن بين العديد من الشخصيات المعارضة التي تحمل لقب توريس، فمن الأرجح أن
جوروتي تشير إلى برودينسيو توريس (١٧٩٩-١٨٤٣)، الذي حارب تحت قيادة لافال وباز، على الرغم من
أنه حارب كذلك لصالح قضية الفيدراليين بشكل متقطع. في إبريل عام ١٨٤٠، في معركة سان كريستوبال،
أمر توري واحدة من كتائب لافال بالقتال ضد قوات أوركيزا. حارب في وقت لاحق لقالح لافال في معركة
فاميليا (١٩ سبتمبر ١٨٤١). وبعد هذه الهزيمة العسكرية، هاجر إلى بوليفيا.

٢ - جنباً إلى جنب مع الشريط الأحمر وصورة روزاس، عبارة: "الموت للموحدين المتوحشين"، كانت
وسيلة شائعة للتعبير عن الولاء للقضية الفيدرالية.

الأبيض لأتأبط ذراعك في عناق أبدي!... ولكن... أوه! يا إلهي! صدره بارد ولا يتحرك؛ شفتاه بيضاء ومتيسبة؛ عيناه ثابتتان ويحجبها ظل مشؤوم. آه! إنها التميمة المنحوسة، ذلك القفاز الأسود المشؤوم! منذ تلك اللحظة التي رأيته فيها لأول مرة، شعرتُ بألم في قلبي، وعندما لمستهُ فقدتُ صوابي. بعد ذلك، أراحت رأسه الهامدة على ركبتيها وحلّت قميص المتوفي لتنظر إلى صدره. صرخت:

-أوه!

وحذقت عيناهما في جرح دائري عميق ذي حواف سوداء.

-إنها يد مانويلا روزاس التي كشفت صدره لتسرق قلبه مني! ها هي هناك، لا تزال تأتي لتدعي أحقيتها به، لتلقي بيننا - كما لو كان ذلك لتحدي حبنا - القفاز الأسود الذي فرّق بيننا.

صرخت وهي تنهض وتغطي الجثة بذراعيها:

-تراجعي! عودي! فوجودك مميت بالنسبة لمن يحبوك! حجابك الأبيض العذري ملطّخ بالدماء! سحابة من الدموع تحوم فوق رأسك! اخرجي من هنا! وواصلت كلامها وهي تتحرك إلى الأمام كما لو كانت لتمنع الوهم الذي صوّره عقلها لها.

-لا تلمسيه! فخنجر "المازوركا" سيقتله... آه!

-كلا، إنه شبح والدي، يأن ويتجول بين البقايا الباردة لرفاقه! أبي! اسمعني! هذه ليست الضربة الأخيرة التي ستطلقها يد القدر الحديدية نحو المدافعين عن الحرية! هل ترى تلك الأنهار من الدماء التي تجري عبر المييدان؟ ستواصل تدفقها على هذا النحو، لفترة طويلة، عبر أرضنا الجميلة. ولكن الأرض لا تستطيع امتصاصها! هل ترى كيف، على العكس، تصعد إلى السماء لدرجة أنها يمكنها أن تنزل يوما ما على هيئة الندى والرحمة الربانية المباركة؟ انظر، هناك، على بُعد، في الأفق... ألا ترى محاربا شجاعا يقف بين صفوف الجيش الفيدرالي؟ العالم كله أيضا ينظر إليه بتعجب، لأنه البطل الذي سيرفع راية الحرية من جديد على أشقائه المسجونين؛ سيطيح بالطغيان من على عرشه الدموي ويسترد الروعة والمجد لبلادنا.

-لترقد رأسك مرى أخرى على وسادة الموت الهادئة، في حين يحملني زوجي
بين ذراعيه إلى فراشنا الزوجي الجديد.

وساد الصمت مرة أخرى في الميدان، ومزجت "البامبيرو" عطور الزهور
برائحة الدماء الكريهة؛ سقطت زهور شجر الخروب على الوجوه المشوهة
للموتى وبدأ الكوييو مرة أخرى في غناء أغنيته الحزينة ...

يُقال أنه في كل مرة كان فيها طاغية "بيونس آيرس" على وشك التصريح
بإحدى أحكامه الدموية بالإعدام، إحدى أفعاله الوحشية الرهيبة التي
دمّرت المدينة، تظهر امرأة غريبة الشكل في ساعات الليل المبكرة وهي
مسجاة بكفن طويل وشعرها يتطاير مع الرياح. كانت تطوف المدينة ثلاثة
مرات وهي تغني طوال الوقت بنبرة حزينة اللحن الكئيب العميق.

١٤- البامبيرو هي رياح باردة تهب من منطقة جبال الأنديز عبر البمب الأمريكي الجنوبي إلى المحيط
الأطلسي.

إذا كنت تخطئ، فلا تتوقع شيئاً جيداً الاختطاف

كان الوقت متأخراً في يوم في منتصف الربيع. كانت الشمس تغرب خلف الجبال في عظمة رائعة، وتنتشر مع أشعتها المتبقية أم اللالئ على ثلوج سلسلة الجبال الموجودة عبر الطريق، مما يرسم ظلالاً طويلة من الخيالات العابرة من الماعز الذي يتجول هنا وهناك بين الصخور الوعرة شديدة الإنحدار وهي تقطف أوراق الشجيرات والبلان الشوكي الموجود بالأدغال.

كان كل شيء مسالماً وصامتاً في البساتين الريفية الوحيدة. أضافت الحمامات المطوقة، المختبئة في الصخور المدوّرة، هديلها الحزين إلى هدير الشلال الذي يرتفع من الوادي حيث تسقط مياه نهر "الريماك" كرعد بعيد. وفجأة، أطلق صوت حاد حلو صرخة مرحلة.

-مامي!

قالها بنبرة الإينكا:

-انظري إلى تلك الزهور الذهبية الجميلة التي تلمع بالأسفل هناك وسط الأحجار؟ سأذهب لأحضر بعضاً منها لك.

تسللت فتاة في الخامسة من عمرها -جميلة، بدينة، متوردة الوجنتين وترتدي أناكو^١ جذابة- بسعادة باتجاه الوادي عبر ممر وعر. وفي الوقت نفسه، خرجت شابة هندية من خلف جلمود كبير وصرخت بنبرة حزينة:

^١ - الأناكو هي تنورة فضفاضة ترتديها النساء الهنديات في بوليفيا وبيرو والإكوادور.

-كلا يا سيسيليا! كلا يا ابنتي! فتلک الأحجار قريبة من الطريق ... اسمعي،
يمكن أن تسمعي صوت الجنود وهم على ظهور جيادهم! إذا أتوا من هذا
الطريق... ها هم هناك! أحدهم أت إلى هنا... يا ابنتي! يا ابنتي!... أوه!

في الواقع، كان فوج يقترب على طول الشلال. وعندما وصل إلى الوادي،
ابتعد ضابط عن أحد الموجودين بالمجموعات الأخيرة وناداه بالوصيف. قال
بضع كلمات للجندي وأشار إلى الفتاة الموجودة على بُعد والتي كانت تجمع
الزهور من بين الصخور الموجودة على جانب الطريق.

جرى الجندي بالفرس إلى حيث كانت. وعندما وصل إليها، انحنى على
جانب فرسه وجذبها بذراعيه، ولكن حينما اعتدل وبدأ في الالتفاف لوضع
الفتاة على الجزء الخلفي من سرجه، شعر بيدين من الفولاذ تجذبانها من
عنقه وتلقيه على الأرض.

لقد ركضت المرأة الهندية كي تنقذ ابنتها؛ كانت تضع رأس الجندي تحت
ركبتها وكانت تبحث بعينين متوحشتين عن حجر لتقضي بها عليه.

وأخيرا التقطت صخرة صغيرة سميكة، ولكن عندما رفعتها فوق الجندي،
جذبها شخص ما من شعرها إلى الخلف فأبعدها عنه؛ فالضابط الذي أمر
باختطاف الفتاة قام بجرها إلى الخلف وألقاها بلا رحمة على جرف. دوت
صرخة الأم المروعة من عند الجرف في حين ضحك ضحك الضابط وقال:
-يا لك من مخبول متخنث ضعيف! أن تدع امرأة تخنقك! لحسن الحظ
أنني وصلت في الوقت المناسب... ولكن... يا لها من مصادفة عجيبة!...
نعم، هنا، في نفس هذا المكان، أو في مكان قريب جدا من هنا، على أي
حال، أين تلك الشابة... اصمتي يا فتاة، اصمتي. أوه! إنها جميلة للغاية!
انظر إلى تلك العيون السوداء، ذلك الشعر الحريري، ذلك الفم الصغير
مرجاني اللون. ستكون هدية صغيرة جميلة لبيا الجميلة، تلك الساحرة

التي تحب أن تسلي نفسها بتعذيب الأرواح الأخرى... اصمتي أيتها الفتاة الصغيرة؛ ستكونين سعيدة للغاية. ستحصلين على الحلوى والكعك و... اللطومات القوية كما يحلو لتلك المرأة الشريرة. والآن، خذها يا مارينو. اركض بجوادك حتى تلحق بسائق البغال، ثم اطلب من سائقي أن يأخذ معه تلك الفتاة الصغيرة مختلطة العرق بمنتهى الحذر؛ ولكن أخبره أيضا حينما يصل إلى "ليما" ألا يكون مغفلا ويأخذها مباشرة إلى منزلي. دعه يتركها مع الحارس عند كشك الحراسة عند أسفل طريق العجائب حتى آتي إلى هناك. هل تفهم؟

ثم عاد إلى مكانه في المسيرة بينما قاد الجندي مقدمة الفوج، حاملا معه الفتاة التي كانت تبكي ببأس، ولكن سرعان ما ذابت دموعها مع مسيرتهم، كما اختلطت مع نواح الرياح وصوت المياه، تاركة الوادي خلفها في صمت مطبق.

قطاع الطريق

بدأ كل من الليل والضباب في الانتشار عند نهر "الريماك" وساد صمت شتوي بين أدغاله الكثيفة، ولكن من بعيد، على الطريق الذي يأتي من "شاكلا كايو"، كان يمكن سماع خوار مجموعة من الحيوانات بشكل أكثر وأكثر وضوحا. وبعد ذلك، من بين حشد الشجيرات المظلمة، جاءت صافرة طويلة.

وبعدها بوقت قصير، خرج ثلاثة رجال مجهزين جيدا ومدججين بالسلاح، على ظهور جيادهم من عند جدول قريب. نزلوا من على جيادهم والتي أخفوها خلف جدران "هواكا" المتهدمة، وربضوا وراء الشجيرات الكائنة

١ - هواكاس أو جواكاس، في لغتي الأيمارا والكيشوا، هو مكان في ريف جبال الأنديز والمحدد كمكان مقدس والذي غالبا ما يحتوي على أصنام ومفردات دينية أخرى.

ناحية الطريق حيث انتظروا متربصين.

وفي مكان ليس بعيدا عن هناك، ظهرت عشرة بغال محملة بالصناديق والحقائب من حول منحى في الطريق، وكان يقودهم أربعة سائقين.

مضى المسافرون في طريقهم بسلام وهم يقودون وحوشهم المحملة دون قلق، وكانوا يضيفون سجع "اليارا" في^١ إلى وقع أقدامهم. ودون سابق إنذار، جذبت يد قوية عدة البغل الذي يسير في المقدمة، مما جعل القطيع بأكمله يتوقف. رأى السائقون شبح ثلاث مواشير عريضة والتي تخص ثلاثة بنادق قديمة، ولم يكونوا بحاجة إلى رؤية الثلاثة الزنوج ضخام الأجسام الذين يحملونها قبل أن يعدوا ناحية الشجيرات ويختبئوا كالشباح.

بدأ قطاع الطريق بعد ذلك في تفقد غنائمهم.

قال أحدهم:

-أربعة عشر بغلا.

صاح آخر:

-ثمانية عشر صندوقا.

وقال ثالث:

-ثلاثة صناديق للقبعات العسكرية.

قال الأول:

-وبعد أن اعتلوا ظهور جيادهم الرائعة، جمعوا الغنيمة كلها واتجهوا

عائدين إلى الجدول الذي

-وفتاة صغيرة مختلطة العرق.

-دع الفتاة وصناديق القبعات وأحضر الباقي معنا إلى أعلى التل.

هكذا تحدثوا، وهكذا تصرفوا.

١ - البارافي هي أغنية وطنية جميلة وحزينة. الكلمة مشتقة من الفعل أراوي في لغة الكيشوا والذي

يعني تأليف الشعر.

أتوا من عنده. وبعد لحظات قليلة، كانت الفتاة المسكينة هي فقط من تبقت، وكانت تصرخ بعد أن تركوها وحيدة على جانب الطريق.

الحامي

بعد عدة ساعات، حينما تحولت صرخات الفتاة العالية إلى نسيج والتي جعلت جسدها يرتجف، ظهر فارس يعدو بفروسه في نفس الطريق الذي أتى منه سائقو البغال؛ كان مُسجى في عباءة فروسية وكان يحمل حقيبة كبيرة على خُنَاق فرسه. توقّف فجأة وقفز على الأرض ليلتقط الفتاة بين ذراعيه. سألهما بحنان:

-من تركك هكذا يا طفلي المسكينة؟

ولكن المسافر كان يتحدث بلغة لم تفهمها الفتاة. وكإجابة على كل أسئلته، كانت تصرخ وتجيّب:

-ماما!

قال وهو متأثر بشدة:

- يا لك من مخلوق صغير مسكين. لن يكون عبثاً أن تنطقي بهذا الاسم ذي المعنى العالمي! من الآن فصاعداً ستكونين ابنتي وستؤنسني في وحدتي. لا أعرف اسمك، ولكنني سأعطيك اسم حبيبتني الصغيرة الغائبة التي تنام تحت ظلال دو بير لاشاير!^١

ضم المسافر الطفلة إلى صدره، ومعها استرجع ذكرى ابنته الميتة. صعد على متن جواده مرة أخرى، وأخفى الفتاة تحت عباءته وأضاف، كما هي عادة الفرنسيين الصالحين، الكلمة الصغيرة كي نضحك.

-يمكنني الآن أن أقول أنني أتممت دوري كعالم طبيعة بإخلاص. فحقائبي

١ - دو بير لاشاير: عبارة عن مدفن في باريس، مشهور نتيجة العديد من الشخصيات الالامعة المدفونة هناك والذين من بينهم فيكتور هوجو.

تحمل العينات التي جمعتها من ممالك الخضروات والمعادن. وهنا، معي،
عينة من مملكة الحيوان. وهكذا، إلى فرنسا أعود!

احتضن الفتاة ثانية وضحك وجفف دمعة وركض بفرسه في الطريق
المهجور...

بعد اثني عشر عاما

-أي!

قالت لها شابة جميلة ل كولونيل مقلد بأوسمة مفرطة ذات ليلة بعد المسرح:
-هل تظن أنني لدي وقت كي أكتب خطابا لأخي؟
-هناك وقت أكثر من كاف؛ فالسفينة البخارية لن تقلع قبل ظهر الغد.
قالت وهي مقطبة:

-إذن سأكتب خطابا إليه هذا الليلة كي أخلص نفسي من أي ندم لأنني لم
أرسل له خطابا قبل ذلك. وسأستطيع النوم بعدها بسلام.

ابتسم الكولونيل ساخرا وقبّل جبهة الفتاة الجميلة وسار معها حتى
مظللها ثم عاد إلى غرفته. وحينما دخلت غرفتها، ابتسمت الفتاة لنفسها في
المرآة وألقت مروحة والدها من على الخزانة وخلعت إكليل الزهور الذي
كانت ترتديه على رأسها وعلّقته كقربان نذري عند قدم العذراء المعلقة
أعلى فراشها ونفضت شعرها الطويل، ثم أخرجت مكتبها، وجلست، وبدأت
في الكتابة.

-هناك فراغ كبير يا عزيزي جويليرمو، فراغ كبير في حياتي منذ أن رحلت!
كم هو فظيع ألم الروح التي تشاق إلى شخص ما! يسعد الأطباء بتسميتها
باسم علمي وهو "الحنين" - كما يقولون بذلك. وإذا كانت امرأة شابة هي
من تعاني من هذا المرض، يضيفون مبتسمون:
-خذ هذه الفتاة إلى "تشوريلوس"، واجعلها تستحم وتستنشق الكثير

من الهواء النقي وتخرج في المنتزهات وتسعد نفسها بكل وسيلة ممكنة، وسوف ينتهي كل شيء.

-هذا صحيح تماما! حيث أنهم يعتقدون أن الأشياء الوحيدة التي نحبها -نحن فتيات "ليما"- هي الرقص والعيش بترف وإهدار كل شيء... !
-أوه! جويليرمو، ما هو العقاب المناسب لأولئك الذين يفترون علينا على هذا النحو؟ ولكني لأعرف ما هو. كنت أود أن يعاني قلبهم من نفس الألم الذي يقاسيه قلبي بسبب غيابك. بهذه الطريقة سيشعرون كم تعي فتاة من ليما كيف تحب وبقوة.

-وأنت يا أخي؟ أوه! الأمر معك مختلف! أولا، بغض النظر عما يقولون، المرء الذي يرحل لديه ألف سبب ليصرفه ويتمكن منه ويخفف ألمه. فالأحداث التي تقع على متن السفينة، الوصول إلى موانئ غير معروفة، الوجوه الجديدة التي تظهر بلا نهاية واحد تلو الآخر.

-في جوهره، كيف يشاقق الشقيق عادة لشقيقته؟ كطاغية يحاول السيطرة على كل عواطفها، يعاملها كأقصى الطغاة، دائما ما يقلل من شأنها، وينعتها بأنها قبيحة وغبية، و...

-ولكن، أوه يا عزيزي جويليرمو! أرجوك سامحني! لمقارنتك بهؤلاء الأشقاء الآخرين! ما هذا الظلم الفظيع!

-لطالما أحببتني ومنحتني رعاية الأب العطوف وبسالة الحبيب الرائعة، ولكن أنت تعلم أنني لا أثق بكلماتي؛ فلقد عشت في باريس لمدة شهرين؛ نسيت شقيقتك؛ أهملت وعدك بأن ترسل لها سرد مفصل لحياتك هناك كل خمسة عشر يوما!

-أوه! حتى إذا كنت تخشى عدم الاحترام، وحتى لو حذفت العبارة التالية بسبب ابتذالها، سأقولها، وبغضب: أي وقح أنت! ها أنا، لقد قلتها! إذا كان هناك سبب جدي، كالحب على سبيل المثال، سيطر على عقلك... لكن إذا كان الامر مهمة مُرهقة من الحكومة، رقصات، جولات، عروض، نزعات... جويليرمو، إذا كان هذا هو ما منعك من إرسال الخطابات إليّ، فلن يكون

ذلك عذرا.

بعد ذلك بوقت قصير، تلقت الشقيقة شديدة الحساسية هذا الرد:

-حسنا، يا شقيقتي الجميلة الغاضبة، كان سبب جدي؛ فالحب لم ينسيني إياك، ولا حتى للحظة واحدة، ولكنه تفضيل الصمت قبل أن أرسل إليك بعض الأخبار التي أنا على يقين من انها سوف تسعدك- أخبار يعرفها والدنا بالفعل ولم يخبرك إياها بناء على طلبي. لديك شقيقة الآن، صالحة مثلك، ومثلك جميلة كاملاك، وفي واقع الأمر تشبهك بشكل مفاجئ وملفت للنظر. فقط استمعي إلى قصتي:

كنت أتنزه بعد ظهر أحد الأيام تحت بساتين "بيير لاشيز" التعيسة. كان اليوم قد قارب على الانتهاء، واخترق ضوء الشمس الغاربة الأحمر أوراق الشجر الكثيفة كخيوط من النار.

-كان المكان الكئيب مهجورا وصامتا، وكانت النسائم الأخيرة لرياح ما بعد الظهيرة تنوح كالأشباح بين أوراق أشجار السرو.

-وبعد التجول لفترة طويلة في مدينة القتلى وزيارة مقابر أبيلاردو وناي ولافيديوير وفوي، جلسْتُ تحت شجرة الغار التي تغطي قبر كارلوس نودير بظلها^١ وعندما قرأت النقش على قبره، تذكرت الحماس الشديد الذي كنت تقرأين به، في المنزل تحت زهور الياسمين في حديقتك، رائحته "حكاية شظايا مقسمة صغيرة"^٢ والتصميم الساذج الذي كان يجعلك تركضين عبر تلال "الأمانكايس" بحثا عن "ماندراجورا الجميلة".

-استدعيت ذكرياتك واحدة تلو الأخرى، لدرجة أن صورتك ظهرت في النهاية بشكل واضح في مخيلتي بحيث جعلتني أتطلع حولي بشكل لا إرادي، وأنا أتوقع أن أراك هناك. تصوري دهشتي عندما أراك بالفعل

١ - تشارلز نودير (١٧٨٠-١٨٤٤) روائي وشاعر رومانسي، مؤلف خيال رائع. روايته "حكايات مذهلة" انتشرت على نطاق واسع، كما كان الحال مع قصصه عن الخارجين عن القانون الكرماء والنبلاء، أبطال مماثلة لتلك التي رسمتهم جوروتي..

٢ - جوروتي تشير إلى أشهر قصص نودير "الجنية والفتات" (١٨٣٢)، حوار بينالراوي وخادمه عن الجنون وامتزاج الحلم باليقظة. البحث عنماندراجورا الجميلة وهو الاسم الذي اختارته جوروتي هو إشارة إلى قصة نودير والتي فيهايبحث البطل عن مثل أعلى والذي يُرمز له بنبات اليبروج الذي يغني. يعتبر البعض هذه الحكاية كتاب صلوات لتعليم الكبار: تعليم شرائع الماسونيين.

بالقرب مني، أنت نفسك، هناك، على بعد خطوات قليلة مني، ترتدين ثوب حداد وتنحن على عمود قبر. وبدون تفكير، ركضتُ لألمسك، كي أعرف إذا كان ما أراه حقيقة. ولكن كلما اقتربتُ أدركت أنه تشابه كبير فقط، وأني ارتكبتُ حماقة كبرى، ولكن المرأة الشابة التي ترتدي ثوب الحداد لم تلاحظ وجودي. كان خدها يستقر على رخام شاهد القبر وكانت تغمض عينيها وكانت شفتاها تتحركان ببطء. لقد كانت تصلي.

-في تلك اللحظة، سمعتُ كلاباتنبج بصوت عال من على بُعد.
-تذكرتُ أنه حان وقت إخراج الحارس لكلايه الضخمة لحراسة المكان ليلا. وعندما ارتجفتُ من الخوف عندما تذكرتُالخطر الذي يهدد الشابة الجميلة، حملتها بين ذراعي وركضتُ أسفل الطريق الذي تصطف فيه أشجار السرو والمؤدي إلى المخرج.

-وعندما فوجئتُ بعلمي، فتحت المرأة الشابة عيونها وصرخت بخوف وفقدت وعيها.

-كانت هناك سيارة مستأجرة تنتظرها عند مدخل المقبرة. وضعتها بداخلها وجلست بجانبها حاملا إياها.

-وبينما أنظر إلى وجهها، تأملتُ بحب الشبه الرائع بينكما يا عزيزتي ماتيلدا. لقد كان وجهها يشبه وجهك تماما، كل ملمح فيه، ولكن دون النشاط الغامر والذي يعد أحد مفاتنك الكبيرة. فبدلا من ذلك، كانت رقيقة ونحيلة، وكان خداهما المسمران المصفران يعتريهما ذلك الشحوب الناعم الذي يغرم به الفرنسيون، ولكن الذي يسبب الكثير من القلق في ليما بالنسبة لجميع الوالدات المعتنيات.

-نفس هذا الشحوب جعل عينيها السوداوين تلمعان بشكل أكثر إشراقا عندما فتحتهما أخيرا، فعززتا من ذكرى شقيقتي، سواء ذكرى ابتسامتها الحلوة أو جديتها المعتدلة.

-أميليا هي ابنة مسافر حكيم كرس حياته وثروته للعلم؛ توفي، تاركا لها فقط اسمه اللامع وفضيلة التقشف.

-يتيمة فقيرة، ولكن ذات قلب غني بالشعر والمشاعر. قسّمت أميليا حياتها

بين ألحان السامية للبيانو الخاص بها وصمت المقبرة التعيس.روح شديدة الإحساس، كل شيء في الحياة بالنسبة لها هو شيء جاد، وفي عينيها، في صوتها، وفي سلوكها، هناك تعبير حزين وحلو للغاية، دائما جاد ومتأمل، وهو ما تفتقر إليه تماما بنات فرنسا المشاغبات؛ اكتسبته بلا شك من أسلوب الحياة الرسمي في الصحراء، تحت الحجاب الذي ترتديه المرأة العربية في المناطق النائية التي سافرت إليها مع والدها.

-هذه هي شقيقتك الجديدة. لم أكن مخطئا عندما قلت يا رفيقة روحي الجميلة والمندھشة أنك ستكونين سعيدة جدا باحتضانها عند تقابلينها؟

الذكريات

في يوم صيفي، بعد فترة ليست بطويلة، كانت شقيقة جويليرمو شديدة الحساسية، كانت ترتدي ملابس ذات درجة معقولة من التدلل تشبه ملابس من يحب التنزه، في طريقها إلى السفينة البخارية.

بمجرد أن وقف القارب الصغير إلى جانب السفينة البخارية، تسلقت امرأة شابة فاتنة من "ليما" الدرجات المتزعزعة، وهي تشعر برطوبة من ضباب الصباح، بخطوات واثقة، وألقت بنفسها في أحضان شقيقها، ثم تراجعت بعيدا عن ذلك العناق الأخوي لتلتفت وتعانق بحنان امرأة شابة جميلة، سمراء مصفرة وشاحبة، والتي تشبهها بشكل مذهل.

قابلت الغريبة مداعباتها بلا مبالاة رقيقة، لكن لم تبدو مشتتة في بعض الأوقات؟ لم لا تركز عيناها في الساحل المليء بالزهور وتحقق في صورة ظلية زرقاء بعيدة لسلسلة الجبال؟

قالت في النهاية بعد نزولها:

-جويليرمو! لقد رأيت تلك الجبال من قبل.... لكنني لا أعرف أين!
أجابت ماتيلدا على الفور:
-يجب أنني ظننت أنها جبال "الألب".
-كلا. جبال "الألبليس" بها خطوط متموجة كذلك.

أجابت الفتاة المتعالية وهي مصممة على التباهي بالجغرافيا التي تعلمتها في المدرسة:
-إذن فهي جبال "البرانس".
-كلا، أقل من ذلك. على أي حال، أعلم أن قدمي قد خطت على مسارات خشنة كذلك التي تمر عبرها الرياحين خلال تلك المنحدرات الهائلة.
قال جويليرمو لها:
-إذن يجب أن تكوني قد حلمت بها يا عزيزتي أميليا. يجب أن تكوني قد حلمت بتلك الجبال أثناء شوقك الشديد للمجيء إلى الأمريكتين.

هتفت شقيقته المتحيرة بتقطعية ساحرة والتي جعلت إميليا تبتسم:
-حلمت بالجبال! حلمت بالجبال، مع وجود نهر "الريماك" الجميل هنا، بمتنزهاته التي تصطف فيها أشجار الحور الرائعة بحدائقه الفواحة...
-أنت تعلمين أن حديقتي كالجنة. إنها مليئة بالزهور والياسمين وأشجار الشيريمويا والياسمين الهندي الأبيض وأشجار السنط، وفي ظلها ستجدين جميع الأزهار الموجودة في أوروبا متفتحة عن آخرها. لقد زرعته بنفسي...
-دعيني أحظى بشرف مساعدتك في النزول يا إميليا. أعطيني يدك. لا أريد أن يتزلق كاحلك على الدرجات القديمة للرصيف.

ولكن الغريبة الجميلة كانت تسمعه بالكاد؛ فكانت الأفكار والهموم الغريبة تلهيها ولم تلاحظ السرعة التي يتحركون بها؛ الحقول الواسعة والبساتين الكثيفة مرت أمام عينيها كضباب حلم غير حقيقي.

كان الكولونيل ينتظرهم في المحطة في "ليما"، وسمح جويليرمو لوالده بأن يحتضن زوجته.

كان الكولونيل يحب أبنائه بشدة، وتم الترحيب بـ أميليا بمنتهى اللطف، ولكن لماذا كانت ترتعش عندما تلمس شعيرات شاربه الرمادي جبهتها؟ كم هذا غريب!

وعلى الرغم من ذلك، سخرت بعد ذلك مباشرة من خوفها الطفولي وتجاوبت مع عاطفة الكولونيل بقبلة جميلة من بنت لأبيها وأراحت رأسها الواثقة على صدره المزين بالميداليات والصلبان.....

بالنسبة لـ أميليا، مضت الأيام سريعة كالرياح وصافية كالفجر. كانت أميليا روحا ذات حواس قادرة على الإدراك بشكل مميز، وكانت تتذوق -بلا منازع- مباحج حياة "ليما" السحرية حيث كل شيء مبهج للروح الحواس؛ حيث كل شيء، من السماء إلى الأرض، مليء بالروائح الجميلة والضوء والتآلف.

ولكن في العديد من المرات، حينما كانت تركز مع شقيقتها الجديدة في بساتين الحديقة، كان عليها أن تتوقف فجأة لتستنشق الهواء الخفيف في جوّنا -هواء مبهج ولكن مميت ينعش أجمل الأزهار، ولكن يجعلها أيضا تذبل.

وجاء اليوم الذي استنشقت "أميليا" -التي أصبحت نحيلة وشاحبة- عبثا ذلك الهواء الخالي من الأكسجين، والذي لم تستطع فيه أشعة شمس يناير تدفئة جسدها الذي تدهورت حالته إلى حد كبير.

تجمّع الأطباء حول فراش "أميليا" واتفق الجميع وهم قلقون للغاية

وقالوا:

-يجب أن تؤخذ هذه الفتاة إلى سلسلة جبال "السييرا"؛ يجب أن تحصل على الراحة التامة، ويجب أن تشرب من لبن الماعز ويجب ألا تهتم بشيء والباقي يتوقف على إرادة الرب!

في الصباح التالي، اتجهت "أميليا" وبصحبتها زوجها ووالدها الجديد باتجاه "جاوجا". تبعهم ماتيلدا ومجموعة كبيرة من الأصدقاء الذي كانوا دائما يحيطون بها في ذلك الطريق الجميل الذي يبعث شعورا بالسعادة والحزن عند الوداع على حد سواء.

حافظ الجميع على صمتهم، ذلك الصمت الذي يصاحب الأشخاص الذين يرافقون هؤلاء الذين يصعدون طريق العجائب المشؤوم وهم يأملون استرداد صحتهم؛ إنه طريق يصعده الكثيرون، ولكن قليلون للغاية من ينزلون منه.

حينما وصلوا إلى التلال حيث أصبح الطريق صعب التسلق، أوقف الكولونيل جواد ابنته وقال لأصدقائها:
-أيها السادة، لقد شارف اليوم على الانتهاء ولقد وصلنا إلى مكان بعيد بالفعل. يجب أن تعودوا الآن!
وأضاف وهو يشير إلى ماتيلدا كما لو ليضيف نبرة أكثر سعادة إلى جلال الوداع الحزين:

-أعهد إليك بهذه السيدة الجميلة. أحثك على استخدام سيوفك عند الضرورة للدفاع عنها من اللصوص الذين يجوبون هذه المنطقة الوعرة. حتى نلتقي ثانية!

ارتجفت أميليا عندما سمعت تلك الكلمات. غزا عقلها فجأة مشهد غريب؛ إحدى تلك السلاسل من القصص والتي -كانعكاسات من السماء-

تظهر فجأة أمام الروح وتأتي وتذهب مع إشراق وسرعة وميض البرق.

عندما عادت ماتيلدا بعدما عانقت أميليا، قالت لمرافقيها بين دموعها:
-أميليا لن تعود! ستموت. هناك نظرة غريبة في عيون أميليا لم أراها من قبل.

ومنذ تلك اللحظة، بدأت تنتاب أميليا سلسلة من الهلوس لا نهاية لها. وللحظات قليلة، في أبعد أجزاء ذاكرتها، كانت ترى عالما رائعا ومستحيلا، ولكن عندما التفتت لتتأمل إليه، كان يختفي، فقط ليلاحق عينيها ثانية فيما بعد.

وفي أحيان أخرى، كان لديها حدس غريب يجعلها تقول لنفسها:
-حول ذلك التل هناك مجموعة كبيرة من المنازل بين مجموعتين من الاسطبلات. فتصعد إلى أعلى التل وقلبها يخفق بعنف، وعند الوصول إلى القمة، تخرسها المفاجأة إذ ترى مجموعة من المنازل والإسطبلات تماما كما حلم بها خيالها. وفي مثل هذه الأوقات، كانت تحاول إقناع نفسها أن كل ما حدث منذ أن تركت "ليما" كان كابوسا طويلا جدا؛ لأنها كانت تخاف، تخاف من أن تعاني من هذيان الجنون القاتل. وجاء وقت أصبحت فيه شاحبة وقلبها يطغى عليه إحساس غريب بالمعاناة، فظنت:
-هناك، حول هذا المنعطف في الطريق، سينفتح وادٍ عميق. يتكون من جبلين شاهقين منتصبين يخفيان السماء. ومن سفحهما يمكن سماع صوت مياه شلال الهادر.

وعندما ذهبت عند المنعطف، تماما حيث توقعت، ظهر الواد القاتم وفي الجزء السفلي منه كانت مياه نهر "الريماك" البيضاء تهدر وهي تشق طريقها من عند الشلال القريب.

وبعد أن اعتراها خوف لا يوصف، نظرت "أميليا" حولها بقلق لتبحث

بين الحجارة الموجودة على جانب الطريق عن شيء ما قد يختلف، وبالتالي يخيب، ما تصوره خيالها.

وفجأة، وبينما هي شاحبة وترتجف، قالت لنفسها:

-هناك، نبات ذو زهور ذهبية. فتاة تجمع عدد قليل منها، ثم تصرخ، وهي تقاتل... تقاتل ماذا؟ ... أوه، يا إلهي العزيز! ساعدني كي أتذكر ماهية هذا الشيء الذي جعل تلك الفتاة الصغيرة تصرخ!

ودون أن تعرفه، بدأت أميليا في البكاء بمرارة. اتجه زوجها ووالدها نحوها بحنان لمساعدتها. وفي تلك اللحظة، خرجت امرأة غريبة الشكل، مسجاة في شال أسود، شاحبة كالشبح من وراء صخرة كبيرة، وصرخت بشكل ينم عن الخير:

-من يبكي هنا؟ لم يبك أحد هنا منذ ذلك اليوم....

وفجأة، عندما رأت الكولونيل، قفزت نحوه وأمسكت بلبام فرسه وهتفت: -لقد وجدتك أخيراً! يا سارق الشرف، يا سارق الأطفال، لن تستطيع الاختباء. عبثاً أن تضع الثلوج على شعرك لتخفي نفسك، فلا زلت أنتعرف عليك! أنت ياقاطع الطريق المنمق، ماذا فعلت بابتنتي؟
صاح سائقو البغال:

-إنها راعية الغنم المجنونة من "هوايروس".

في هذه الأثناء، دفع الكولونيل جواده وحرر نفسه من الهجوم المفاجئ. ولكن تبعهم هذا الشبح الغريب من على بُعد. وكلما تنقلوا عبر الجبال، رأتها أميليا خلفهم دائماً من على نفس البُعد، تسير ببطء ولكن خلفهم بالتأكيد. ومع ذلك، عندما وصلوا إلى المنزل الريفي، بحثت عنها ولكنها لم ترها؛ لقد اختفى الشبح.

في تلك الليلة لم تستطع أميليا النوم، كما هو الحال مع من يعانون من مرض في الصدر، لذا تركت سريرها وخطت، وهي مستغرقة في أفكارها، على ضوء النار في غرفة المنزل المظلمة. ظل جويليرمو والكولونيل برفقتها وسألاها بتلهف ماذا يقلقها.

لم تستطع الشابة المسكينة شرح ذلك بالكلمات؛ لكن الخوف ملأها. شعرت بداخلها بكائن جديد يتحرك، كما لو كان يستيقظ؛ كائن نصف منسي اتحد مع روحها وكان يخفق مع قلبها.

وضعت يدها على صدرها بألم، وهي تتساءل عما إذا كان ذلك شبها قد تذكر حياته الماضية. ألقت شعلة النار الحمراء بظلال رائعة على الجدران الفارغة والتي زادت من انفعالها. وفجأة، قامت يد حذرة بفتح الباب ببطء، وتسلفت هيئة سوداء إلى الغرفة. لقد كانت شبح الوادي.

نظرت المرأة المجنونة حولها بعينيهما الحائرتين كما لو كانت تبحث عن شخص ما. كانت تتجه بصمت نحو النار بجمود ورسالة كالتمثال، وأمسكت بقطعة من الخشب والتي تشتعل النار في نهايتها ثم باستخدام مصباح، بدأت في النظر في جميع أنحاء الغرفة.

رأت أميليا والآخرا المرأة تحمل النار في يدها التي لا تزال شابة، ولكن المتدهورة إلى حد كبير. كانت التجاعيد العميقة تشوه وجهها الذابل، وكانت عيناها تحمل تلك النظرة المتجمدة، أو باختصار، النظرة السماوية للقتلى.

عندما رأتها أميليا، تلاشى القلق منها وانتقل إلى جوهر روحها. اقتربت من المرأة المختلة وسألته بصوت حلو:

-ما الذي تبحثين عنه هناك يا صغيرتي المسكينة؟ تعالي واستريحي، أتوسل إليك؛ إن الوقت متأخر بالفعل والجو شديد البرودة. أجابت دون أن تنظر إلى أميليا:

-أبحث عن الرجل المنمق.

وواصلت بحثها العنيد، ولكن أميليا أمسكت بيديها بلطف، وأرشدتها وهي

تمسكهما بحنان وأجلستها بالقرب من النار.

قصة الطريق الجبلي

بانقياد حزين، تركت المرأة البائسة أميليا تقودها. تقاطعت يداها على ركبتها وحدقت لفترة طويلة، بصمت وتأمل في اللهب المتراقص للنار.

وشيئا فشيئا تحركت عينها الفاترتان ولمعتا كما لو كان ضوء داخلي قد أنارهما، وابتسمت شفتاها ابتسامة شابة والتي جعلت أسنانها البيضاء تتلألأ في الظلام.
صرخت فجأة:

-إستييان! من قال أن إستييان قد مات؟! كذب! ها هو هناك، شاب، طويل القامة، وسريع كما مضي، أقي منكازابلانكا ومعه الغنم. إنه هو، إنه هو حقا؛ عيناه، شعره الأسود. إنه يناديني! ولكن، كلا! ابق بالخلف يا إستييان؛ فالكاهن لا يريد قطعاننا أن ترعي معا، لا زلنا صغارا على الزواج. كما لو كان المرء لا يستطيع أن يحب، الحمد لله، وأن يكون سعيدا في أي سن. أن يكون سعيدا! أوه! لن أكون سعيدة الآن إذا فرّق بيننا الكاهن. اذهب، خذ غنمك إلى المرتفعات، وسأبقى في الوادي، وحدي، وحدي مع الماعز التي تقفز بسعادة، لكنني لا أستطيع مشاركتها فرحتها على الإطلاق. كل هذا تعرفه جيدا، ولكن -أوه!- ما لم تعرفه من قبل هو... إنه يتركني! لا يريد أن يستمع إلي! عد يا إستييان؛ عد. سأخبرك الآن، الآن قوى الوقت والحزن ملامحي، وخداي لم يعدا يعتريهما العار.

-هناك يكمن التل حيث كنت أبكي، أنتظر، بعد ظهر ذلك اليوم، بعد ظهر ذلك اليوم كنا سنلتقي عند ضوء النار، تحت الصفصاف في فناننا. من عند ذلك الواد الصغير هناك، سمعتُ صوت جندي يناديني. كنت خائفة، وركضت، لكنه كان يركب جوادا، وأقي خلفي بسرعة جدا. أمسك بي وقفز

من على ظهر جواده وألقاني أرضا واغتصبني....
-ومنذ ذلك اليوم، كنت أخشى أن أراك، وهربت منك... وقلْتُ لك: إستيبان، لا يمكن أن أكون زوجتك الآن، ولكنني أحببتك بعد ذلك أكثر مما مضى. ومع ذلك، يجب أن تكون قد ظننت أنني امرأة متقلبة وخليعة. تركتني، أبكي، ولعنتني.

-بعد ذلك... بعد ذلك، وذات يوم، نظر إليّ والدي نظرة طويلة وقال لي:
-أنت امرأة جديدة بالازدراء؛ ألحقت العار بأسرتك ولطخت منزل والدك. اخرجي!

-وضع يده على رأسي، ولعنني.
-تجولت بلا هدف لفترة طويلة، هاربة مثل وحش بري، من واد إلى واد، من جبل إلى جبل، عارية، جائعة، بائسة. ولكن وسط حزني كانت هناك سعادة مباركة تنمو. لقد شملتني رحمة الرب، وفي طريق سوء حظي، أنعم عليّ بميلاد زهرة.... ابنتي!"

تلقّظت بهذه الكلمات بنبرة تنم عن العاطفة الحميمة والتي من المستحيل تصنعها والتي تسمعها فقط في أكواخ الهنود.

كانت أميليا تبكي وشعر جويليرمو بتأثر شديد واستغرق الكولونيل الشاحب المكتئب في تفكير عميق.

تابعت المرأة الهندية حديثها قائلة:

-ابنتي! ابنتي! لم أشعر أبدا بالإرهاق من تكرار تلك الكلمة، وعند القيام بذلك، أنسى اسمك يا إستيبان. لا تغضب مني؛ فنفس ذلك الأمر يحدث مع جميع الأمهات.

-إذن، بدلا من الاختباء، ذهبت للبحث عن عمل ولقمة العيش في المنازل القريبة.

-أشفق عليّ رعاة الأغنام في "هوايروس" وقاموا بحمايتي بينهم وأعطوني كوخا لأعيش فيه.

-قمت برعي بعض الأغنام وأنا أحمل ابنتي على ظهري كطائر وليد في عشه.

كل يوم، منذ الصباح وحتى المساء، كنتُ أنظر إليها وأصبح أكثر سعادة كل يوم.

-ولكن كلما كبرت ابنتي، بدأت فرحتي تتحول إلى قلق. أصبحت كتومة وموسوسة، وكنت أرتجف من الخوف في كل مرة يقترب فيها غريب من ابنتي لأن -أوه، إستيبان!- فالنساء الهنديات المساكين غير مسموح لهن بالاحتفاظ بأي شيء في سلام، ولا حتى أبنائهن.

-يقولون أن آبائنا كانوا أقوياء في وقت ما، وأنهم حكموا هذه الأرض وهو ما علينا دفع ثمنه غاليا الآن، وأن ذوات البشرة البيضاء جاءوا من أرض أجنبية واستولوا على الذهب الخاص بآبائنا كما استولوا على نفوذهم. لا أعرف ما إذا كان ذلك صحيحا أم لا، ولكننا الآن فقراء، ليس لدينا الآن شيئا ليخذه منا؛ سرقوا أطفالنا وجعلوهم عبيدا في مدهم.

-لهذا حميت ابنتي الصغيرة بخوف كان يكبر ويكبر كلما أصبحت أكثر وأكثر جمالا كل يوم. لم أتركها أبدا بفردا في المنزل؛ وعلى الرغم من أن الصغيرة المسكينة كانت تشعر بالإرهاق، كنتُ دائما أصطحبها معي إلى الحقول وأنا أوجه الأغنام إلى المناطق البعيدة عن الطرق التي يستخدمها الجنود والمسافرون.

-وعلى هذا النحو، اختبأت من الجميع، من تابعي المسؤولين، من ملاك الأراضي، من الكاهن. ووصلت ابنتي إلى سن الخامسة.
-بعد ذلك، في يوم من الأيام...

وصرخت المرأة الهندية ثم وضعت يديها على عينيها وانحنى نحو الأرض. كانت أميليا التي تجلس على ركبتها تستمع دون أن تتحرك، دون أن تصدر حتى صوتا، وتستمع إلى كل كلمة تقولها المرأة الهندية. وبين حين وآخر، تمرر يدها على جبينها كما لو كانت تحاول تذكر شيء ما. تابعت المرأة الهندية حديثها قائلة:

-في يوم من الأيام لم يكن هناك حشيش كاف في المرتفعات وكان عليّ النزول إلى الوادي.

-وبينما أشعر بخوف بالغ، مشيئتُ، حاملة ابنتي بين ذراعيّ، مع الأغنام،

وكنْتُ أختبئُ بين الصخور الكبيرة وتجويفات التلال.
-مرت الساعات وأصبحت المنطقة مهجورة وكانت الشمس على وشك
المغيب وكنْتُ في طريق العودة إلى الكوخ مع الأغنام حينما رأْتُ ابنتي
فجأة حزمة من زهور الأريروماس^١ على جانب الطريق. تركت يدي وركضت
وتجاهلت صرخاتي وأنا أطلب منها العودة.

كانت أميليا تقف الآن. كانت يديها معقودتين وجسدها ينحني إلى
الأمام وعيناها مثبتتين على وجه المرأة الهندية. ركزت الآن واستمعت كما
لو كان الصوت يأتي من مكان بعيد.

تابعت المرأة الهندية:

-في تلك اللحظة سمعتُ صوت نفير في مكان ما في الوادي، ثم بدأ فوج
عسكري في السير على طول ضفتي النهر.

-وبينما كنْتُ أنزل جانب التل الوعر وأنا أركض بسرعة لألحق بابنتي، رأيت
جنديا يعدو وراءها بفرسه وحملها عليه.

-وصلت إلى هناك واستعدتُ ابنتي، ولكن ما إن فعلت ذلك، قفز رجل
فوقي وجذبني من شعري وألقاني على التل.

-سقطت ولم أستطع الحركة، ولكن رأيت وجه الرجل. لقد كان الضابط
الذي اغتصبني في نفس تلك المنطقة قبلها بست سنوات. والآن هو يسرق
ابنتي، ابنتي الصغيرة المسكينة التي كانت تنادي عليّ.... أوه...."

توقفت المرأة الهندية فجأة عن الكلام. استقرت عيناها على وجه أميليا.
حدقت فيها وامتلات عيناها بشك متأملاً، ثم صرخت:

-سيسيليا!!!

تمت أميليا:

-أمي.

وفقدت وعيها بين ذراعي المرأة الهندية.

ركض جويليرمو نحوها وحملها بين ذراعيه، ولكن أميليا، التي أفاقت، دفعته
إلى الخلف وهي مرعوبة. هتفت:

١ - الأريروماس (لغة الكيشوا) هي زهور صفراء ذات رائحة نفاذة. (نوع من أنواع الزهور في
بوليفيا).

-أيها البائس المسكين! يجب أن تتعد عني. ألا تفهم؟ إنني شقيقتك؟
لطم الكولونيل بقبضتيه على خديه وركض خارج الغرفة وهو ينتحب
بجنون.

في اليوم التالي، وجد رعاة الأغنام القاطنون بالجبال القريبة جثته وقد
التهمتھا النسر عند أسفل الوادي.

النتيجة

ذات يوم، في دير "أوكوبا"، بعد فترة قصيرة، كانت هناك مراسم رسمية
لحدثين وقعا في وقت واحد. بداخل الكنيسة، كان كاهن جديد يؤدي
قسمه. وفي المقبرة، كان هناك نعش يدفن في الأرض. وفي نهاية المراسم،
أعطى الأسقف بركاته للمتربين حديثا وقال له:
-ندعو أن تنال روحك الرحمة الربانية أيها الأخ جويليرمو.
وفوق القبر وُضع حجر وعليه الاسم التالي: سيسيليا.

قام المتربن حديثا -حافي القدمين الذي تنظر عيناه لأسفل ويتكئ على
عصاه- بتقيل يد الأسقف وغادر ليضطلع بمهامه في الأراضي البعيدة.
ظل شاهد القبر بمفرده. جاءت طيور السنونو واستقرت بسلام على حافته
الرخامية ومدت أجنحتها المرتعشة تحت الشمس، ولكن حينما حلّ الليل
في الوادي وبدأت النجوم تتلألأ في السماء، كان أساقفة الدير دائما ما يرون
ظلا يتسلل خلال الممر تحت أشجار الحور ويدخل المقبرة وينحني على
ركبتيه ويبقي عينا ساهرة ثابتة على قبر سيسيليا.

جوبي أمايا قصة قاطع الطرق

١ - البحث عن الوطن الأم

بعد ظهر يوم حار في أكتوبر، كان الجانب الشرقي من السماء مظلمًا، ومغطى بسحب كثيفة تنذر بالجو السيئ وكأنه يتحطم بتكرار ومضات البرق، وفي الغرب كانت هناك بقع أكثر وضوحاً غطت السحب المحترقة من أشعة الشمس.

نتج عن اهتزاز أوراق الأشجار حفيف ممل، مثل صوت المحيط البعيد، كان الجو حارًا وخانقًا، جاء صوت صرخاتها الحادة والمملة من أماكن الاختباء في أغوار جذوع الأشجار، تلمس أسراب الطيور بكل أشكالها وألوانها قمم الأشجار بأجنحتها برفق، هربت بسرعة من الزوبعة القريبة المهيبة الموحشة.

كيف يمكنني أن أضع ضمن الكلام كل ما جال بداخلي، عبرت تلك الغابة التي كنت قد سافرت إليها في أوقات أخرى مع عائلتي المرحمة، تلك العائلة التي تم نزحها في الماضي من وطنها بسبب المصائب الشديدة الغير عادية، وقد أفناها الموت، تقلصت الآن إلى خمس سليلات ضعيفة، وهناك مسافات بعيدة بين كل سلالة وأخرى

كان كل تفكير يزعج عقلي و يعذب قلبي ثقل على عاتقي، مشيت منحني الرأس غارقاً في أفكار حزينة، عندما رفعت رأسي ورأيت أرضاً مقطوعة الأشجار في الغابة أمامي، أدركت أنني قد وصلت إلى نهاية الغابة وبداية المرعى، ذلك المكان المحاط بالتلال المكونة لشكل مدرج والذي كان يوجد فيه منزلنا القديم .

توقفت، وفجأة صدمت بأبني وصلت، خفق قلبي بشدة في صدري وكنت خائفاً بشكل رهيب من كوني وحيداً في تلك اللحظة النهائية كأن أبواب الخلود كانت على وشك أن تفتح أمامي.

نظرت بتمعن، واستوعبت - بسرور لا يمكن تفسيره، وبحزن لا يمكن تفسيره- المشهد الساحر الذي لم ينقطع أبداً لكي يظل في ذاكرتي، وقد وضع أمامي الآن في الواقع.

في هذا العالم الصغير الذي بدا وكأنه من زمان آخر، وجدت نفسي قد تغيرت ولم يتغير أي شيء حولي، مثل تلك اللحظة بالذات حينما غادرته. كانت التلال التي تحد المرعى من الجانب الشمالي خضراء ومليئة بالأزهار- كما هو الحال دائماً- بنفس الأشجار والمنحدرات الممتعة، كما اعتدت على القفز بهرح خلالها واثقاً تماماً في مستقبلنا.

في الجنوب ظلت مياه النهر تتدفق بدون تغيير بنفس الأغنية فوق مساحة من الرمال والحصى الصغيرة الغنية بالألوان، أمامي الكثير من حجارة تل صغير، ظل أطلال برج القلعة اليسوعية سليماً، كانت هناك خطوط عريضة سوداء تجاه الأفق العاصف في ضوء الأشعة الأخيرة لغروب الشمس.

وأخيراً، ظهر أمام عيني -فوق منحدر التل- المنزل الجميل الذي بناه والدي والذي قضيت طفولتي فيه، لونه أبيض ولامع، أردت الوقوف لأنظر إليه بذهول بعيون فرحة. كل شجرة، كل ورقة، كل منعطف في الطريق أيقظ بداخلي عالماً كاملاً من الذكريات المؤلمة، أمسكت ذات مرة شجرة الخروب المزهرة، فوقى الآن عش مليئ بالطيور الصغيرة؛ في ذلك الحين قضيت الليل كله أبكي وأفكر في حزن الأم البائسة، نهضت في الفجر لكي أرجعهم إليها.

على ما يبدو ينقطع الطريق المؤدي لـ"أورتيجا" بالمرعى الطبيعي الذي لانهاية له، اعتدنا الذهاب إلى هناك كثيراً جداً، وأردنا العدو بالفرس بسرعة على هذا المسطح الأخضر، انعطفنا بسرعة ودربنا حول حافلة أُمي بأحصنتنا؛ صرخت من الداخل وارتعبت من عملنا الجريء وأمرتنا بأن نكون حذرين وتوسلت إليّ أنا وأختي بأن نركب معها ونتحمل ملل حافلتها الذي لا يطاق. أم مسكينة! لم تسطع ذلك الحين توقع المخاطر الحقيقية التي تهدد أطفالها من بعيد؛ لم ترَ بعد سحابة الآلم السوداء ودموعا تسيل فوق وجوها المبتسم، كم أنت رحيم يا إلهي لإخفاء مستقبلنا عنا! من أجل ذلك كانت أُمي قادرة على الاستمتاع لأيام طويلة بالسعادة الهادئة، بالأزهار التي تخبئ الجحيم الذي التهمنا في الماضي.

قد بدأت العاصفة بأمطار قوية وغطت التلال والأرض المنبسطة بالوشاح المظلم، لكن لا قطرات المطر الكثيرة التي تضرب وجهي، ولا صوت الإعصار القوي، ولا ضجيج الرعد استطاعوا انتزاع روحي من التفكير المؤلم.

وقفت هناك دون حركة ويدي على قلبي الذي يخفق والآخرى تتكئ على جذع شجرة قديمة، انتقلت بروحي إلى الماضي؛ وتجلّى مشهد أمام مخيلتي كأنه تم عكسه بواسطة مرآة سحرية.

رأيت والدي مرة أخرى وسط أطفاله الكثيرين في الدهليز الجميل،
متجمعين حوله مختبئين في طيات رداءه، لقد نظرنا بفضول وخوف إلى
سيول المياه وأعمدة الإنارة التي بها قلعت العاصفة جزء من أشجار الغابة،
سمعت مرة أخرى صرخات السعادة التي بها رحبنا بعواصف الرياح التي
أخفت السحب تمامًا، مفسحة المجال لأشعة ضوء الشمس الأولى المنعكسة
على كل مكان وتألقت بسطوع فوق قطرات المياه المعلقة على الأوراق
الخضراء مثل ماسات التاج، رأيت كم كان كل واحد منا يريد الركض والقفز
مسرعين إلى الحديقة والحقول؛ لنرى كم عدد الأزهار التي أزهرت، وإذا
بالتطور الصغيرة تحتاج مساعدتنا لإصلاح أعشاشها المتحطمة بفعل المياه،
ونرى كم عدد الثعالب التي قتلها البرق.

آه! أين كان كل هؤلاء الشباب المشرقين الذين عاشوا في يوم من الأيام في
جنة عدن؟ تاديو! بيدرو! سيلستينا! سيفيرا! جولين! أنتونينا! تيريزا!
أجاب الصدى الكئيب من أعماق قلبي قائلاً:
-إذا أردت الإجابة انظر إلى القبر.

كل تلك الكائنات مليئة بالحياة، أشرقت قلوبهم بالشباب والأمل أمام
أبواب المستقبل الهائل والباسم، لقد عدت لأبكي من أجلهم وأنوح على
أطلال الماضي مثل نذير السوء. لم أرث عن آبائي حتى صخرة واحدة يمكن
وضع رأسي عليها، قد تبدل كل شيء بعد الاحتلال الأجنبي.

جلبني إلى الحاضر صوت فظ ويد متينة أمسكت بكتفي، كان هناك رجل
لديه خمسون عامًا، طويل وقوي ذات بشرة داكنة مشرقة وشعر أشيب،
وعيون سوداء وحاجبين كثيفين، وقف بجانبني. قال وهو منخدع بردائي:
-سيدي، هل تستمتع بشرب الخمر؟
أجبت قائلاً:
-أنا، سيدك؟!

ارتعبت من المفاجأة وشعرت أن قلبي الرقيق كان يخفق بصوت عال تحت الملابس والمسدسات التي كنت أزين حزامي بها بطريقة بطولية. أجاب قائلاً:

-نعم، منذ أن كان هناك مكانين فقط من منزلي للاختباء، اخترت الاحتماء تحت الشجرة كأنك كنت في صحراء "أرابيا".

أوضحت لي كلماته ولهجته بأنه كان أسبانياً، إنه المالك الجديد للأرض. وقد سببت لي كلماته الألم. قال:

-منزلي!

وهو يشير إلى المنزل الذي نمت فيه على سريرى عندما كنت طفلاً، وجدت نفسي مرة أخرى محروماً من ميراثي وشعرت كأن حوائط المنزل كانت ترفضني، قائلة: "أخرج من هنا، نحن لم نعرفك!".

عندما ذهب إلى المنزل، انطلقت أصوات جميلة ومرحبة تبعد أفكارى الحزينة، جاءت سيدة العائلة لتقابلني؛ استقبلوني ورحبوا بي ببساطة وود وخففوا من انزعاجي بذلك الاهتمام الرقيق وبذلك المودة الواضحة التي جعلتني للحظة أتساءل إذا كان الماضي قد كان حلماً فقط أم لم تكن تلك العائلة عائلتي.

آه! إن المغترب المريض اليتيم، والمسافر هما فقط اللذان يستطيعان تقدير كم أن نفوس رفيقاتي نبيلة ومعطاءة وحنونة، يجدهن الرجل القوي متعجرفات ولا يمكن ترويضها مثل الجنة المحرمة في الكتاب المقدس؛ لأنهن يدرن ثروة قلوبهن لمساعدة المعدم.

ميزت الملائكة الحارسين لجنة عدن بحجارة بشاهد القبر، وقد أقلعن عن القتل لفترة طويلة، ليس هناك شيء يقارن مع هبتك الإلهية، مع تسكك السامي، اطرح مصيبتك جانباً تعزية لهؤلاء اللواتي يعانين؛ فقد

تدمرت الأمهات والزوجات، تخدم صرخات حزنك لتمد السجين بكلمات
الأمل الجميلة على الرغم من أنه منفي وبدون مأوى، يزور الموت مرة
أخرى ساحة المعركة لنتزع من مخالب النصور وتخدم جروحهم بضمادة
حضنك العفيف، قد يباركك الرب ويحفظك في سره ليخلصك من الوطن
الأم الممشوم!¹

لقد اهتم من استضافوني بكل شيء كنت أحتاجه، تركوني بمفردي في
الغرفة التي كان يمكث فيها الزائرين، كل شيء كما كان من قبل، فهناك
بعض اللوحات التي تخص أختي معلقة على الحوائط، من بينها رأيت عملا
فنيا ممتازا تم رسمه بريشتي، كانت ملاك حارس، لم تكن مرسومة بمهارة،
فقد حاولت أن أقلد فرشاة أختي البارة.

أثناء مشاهدي للصورة، أعجبت بقوة الحوائط التي لمستها والتي حمتنا
من المنعطفات السماوية للجمال الغامض والحزين وتعبير الحزن الذي
لايوصف والذي ابتسمت به المسافرة البائسة.

آه! يا للاختلاف بين هذه الأوقات والحاضر! يا للاختلاف بين الفتاة
بشعرها الأشقر وخديها المتوردين، كانت تتحدث بعنف، وهي ترسم هذه
الصورة والمسافرة الشاحبة المتعبة والمریضة يُنظر إليها في صمت!

عندما توالى الأشياء في مخيلتي، من ذكريات الطفولة إلى ما تلاها من
ذكريات، مرت عاصفة ضربت الجبال الريفية البعيدة في الغرب. ذهبت إلى
النافذة التي فتحت لتطل على الريف وشاهدت الليل يحل والقمر يرتفع
أكثر فوق جبال "كلورادو".

¹ - ملاحظة الكاتب: تم كتابتها في ١٨٥٠

كل شيء خارج المنزل كان هادئاً ومطمئناً؛ فقط كانت هناك أصوات خوار البقر البعيدة وتنقيط المياه كأنها كانت تسقط قطرة قطرة من قراميد السطح، جاء النسيم الرطب بالعديد من الروائح التي جعلت الأشجار الكبيرة المزروعة قريباً من النافذة تتمايل برفق والتي تحف أوراقها برفق؛ بدا ظلالها المتنقل كأنه يلعب مع ضوء القمر في ظلمة الغرفة.

قطع الخدم ذلك المشهد الساحر عندما دخلوا بمصابيحهم، عندما بقيت بمفردي مرة أخرى تركت غرفة الترحيب مغلقاً الباب خلفي بحرص، نزلت إلى الدهليز، نزلت على الدرج الأمامي ووصلت بسرعة إلى الممر المصفوف بشجر الخروب المؤدي إلى النبع والأطلال. مشيت كأن هناك شخصين بداخلي، الأول ابنة هؤلاء المقيمين بالغابات الريفية، والثاني المسافرة من بلدة بعيدة والتي جاءت لزيارتهم، وكنت أحكي لنفسي قصة تلك الأماكن التي عرفتُها جيداً، كل شيء من كهف النمر إلى منزل الغزالة، من الشجرة الكبيرة الضخمة إلى ورقة العشب الصغيرة، علاوة على ذلك قلت لنفسي - كأنني أقنعها بأنني لم أكن أحلم- هناك شجر الكمثرى الشائك الذي تخبئ فيه هذه الثعابين بيضها، إنها تصفر كما أنها تقلد تغريد الطيور للدغ يد أي أحد تصل يده دون قصد إلى غور جذع الشجرة ليسمك بالطائر، حتى يوجد هناك عرين الثعلب وبقره عرين ابن آوى^١.

ذات مرة، تسلقت قمة شجرة الكمثرى للهرب من ثور ضخم قد استدعيتة بمنديل أحمر؛ أجبرني على البقاء فوق الشجرة لنصف يوم كما أنه نبش في الأرض وتذمر بغضب... ما هذا الصراخ الحاد القادم من أعماق الغابة؟ آه! نعم، إنها أغنية "باكوي"، ذلك الطائر الليلي نادراً ما تسمع له صوتاً ولم يره أحد، إنه معروف فقط بأغنيته وبالأسطورة الرائعة المرتبطة به.

١ - ابن آوى: حيوان بري يشبه الكلب يعيش في آسيا وأفريقيا ويأكل الأجزاء المتبقية من الحيوانات الميتة.

القصة هي أنه كان هناك ذات مرة راعيان من الغابة باسكوال وماريا أحبا بعضهما البعض كثيرا، كل منهما كان يرافق الآخر، ينطلقان بقطيعيهما بحب للمرعى المزدهر أو للغابات الكثيفة، لم يكن هناك أحد في المنطقة كلها سعيد مثلهما، لكن باسكوال كان غيورا جدا وكان يشك حتى في ظل شجرة البلوط.

ذات يوم عندما كان ذاهباً لمقابلة محبوبته التي كانت تستريح بجانب الينبوع، اعتقد أنه سمع صوت شخص ما عندما اقترب، ربما كانت غزالة جاءت لتروي ظمأها، لكن باسكوال أصبح كئيبا وقليل الكلام، نظر إلى محبوبته نظرة طويلة، غريبة وحادة كأنه أراد بكل الطرق رؤية ما بداخل روحها، ماذا رأى في عيناها؟ عيون العشاق كثيرا ماتفشي الأسرار! فيما بعد أخذ ماريا إلى الغابة البعيدة حيث أراها زهرة كبيرة جميلة ورائعة على قمة شجرة طويلة جدا، إنها نباتات البتلة التي أسرت ألوان قوس قزح، وضوء الشمس الذي جعل قطرات المياه منذ الصباح ندى متألقا كالنجوم في كأسها العريض.

أحبت ماريا الأزهار، صاحت بإعجاب واندفعت سريعا نحو الشجرة وبدأت تتسلقها، عندما وصلت إلى القمة مدت يدها بشراهة لتمسك بالكنز المنشود، لكن الزهرة الجميلة مثلما جاءت طليقة من ساقها الذي أمسكها، تحولت إلى آلاف الأزهار الصغيرة التي تم ربطها معا بيد بارعة وصارت في يد الفتاة.

اعتقدت ماريا أن محبوبها قد أراد لعب مزحة بسيطة معها، أو يختبر خفة حركتها ورشاققتها؛ لذلك نظرت إليه بابتسامة، لكن ابتسامتها جمدت كلامها وعيونها المصدومة التي تنظر بخوف إلى الشجرة التي قد تسلقتها، كانت تنظر إليه من مكان عال جدا، رأت أن كل الغصون التي قد ساعدتها على التسلق قد اختفت، وكان جذع الشجرة أملسا ومخيفا.

نادت باسكوال، لكن الإجابة الوحيدة التي تلقىها كانت الصدى، تكرر اسم باسكوال بسخرية شيطانية.

بكت الفتاة التعيسة طوال الليل، وهي تنادي باسم حبيبها بين تنهدات، لكن عندما أشرقت أشعة الفجر الأولى فوق الغابات، هجرت الأشجار واختفت. في الماضي، كان عندما يبسط الليل وشاحه الحزين فوق كل هذه الأراضي، كان صوت حزين لإمرأة شابه تنادي بأسم حبيبها مسموعا.

سمعت شخصا يصرخ قائلاً في اللحظة ذاتها التي كنت على وشك وضع قدمي فيها على العارضة المستخدمة لعبور الينبوع:
-مريم المقدسة، أم الرب! إنه ذاهب ليعبر الجسر!

نظرت ورأيت امرأة عجوزا زنجية قملأ الجرة بالمياه، تركتها بجانبها وتسلفت المكان الذي كنت فيه، اقتربت مني باهتمام أمومي - ذلك الاهتمام الذي تمنحه امرأة عجوز للشباب- وضعت يدها على كتفي، نظرت حولها بارتياح وقالت لي:

- إذا كانت نيتك هي الذهاب إلى الأطلال، سيدي، باسم الرب لاتفعل ذلك.
- لكن لماذا؟

- ماذا! أنت لا تعرف ؟

- لم أعرف!

قالت وهي تشير بالصليب على جسدها:

- أنت لا تعرف أنه يتجول بين أطلال القلعة كل ليلة؟

- ومن يكون هو؟

اقتربت المرأة الزنجية مني تعبر ملامحها عن فزع وقالت في نبرة مرعبة:

- إنه... من يحضر الأرواح، آه! سيدي إذا كانت حياتك تهلك، لاتذهب هناك.

وقامت بعمل إشارة الصليب عليها للصلاة وهي خائفة جدا، تركت المرأة

الزنجية جرة المياه ومشت في الظلام.

جعلني خوف المرأة الزنجية أبتسم، وكانت قصتها عن مستحضر الأرواح واحدة من القصص المخيفة التي كان الناس في المنطقة يحكونها عن القلعة، عندما عشت هناك مع عائلتي، قبل موجة الحروب الأهلية المدمرة التي جعلت المنطقة أطلالا، سمعت امرأة عجوزا تحكي قصصا مشابهة تحت أشجار الأكواخ المجاورة عندما كان القمر بدرا.

كانت القلعة بناءً يسوعيا، واحدة من تلك القلاع كانت تحت اسم خاضع لـ رديكسيونيس^١، بني نظام لويولا في نهاية حكمه. بعد رحيله، تم مصادرة القلعة وثرواته بالإضافة إلى رقعة الأرض الواسعة التابعة له، وحينها اختفى ملاكها كأنهم قد تم جرفهم بواسطة أربع رياح، أخذ الصيادون الذهب الذي قد جمعه اليسوعون في معاقل السلطة في الأمريكتين إلى أسبانيا. كان هناك رجل مسن يعيش أثناء تلك العصور ودائماً ما كان يهز رأسه ويبتسم بمكر عندما يسمع عن المصادرة، كان خادم اليسوعين عندما كان طفلا وظل يعيش ملتصقاً بحوائط القلعة كالبلابل القديم، صاغ في نفس الوقت قصة غريبة والتي كانت بمثابة هذيان شيخوخة وبعض بقايا الحقيقة التي تذكرها، وأحيانا أراد روايتها للأطفال والخدم في المطبخ. كان يقول:

-قد تم تحذير يسوعيين الإبراشية قبل طردهم بساعات قليلة؛ لذلك عقدوا مجلسا سريا مثل باقي نشاطات تلك الكائنات الغامضة في الحياة، عندما خرجوا من المجلس، أغلقوا كل أبواب السياج الثاني الذي كان بمثابة المنطقة التي تحتوي على الغرف التي كانوا يعيشون فيها.

١ - الرديكسيون: تشير إلى قرية أو مستعمرة الهنود في جنوب أمريكا التي أغتصبت وتم السيطرة عليها بواسطة اليسوعيين، كان اليسوعيون في أمريكا اللاتينية منذ ١٥٧٨ حتى تم طردهم بواسطة مرسوم.

فيما بعد عندما فتحت الأبواب مرة أخرى ودخل الخدم ليقدموا العشاء، وجدوا الفناء المملوء بالنبيذ والقبو الذي يحتوي على البراميل الكبيرة فارغين تماماً. لا أحد أبداً يعرف ما الذي حدث لتلك البراميل، لكن لا أحد غير الآباء يعرف أين كانت تقع أنفاق القلعة الموجودة تحت الأرض.

عندما وصل إلى تلك النقطة، كان قد ترك العنان لخياله وبدأ التحدث بغير عقلانية، قائلاً:

-عندما نام ملاك القلعة الجدد بطمئينة خلف الأبواب المغلقة، ألقى الملاك الأصليين اثنين اثنين. عبروا المقبرة بصمت تام لدرجة أن نهايات أثوابهم لم تلمس المنصات وأزهار الحب المزروعة هناك، ثم قرعوا الباب الكبير الضخم ثلاث مرات، ورداً على تلك الإشارة رفع القس العام للنظام الذي كان نائماً منذ القرنين الماضيين تحت الضريح- رفع حاجزا من الرخام الذي يغطيه ببطء وبإشارة مهيبية ذهب لفتح باب الكنيسة للكهنة، ثم قادهم ونزلوا الواحد تلو الآخر إلى القبر حتى شروق الشمس، لكنهم عادوا اثنين اثنين في المساء التالي قبل اختفاء الضوء من الأفق، ورجع الرجل الميت بعد إغلاق الباب إلى مقبرته.

حكى الرجل المسن هذه القصة طوال الوقت، منحنيا في المطبخ بيده المرتعشة فوق النار، استولت الإثارة الشديدة على الخدم، وفي الصباح التالي ساروا على الأراضي وضربوا حوائط كل زاوية في القلعة بحثاً عن الباب الذي يؤدي إلى الأنفاق التي توجد تحت الأرض - بعبارة أخرى- الذي يؤدي إلى البراميل المطلوبة والذهب الذي حصلوا عليه.

وضع والدي حداً لتلك الأبحاث محذراً إياهم بشدة؛ فقد أحب القلعة ليس فقط بسبب تاريخها وتراثها، لكن أيضاً بسبب المكان الرائع التي تحتلها على قمة حجر تل صغير، تطل على المشهد الأكثر امتعاً والذي لم تشاهده عيني أبداً من قبل.

لم يغير فيها أي شيء واهتم بها بالغ الاهتمام؛ فعندما اشترى المبنى الجميل من الدولة، خطط للاستقرار والراحة هناك بعد حرب الاستقلال الطويلة، لكن الله لم يرد له ذلك، أصبحت القلعة الآن من الأطلال، من الأراضي التابعة لشخص غريب، ولم يرَ أبداً المحارب القديم حتى ولو يوماً واحداً من سكون الفجر حتى اليوم الذي أراد أن يرتاح فيه من أجل الخلود التام في قبره تحت سماء غريبة بالنسبة له.

تسلقت بتلك الأفكار التي تتسابق في عقلي حجارة مرتفعة جداً منحدرية إلى القمة دون أن أدركها وفجأة وجدت نفسي عند باب المقبرة. استراح الموتى هنا في المكان الذي أحببته وبكيت فوقه، أثار القمر الفضي مقابرهم، زادهم طمأنينة.

هنا ترقد أوروبانا تلك الفتاة التي تركها الأب لي أثناء سكرات الموت؛ إنني فتاة مثلها، أخذتها على ذراعي الذي عليه ماتت بسرعة لتذهب للسماء.

هذا هو مانويل ابن أختي الجميلة الذي مات من الحزن لأن ممرضته تركته، وهنا قبر إنريكا المدللة الجميلة القاسية.

ذات يوم، قلب الرب الطاولة عليها ووجدت نفسها مقادة نحو العاصفة نفسها التي قد أخذتها كوسيلة لتعذيب الآخرين طوال حياتها؛ لذلك سنحت لها الفرصة عندما حاكها الحب على سبيل السخرية - والذي به قد خدعت كل شخص - تيقظ في قلبها لبسبب حقيقي وثم توقفت عن عبثها بالحب؛ أصبحت خجولة وشكت في قوة جمالها، كانت معها الحق عندما فكرت في ذلك لأنها أحبت شخصاً قد أحبها فقط عندما عبثت به، لكنه هو من رفضها بازدراء في اللحظة التي أصبحت فيها تستحق أن تحب.

كان رجلا جيدا حنونا ومعطاء، كان يمزق القلب الذي أحبه بلا رحمة وهذا تناقض كبير، بينما القلب المسكين لا يمل من حبه المقدر وقد يشناق أكثر وأكثر لأنه تم رفضه بعد كل خدعة جديدة، بعد كل جرح جديد، كان يتقهقر وهو ينوح، لكن بعد ذلك ينسى كل شيء ويقبل باسماء اليد الذي جرحته، ومن ثم يعود إلى درب الألم.

كنت طفلة عندما ساعدت ذلك الشاب بالثقة المتهوانة على إلهامي، كنت قادرة على رؤية الظلام الذي كانت روحه غارقة فيه وبحثت بدهشة الطفولة الخجولة عن الزوبعة التي دمرته، عن تلك المشاهد المرعبة أو التي بالنسبة لي غامضة، عن نشوات الحب التي يريد فيها قلب الشخص أن يقتل ويصر على العيش، قد نظرت حولي وسألت نفسي عمن قد تسبب في مثل هذا الدمار المخيف لامرأة شابة جميلة غنية تحب وتُستغل من قبل كل شخص.

عندما أظلمت السنوات والحزن ملاً الأفق، وتحولت أغاني الطفولة السعيدة إلى تنهيدات، عادت صورة تلك المرأة إلى عقلي، رأيته وكأنني رأيته مرات عديدة من قبل شاحبة ومرتجفة، شعرها الأسود منسدل على أكتافها، وظهرت بابتسامتها الجميلة المرسومة على شفيتها لتقل لي: -انظري هناك، إنني مطمئنة جدا الآن! إن الوسادة التي ارتحت عليها لا تعرف الأرق ولا الكوابيس، لكن أنتِ الآن تعرفين سر ألمي، أخبريني، أليس حقيقيا أنه من المخيف أن تقولي: أنا شابة، أنا جميلة، روحي مليئة بالإحساس المرهف، أنا قادرة على تبادل الحب والسعادة؛ ولا يزال اليأس يعيش في صدري وأشعر به يلتهم قلبي؟ عندما أتيت في أوقات أخرى لزيارة تلك المقابر بكيت كثيرا؛ أردت أن يوقظ بكائي أوربانا، ومانويل وانريكا، لكنني الآن أحسد صمتهم الأبدي؛ حتى إذا امتلكت القوة لإعادتهم مرة أخرى للحياة، سأقول لهم: ابقوا، ارتاحوا في سلام!

غادرت المقبرة ومشيت في الكنيسة التي انهارت قبتها، دخلت قداسا كبيرا هائلا من الأطلال.

ساد صمت رهيب حولي، كان يقطعه فقط صيحات بعيدة، وحفيف رياح الليل في الدهاليز المدمرة، وحفيف عشب المقبرة النامي بكثرة. تألق ضوء القمر الشاحب والغامض عالياً فوق المنظر الكئيب الذي يشبه نظرة رجل أثناء وفاته ويلقي فوقه سحرا رائعا جعل خيالي يركض على نحو جامح.

بدأت أشك إذا كنت أنا الظل أم لا ذلك الظل الذي ترك مقبرته لمدة قصيرة عندما أتيت مصحوبة بظلام شديد لزيارة مكان ولادته، لكن خفقان قلبي السريع جلبني مرة أخرى إلى الحاضر وجعلني أشعر بأنني بقيت وقتا طويلا في وادٍ من الدموع حيث كانت كل ساعة هناك يرافقها حزن جديد، وكل شيء نتأمله يرافقه ذكرى السعادة الضائعة.

اقتربت من البرج الأبيض الرائع المرتفع فوق أطلال الأبنية المتهمة وجلست في ظلالها مثل الصديقة القديمة التي ظلت بائسة في الخلف وسط الأطلال، بكيت بشدة من أجل منزل آبائي المتدمر والوحيد، لم أعرف كم بقيت هناك على هذه الحالة دون حركة بعقل غارق في التفكير في الماضي.

قد أخرجني صوت خطوات الأحصنة من تفكيري العميق، توقف أمامي فارس قوي ذو مظهر جيد، كان مغطى تماما بمعطف كبير، تلمس طياته العريضة والرائحة قدميه التي كانت ترتدي حذاء، كانت ملامح الرجل مختبئة تحت لحية بشعر أشيب تبلغ صدره، كانت القبعة الصغيرة جدا لا تغطي شعره الكثيف المتموج، أمسكت يده اليسرى لجام فرسه النشيط حينما كانت تمسك يده اليمنى مقبض خنجر طويل. رأيت مثل تلك الشخصية الكئيبة قريبة مني، لاتتحرك ولا تتكلم في ذلك الوقت من الليل

ووسط تلك الأطلال في أي وقت آخر، جعلني إحساسي القوي الذي كان مكبوتاً بداخلي في مأمن من كل خوف.

نظرت مباشرة إليه وكنت على وشك أن أسأله ماذا كنت تفعل في هذا المكان في تلك الساعة المتأخرة، وكان ذلك عندما سألني نفس السؤال بصوت قوي وعميق وكأنه انفجر من شعر الوجه الكثيف.
أجاب:

- إنني مسافر وكنت أزور تلك الأطلال.
- ألم يخبرك أحد أن تلك الأطلال لي في الليلة؟ ألم يحدثك أحد يا سيدي عن ميغل سيد الفرس؟

عندما سمعت ذلك الاسم، وضعت يدي بسرعة على فمي لمنع صرخاتي التي كانت على وشك أن تنفجر من صدري.

ميغل سيد الفرس! واقف أمامي ولم أتعرف عليه، صديق طفولتي، الرجل الذي كرس حياته وروحه لأقاربي ولي بعطف جم لا يمل ليس له مثيل، إن تذكر الخادم المخلص لم يترك قلوبنا أبداً ولا محادثتنا في المنفى، دائماً كان يتم ذكر اسم ميغل، نتذكره كشخص مثالي، نتذكر بهمة إخلاصه لنا، منعته دموع السعادة والحزن عن الكلام، لكنه نعت صمتي بالخوف وفورا حاول أن يطمئني ومد يده وعرض علي سيجارة كرمز للمصادقة مع رجل مثله.
قال لي بنبرة حزينة:

- صديقي الصغير، لاتخف، هناك ما هو أكثر لدى ميغل يقودك إلى الثقة، أريد امتلاك هذه المنطقة في الليل لأستحضر الأشباح كما يقولون هناك.
أضاف باحتقار مبنياً أسنانه البيضاء في الظلام واستكمل قائلاً:
- هذا صحيح! تأتي الأشباح العزيزة على قلبي لزيارتي وسط تلك الحوائط المدمرة.

وابتسم لي بحزن، جعلني أنذكر الأيام البعيدة، البعيدة جداً عنا.

إن ميغل غريب جداً، على مدار خمسين عاماً يتنكر قلبه ويمنع دموعه من النزول من عينيه، ولم يشعر بحاجة كبيرة للترفيه عن نفسه هذه الليلة. ترجل وأتى ليجلس بجانبه على بلاط العمود المتهدم، ظل صامتاً لوقت طويل، كان كوعة متوكتاً على ركبته، يده ضائعة في لحيته الكثيفة، ولم أقل أي شيء أيضاً، نظرت من منطلق شخصية الصديق العظيم إلى المشهد البديع للطبيعة من حولنا.

جلب نسيم الليل لأذني خريبر مياه النهر الذي يشبه صدى أوقات الماضي، الوقت الذي كان ميغل نفسه يجلس بجانبه دون الاعتراف لي بأنه آت في الليل لرؤية الأطفال، وبعد أن عانقنا وأعطانا الأزهار والطيور التي جلبها قال لنا:

-إذا لم أذهب الآن سيغرق فرسي، أنت لم تسمع أن النهر سيكون عالياً بعد الآن؟ إنه موسم الفيضانات، إن لم أعد قبل غياب القمر، لن أقدر على إيجاد مكان عبور النهر. لذلك تركناه يذهب.

كانت الأشياء المحيطة بنا كما كانت من قبل، إننا محاطون بنفس التلال، نرى الجبال ذاتها موضوعة ناحية الأفق، تلمع نجوم الليل فوقنا بنفس اللمعان، نفس النسيم الدافئ المعطر الرقيق يلمس وجوهنا، يجلب حفيف الغابات البعيد لأذاننا.

كان المشهد ذاته، لكن هناك ممثلين اثنين الآن، عندما أتيا ليمثلا حل العقدة للمأساة الحزينة، وصل رجل قوي وطفل مبتسم رأسهما محنيتان، واحد تحت وطأة السنين والآخر تحت مخالب أحزانه.

بدأ ميغل حكايته بسؤال مثل كل أهل المنطقة، سألني:

- سيدى، إذا كنت ابتعدت عن التعامل مع البشر بسبب حياة الجريمة، إذا تم رفضك ولعنك من قبل كل شخص، ووجدت رجلاً يأخذك بعيداً

من الحالة التعيسة التي وجدت نفسك عليها ويرجعك إلى الحياة مرة أخرى بتقديره الكبير لك ويريحك ب صداقته، ويحميك تحت سقفه، حتى يأمّنك على حماية أطفاله، وإذا أصبحت ذات مرة معتادا على حياة الشرف والسعادة المطمئنة، وفجأة تم أخذ ذلك الصديق، تلك العائلة، ذلك المنزل منك، وتركوك وحيداً ومعزولاً كما كنت من قبل، ماذا ستفعل؟

- سأبكي لوقت طويل وسأشتاق لذلك الصديق وثروتي المفقودة، لكن قد أكون سلمت نفسي لإرادة الرب لأنه هو الذي يحدد سعادتنا وكم من الوقت تدوم.

قال ميغل وهو ينظر إليّ باحتقار:

- أنت تتحدث مثل المرأة، سيدي.

وقال وهو يلمس صدره:

- يوجد هنا قلب مستسلم. يوجد هنا قلب يطلب الثأر وذراعان قويتان تستطيعان تنفيذه! أيها الطفل، الاستسلام هو فضيلة الجبناء، يقول الرب: أنا سأساعد من يساعد نفسه، تذكر ذلك، لتكن قادراً على استخدامها في المستقبل. من جانبي، لم استسلم، كان صديقي ميتاً وقد تم نفي طفله، وقد تم ملاحقتي، لكن شجاعتي لم تتذبذب. وجدت عدوه، لقد كنت قادراً على أن أقرب منه، وبعد ساعات قليلة تجمع سرب كبير من الطيور حول الجثمان، تأملت في رهبة الثقب العميق الذي تركته رصاصة بندقيتي في صدره.

- هل قتلتته؟!

- قتلتته بإخلاص، سيدي. لم يقتل ميغل أحداً، بفضل ذلك الرجل الذي كان يرقد هناك في قبره والذي تحول إلى ميغل الصادق والمستقيم، الرجل الذي ذات مرة قد كان الشرير جوبي أمايا.

صرخت قائلاً:

- جوبي أمايا!

تذكرت برعب أجزاء من الأسطورة الرهيبة، بدا لي أن شخصية ميغل نمت

وأخذت أبعادا رهيبة أمام عيني.
أجاب بنبرة حزينة ومتزنة قائلاً :

- نعم، كنت ذات مرة قاطع الطريق الذي كان من المخيف جداً تذكره،
هذا الرجل الذي أمامك هو من كان يهز سرير الأطفال بحنان وسهر أثناء
أحلامهم الجميلة، كان هلع المنطقة وكابوس القانون.
استكمل حديثه وهو باسط يده نحو مكان الراحة الأبدية قائلاً :
- أرايت تلك المقبرة؟ قد أرسل خنجري الكثيرين إلى قبورهم هناك، لكن
قبل أن أخبرك بالجزء الثاني من حياة جوبى أمايا، دعني أخبرك البداية.

قصة قاطع الطريق

نظر ميغل بحزن إلى الأفق الواسع كأنه كان يبحث هناك عن بعض
ذكريات الماضي المؤلمة، ثم فاجأني بابتسامة مخيفة ومريرة، اقترب أكثر،
واستكمل حديثه قائلاً :

- أنت سيدي، أنت الذي صنعت القوانين التي تقرر العقاب الذي يحكم
على المجرم بالموت، لم تفعل ذلك قبل فرض العقوبات عليه، فكرت في
الأسباب التي قادت الرجل إلى تلك الدرجة المخيفة، عندما يخبرك النائب
العام بقصة المجرم، يقدمه في قيود أمامك في محكمتك، من المكان الذي
سترسله أنت إلى السقالة، أنت راضٍ عن قول: "إنه ولد شرير".

- آه لحسن حظ البشر، ولمجد الرب الذي خلقه! إن ذلك ليس حقيقياً، إن
الطيب والشرير يعيشان بداخلنا؛ فملكهما الاثنين منذ الطفولة لم نختر
من بينهما واحداً، القدر يختار لنا ويهيء الظروف، نجد المصير السيئ أو
السعيد يلتقي بنا أسفل درب أو آخر، دعني أعطيك مثالا. هل ترى هناك
على جانب الصف في الطريق، ذلك الجبل الذي انشق عمودياً من قمته
والجرف الهائل الذي يشع لونا أبيضاً في ضوء القمر مثل قبة مدينة رائعة؟
كان هناك ذات مرة في قاعدته في وسط الوادي المبهج في ظل البستان

كوخا واحدا فقط عرف الأمن والفضيلة عاشت فيه امرأة عجوز وشاب، كرسَت المرأة العجوز حياتها كلها لمحبة الرب وولدها، أحب الولد والدته حتى اليوم الذي تركته فيه وعادت إلى السماء، وجد الشاب نفسه وحيدا، كان ذلك أول حزن في حياته، لكن أحزان الشاب تشبه السحب بعد الظهر؛ تنيرها الشمس المفعممة بالأمل وتمنحها سحرا فاتنا ولامعا. ظل يبكي دون توقف على فقدان والدته، اشتاق الشاب بحنين إلى الروح المتحمسة لكونه محبوبا، ذات يوم جاء من جانب رجل يواجه الموت، ألقى نفسه أمام الخطر الذي يهدد هذا الرجل، وأنقذ حياته، وبالتالي صنع أول صديق له، لكن بعد ذلك شعر بمكان فارغ في قلبه، بحث حوله عن محبوبة، عن محبوبة مثالية تستطيع أن تحتل قلبه، وجدت عينه تلك الصفات في امرأة. صرخ ميغل بصوت مليئ بالشغف قائلاً:

- ناتاليا!

استكمل حديثه بنبرة حزينة:

- ناتاليا!

كرر بتنهيدة طويلة ممزقة من قلبه:

-ناتاليا، آه! لماذا ظهرت أمام عيني جميلة جداً وعفيفة، وفيما بعد سقطت من المقام السامي؟ لماذا أعطيتني الأمل؟ أسقط ميغل رأسه في يده واستغرق في تفكير عميق.

قلت محاولاً جذب انتباهه وتغيير جو القصة الحزين، لم أعرف لماذا كنت خائفاً:

- آه! أنت الشخص الذي عاش في ذلك الكوخ والذي أحب ناتاليا؟
أجاب:

-نعم، كنت أنا ذلك الولد المطيع والمحب، ذلك العاشق الذي يحب الجمال الجوهري، الجمال القادم من الروح، كنت أنا.
ونظر إلى وجهي، ظل مخدوعاً بمظهري الكاذب:
-أنت لاتزال صبياً صغيراً جداً على أن تفهم قوة الحب الأول لروح قوية

كانت ناتاليا تنتمي إلى عائلة شهيرة، كان والدها رجلاً قوياً وجد من سموحه فكرة للجرأة المطلقة ليغض عينه عن جريمة ابنته؛ ومازلت أحبها، وعلى الرغم من أن كل شيء كان يبعدنا عن بعضنا البعض، كان الحب المشتعل في قلبي كبيراً وقد أخبرتها بحبي وأحبتي... هل تحبني؟ آه! وبالشك الذي قد اعتادت عليه روحي والذي يشبه نيران التل كنت أسأل نفس السؤال الأحمق لكل الخلق. هل تحبني؟ نعم! يجب أن أصدق؛ لأن معرفة ذلك يعد فقط شعاع الضوء يشرق وسط ذكريات روحي الكثيرة، نعم إنها تحبني، إذا لم تكن تحبني، لماذا أتت لمقابلتي في أعماق الغابات متحدية الليل المخيف؟ ماذا كانت تقول أيضاً كل تلك النظرات الطويلة العميقة عندما نظرت إلى وجهي، وشفتي وعيني، استراحت رأسها في حضني وصدرها على ركبتي؟ ماذا كانت تفعل أيضاً تلك المداعبات العفيفة المتوهجة، قلبي يرتجف حتى الآن تحت جليد كل تلك السنوات؟ نعم، إنها تحبني وثملت من هذا الحب، نسيت كل شيء: العالم، ذكرى والدتي وحتى الرب، كانت عالمي، جنتي، إلهي، كم أشرقت أيامي، وأنارتها ذكرياتها! كم هي جميلة تلك الليالي التي جلبتها فيها إلى ذراعي!

عندما قال هذه الأشياء، كان صوته عذبا، واختفى من وجه آثار تلك السنوات العديدة التي قد مرت، توهجت الآن كأنها مازالت تعكس ضوءاً من أيام الحب.

ووقفت أمامه أنظر بإعجاب إلى الرجل الذي يمتلك تلك المشاعر العميقة، لكنه أيضاً يتسم بالهدوء الشديد، قادر على التفحص بنظرة باردة لفيلسوف وأعماق مرعبة للنفوس.

عبس وجه ميغل فجأة، وبدأ بريق حزين في عينيه وانكمشت شفاته
بابتسامة ساخرة، حاكي نفسه بسخرية وبدأ يكرر كلماته بقول ساخر مرير:
- إنها كانت عالمي، سمائي وإلهي! آه! آه! آه!

تكررت ضحكته الكثيفة والمشوومة بين الأطلال، استكمل قائلاً:

- ذات ليلة، كان قلبي يركض، وينادي عليها بشوق أكثر من أي وقت،
لكن ناتاليا لم تأتي، ارتفع القمر فوق قمم الأشجار، وفي منتصف السماء
مازلت أجد نفسي وحيداً. قلت لنفسي: إنها ميتة، هل هناك شيء آخر
يمنعها عني غير الموت؟ ألم تأتي لتبحث عني حتى عندما كانت في حالة
جيدة أو عندما اضطرت إلى السير أثناء الزوبعة التي سببتها الأعاصير أو
أثناء صواعق العواصف؟ ناتاليا ميتة! وارتعشت برعب شديد وتوجهت
مباشرة إلى البيت الثري الذي كانت تعيش فيه. عندما وصلت هناك رأيت
أضواءً داخل المكان واعتقدت أن كل ضوء من تلك الأضواء كان شمعة
حزينة تشتعل حول نعلها، كنت معمياً بذلك الهذيان الغريب، ركضت عبر
المرعى كالمجنون، تسلقت السياج الطويل بسرعة، وجيئي غارق في العرق
البارد وشعري واقف، نظرت أمامي بتمعن، وصلت إلى أعلى إحدى النوافذ
التي يتدفق منها الضوء الساطع في ظلام المدينة، رفعت نفسي بأشرطة
لامعة ونظرت إلى الداخل بعيني المتلهفة.

كانت ضحكته ساخرة وحادة وباردة كسيف ذي حدين:

- آه! آه! آه! إن المرأة التي أتت لمقابلتي متحدية الأعاصير وصواعق
العواصف القوية، المرأة التي قضت الليالي مستلقية في حضني وداعبتني،
الإنسانة التي صدقت موتها كانت لا تزال حية بداخلي، جميلة، شابة،
مبتسمة وتلبس إكليلاً من الورد في وسط دائرة مشرقة، بجانبها يوجد رجل
كانت قد أعطته يدها، أقسمت بأنها تحبه للأبد، وكان أمامهما كاهن
يبارك يمينهما.

قطع ميغل حكايته، ونظر إلي ملياً، وقال لي بابتسامة كئيبة:

- ألن تسألني من كان ذلك الرجل؟ إنه كان الشخص الذي أدعى نفسه صديقي، الشخص الذي أنقذت حياته.

عندما سمعت قصة الخيانة الرهيبة، اندفعت الذكريات المؤلمة بداخلي، حرقت وفطرت قلبي، لقد استيقظت ذات يوم على الحقيقة المرعبة، اليدان اللتان قد أدفأتهما ذات مرة في حضني تحولت إلى يدين باردتين بسبب الموت الذي كسر قلبي، في تلك اللحظة شعرت بأن هذه الجروح فتحت ثانية وبدأت تنزف مرة أخرى. لاحظ ميغل الانفعال على وجهي، قال:

-طفل مسكين بكى بدافع الشفقة على ذلك القلب الخائن، أو بدافع الخوف من العقاب الذي يترقب المذنبين. لاتقلق؛ لأن جريمتهم أصبحت بدون عقاب، آه! لاتأمن تأرك على غضبك الشديد، ربما فشلت أنت بسبب ذلك الأمر، وعندما انحنى قضيب من الفولاذ وتم طيه في يدي المرتجفة، فقط عندما لمست نصل الخنجر بلطف كنت على وشك أن أعود للجرح من أجل الجرح وللموت من أجل الموت، غمرت موجة من الدم صدري، أغرقت حنجرتي في صرخة غاضبة، أعمت عيوني وقرعتني بحماقة. عندما استيقظت، كان المشهد الحزين قد اختفى، كان بالفعل هناك ضوء النهار يزين ظلال الفجر الوردية، تتمايل سيقان أزهار كرانيش الحائط في النسيم الفواح والمنعش. كان المكان صامتا. على الطريق الملكي، كان يتحرك بسرعة فريق مشرق، يطلقون هتافات صاخبة مبهجة في نسيم الصباح. نهضت غاضبا، شاحبا وترتجف يدي في قبضات، ركضت وراء الحافلة السعيدة. ماذا أريد؟ لا أعرف، كل ما أعرفه أنني كنت مجنونا، ومن ثم ركضت أصرخ طوال الوقت بصوت غليظ مكتوم بغضب جنوني قائلا:

- ناتاليا! ناتاليا!

وصلت بسرعة إلى الحافلة وشققت طريقي عبر حشد كبير يصاحبها، اندفعت نحو الباب وحاولت فتحه، لكن زوج ناتاليا مشى بيني وبين الحافلة؛ سحب مسدسه من حزامه وأطلق النار على صدري، أصابت طلقاته

الهدف، شعرت أنني فاقد الوعي في وسط الطريق، لم أشعر
بأي شيء آخر أكثر من موجة حارقة اندفعت إلى جسمي كله وأوقفت
خفقان قلبي، لم أعرف كم من الوقت بقيت منبطحا على الأرض هناك
غارقا في دمي، متأرجحاً بين الحياة والموت.

أظلم الألم المبرح عيني وعقلي، استطعت رؤية الطيور الجارحة تنقض
على رأسي في حلقات عالية؛ وعلى الرغم من أن سمعي كان يضعف مازلت
أستطيع ملاحظة الصراخ المشنوم الذي احتفلوا خلاله بألمي المبرح ينتظرون
موتي.

أتى الليل وأعطتني برودة جسدي روحا جديدة، كانت شفثاتي جافتين
وتجمعت قطرات الندى وابتلعتها فورا كأنني كنت ميتاً من العطش.
رفعت نفسي بصعوبة شديدة من الدم الذي كنت غارقاً فيه وسحبت على
ركبتي بيد واحدة على الأرض والآخرى على جرحي إلى شجرة على جانب
الطريق، أينما شعرت مرة أخرى أنني ليس لدي القوة للاستمرار.

عندما وصلت هناك، عادت ذاكرتي فجأة والتي تركتني للحظات لتطعني
كما مرعباً من الذكريات، أردت التراجع إلى أعماق قلبي لكنني فقط وجدت
هناك ركاماً من الأطلال.

الحب، الإيمان، الأمل، كل ذلك قد تحطم، تحطمت موجات بحر الألم
المريرة في ظلمة روحي، هاجت بغضب واهن، انهرت وبكيت؛ كانت
دموعي قطرات نيران تحرق خدودي، ارتفع صوت بكائي عالياً إلى النمرور
التي صاحت من أعماق الغابة؛ وتمزق الجرح الكائن في صدري بأظفاري،
أرسلت دمي مباشرة إلى السماء، تعذبت بشكل مرعب، سقطت في نوبة
غريبة، وقضيت ساعات تبدو كخلود الفاسق في الجحيم.

فجأة، انفجر صوت عال لا يصدق ومخيف في عمق الأرض، ملأ المحيط

كله من الشرق إلى الغرب، وأسكت كل أصوات الخلق، اهتزت الأرض وارتجفت بشكل مربع، ضربت الأشجار الأرض بأغصانها الطويلة، أصبح الهواء مليئاً بالأبخرة الضارة؛ فتحت الهاوية ومن أعماقها هربت سيول المياه المغلية وزوابع النيران؛ انشق الجبل من أعلى قمته حتى قاعدته، انهار كالحائط وغطى كل شيء بكتله الهائلة.

طارت الطيور من أعشاشها خائفة في السماء، وركضت الوحوش العنيفة من الصخور المتفتتة المتهدمة في كهوفها، هربت أسفل منحدر التل في فوضى هائلة، رفعت جموع الكائنات أصواتها إلى السماء لتطلب الرحمة، فقط وقف واحد بهدوء وصفاء؛ ذلك الشخص الذي استلقى هناك من قبل لفترة قصيرة، المسحوق بالغضب والألم، وجه خطاه بابتسامة غير موقرة نحو المنطقة التي شهدت ثروة الماضي.... لكن عندما وصل إلى الوادي الذي عاش فيه حياته كلها، رأى فقط كومة كبيرة من الصخور، قد اختفى كل شيء.

عندما لمحت ذلك المشهد، هزت قلبي سعادة بالغة، محى الزلزال كل آثار الماضي من الأرض، والآن أريد محوه من روحي.

عانقت الخراب الكبير بنظرة وبانفجار كثيب من الضحك الذي تكرر كما لو كان أصوات الخلود، أصداء في الجرف الضخم. جلست على جبل الانقراض مثل لوسيفر بعد سقوطه، دعوت الشر وبدأت أحلم به.

عندما جلست هناك دون حركة، غارقاً في أفكار الرهيبة، رأيت مجموعة من الرجال ذوي مظهر همجي على الخيل، يرتدون أشياء بطريقة غريبة ومسلحين بطريقة أكثر غرابة، غزوا المكان واندفعوا على الأطلال كسراب من الطيور الجارحة محاولين بغضب رفع أكوام الحجارة الكبيرة التي بها يسحق الطوفان كل شيء.

كنت غارقا في أفكاري التي أخذت مني وقتا طويلا لتفهم نيتهم، لكن عندما فهمت أخيرا عندما رأيت أنهم يريدون حفر المكان الذي انهارت عليه الأبراج والقناطر. بدأت أسير بمثل ذلك السرور الحاقد، ذهبت نحو الرجل الذي يبدو كزعيم العصاة وسحبت خنجري بجرأة.

كان رجلا طويلا جدا ذا بشرة داكنة وأطراف ملامحا تشبه هرقل، عندما رأى موقفني المهدد، نظر إلي بابتسامة ساخرة، لكنها لم تستمر طويلا، ذات مرة بدأنا القتال في وسط دائرة الرفقاء الشريرين، بالنسبة له ليعلم أن الشاب الذي خدعه كان يتحلى بالقوة الجهنمية، تحولت ضحكته الساخرة إلى غضب، قد خرق خنجري صدره ووقع على قدمي.

عندما رأوا قائدهم مات أمامهم، انحنى كل قطاع الطرق أمامي يملأهم الإعجاب المخيف.

سألت:

- من كان ذلك الرجل؟

- زعيمنا.

- ما اسمه؟

- جوي أمايا، رعب "توكومان"، جلبنا لمهاجمة مزارع المنطقة المجاورة.

- جوي أمايا!

عندما سمعت اسم قاطع الطريق هذا ، والذي تأني سمعته السيئة مرافقة لأسمه، فكرت في فكرة شيطانية.

قلت لنفسي:

- لقد هجرني عمل الخير.

وهنا أتى الشر إلى طريقي، يدعني أتمتع بعبادته وأكرس نفسي له، يتركني أجسده من الآن، سوف أكون شخصا شريرا. انعطفت إلى الفريق المثبط

عزيمته.

سألته قائلاً:

- هل تريدون رؤية زعيمكم البديل؟

صاحوا معاً:

- نعم، طالما سيكون عن طريقك.

قلت بصوت عالٍ ومددت يدي بالخنجر الدموي تجاههم:

- حسناً، تحت اسم القوة المدمرة التي تؤدي إلى ضياع الأرض، أعدكم بأن
أُمي شهرة جوي أُميا وأن أترك أعمالاً أكثر وحشية خلف اسمي. ولجعل
ذلك القسم رسمياً، أحتاج إلى التعميد الرسمي للدعوة إلى الاسم رسمياً.

صرخ قطاع الطرق صرخات السعادة، تكررت بصدى صوت هائل في
الجبل، أخذوا من جثمان قائدهم وعلى أقدامهم بعضاً من دم جرحه،
نشروه على جبينني وعمدوني باسم العنف والسرقة والقتل. في العاميين
التاليين عشت حياة رعب وهلاك، لا أسامح أحد أبداً، وهؤلاء الذين كانوا
ذوي حظ سيئ بسبب قدومهم في طريقي لم يعيشوا لأخبرهم بذلك، كنت
متحمساً للانتقام، كنت أقتل بمفردي إلا إذا قامت العصاة كلها بالهجوم،
وعندما كنت أهاجم كان ذراعي يكفي وكان رفقاؤني في تلك المعركة لابد أن
يرضوا عن أنفسهم بكونهم بكل بساطة شهداء فقط، مات العديد على يدي
بسبب كسر هذا النظام. وكان هناك الكثير من الوحشية في الحرب التي
أعلنتها ضد البشرية، لكن لم يوجد مكان للجن.

أصبح صوت قطاع الطرق مرتعشاً وغطى شبح الندم وجوههم. كان يوماً
ربيعياً، واحد من تلك الأيام التي فتحت فيها روعي أبوابها للسعادة أو
للحزن بصورة مفاجئة.

كنت وحيداً مستلقياً أسفل قدم فرسي، تحت مجموعة من شجر
الصفصاف بقرب طريق مهجور، كنت أفكر في حياتي الماضية، جلب نسيم

المراعي الدافئ إلى قلبي ذكريات سعادته المدمرة في موجات معطرة، صورة عزيزة ومكروهة في نفس الوقت، صورة السعادة التي ضاعت مني مزجت الآن بعواصف الرياح الضعيفة، تغريد الطيور، وحفيف الأوراق، تضحك الآن في كل الأزهار التي تتمايل في النسيم الرقيق حينها كان جسدي لا يتحرك هناك، كانت روحي تتعذب باضطراب المشاعر. كانت هناك همسات غاضبة، نقيق، تنهيدات في الهواء، على الأرض، في الأغصان وأوراق الشجر والنبات وأيضاً، هناك الحيوية الرائعة التي تدفقت في كل شيء في الطبيعة التي تنبض في العروق واجتاحت الشفقة العميقة قلبي لأول مرة .

فكرت في طفولتي، في والدتي، وفي الرب؛ كانت حياتي الحالية تخيفني، كرهت كل الأيام التي فقدتها بسبب أنني كرستها لعبادة الشر؛ قد انغمست روحي في الجريمة وفجأة شعرت بالشوق للحب، فجأة سمعت صوتاً جميلاً وعذبا يغني أغنية مأساوية رقيقة في الأماكن النائية، بعد لحظات قليلة ظهرت امرأة شابة في نهاية الطريق، تلبس ثياباً بيضاء ومغطاة بوشاح لفته الرياح حولها مثل الضباب الكثيب، كانت تمشي ببطء وذراعاها بجانبها، تنظر إلى السماء، كانت تبدو غارقة في بعض الأفكار الجميلة، كانت كينونتها الكاملة تنضح بالرقّة والهجر والشغف. عندما رأيته، بدأ قلبي يركض كما فعل في الماضي، عندما كانت تكمن السعادة في تلك الأوقات. صرخت قائلاً: - يا إلهي ! هل أرسلت لي تلك المرأة كملك لخلاص البشر؟ نهضت بتهور وركضت تجاهها، كان يبدو أن وجودي يخيفها، لكنها لم ترتبك كثيراً .

قالت لي:

- أنت قاطع طريق وأنا أعرف ماذا تريد؟

أخذت خاتماً ماسياً من إصبعها.

- إنه خاتم خطبتي، خذه وغداً في نفس الوقت وفي نفس المكان سأعطيك مكافأة كبيرة من أجلك، لاتقلق من التزامي بكلمتي؛ في تلك الليلة سأ تزوج رجلاً ثرياً وضع ثرواته هائلة تحت قدمي؛ وبالرغم من جهوده أحب شخصاً آخر، أفضل أن أكون ثرية في الحال، في الحقيقة، لقد أرسلت الذكريات

الأخيرة من ذلك الحب إلى الرياح.

إنها لخيانة! إن المشاعر التي تلمع في عينها الزرقاء وتسمع من خلال صوتها الشجي لم يكن كل ذلك دالا على الحب بل الطمع! شعرت بأنني سقط من مكان عالٍ وأنا أتأرجح وعانقت الوهم الخداع.
صرخت قائلاً:

- أنت مخلوق دنيئ!

كأن تلك المرأة جسدت لي ذكرى الفتاه الخائنة التي خدعتني والمشاعر الرقيقة التي كانت تسبح في روحي وتحولت إلى غضب ساخط.
-أنت مخلوق دنيئ! قلبك يحب الذهب، أليس كذلك؟ لذلك مشيت بابتسامة على شفتيك وعانقت عيونك السماء تحلم بأحلامك الشريرة وتدير للخيانة بقلب بارد، تحكمي على الذات التي تحبك بالألم الأبدي؛ لذلك تريدين الذهب، خذيه إذاً وسيكون جائزة على خيانتك!
غرزت خنجري في صدر المرأة، وفتحت صدرها ومزقت قلبها وألقيتها وهو مازال يخفق كالنسر القريب من النفائات، ثم ملأت الحفرة الدامية التي تركتها خلفي بكل الذهب الذي كان معي....

كان صوت الرجل الذي كان يتذبذب في بداية حكاية الحادثة المرعبة قد صارت نبراته متسارعة في غضب كأنه مندفع كعاصفة تتجه نحو النهاية وتهتز بشكل مرعب. استكمل الحديث قائلاً، وهذا:
- خدعت ثلاث مرات لطيبتي، أقسمت ألا أصدق أي شيء مرة أخرى، وذات مرة انغمست نفسي في حياة الجريمة في ذلك الوقت أكثر من أي وقت آخر، وضعت النفائات في المنطقة، حرقت المنازل وجعلت الطرق وعرة. لاحقني رجال القانون، لكن دائماً ما كنت أخدعهم وساعدتني سرعة خيولنا المذهلة، سرقت من أفضل المربين من الأقاليم المجاورة، وعندما اعتقدوا أنهم امتلكوني في أيديهم اختفيت، وفورا ظهرت بعيداً تصحني عصابتي المرعبة، كنت أجلب الموت والدمار أينما ذهبت. وعندما تصرف

بهذا الأسلوب، لم تستغرق الخرافات وقتاً طويلاً ليلازمها الخوف الذي يلهمه اسمي، كنت أفكر في أن أكون كائنًا خارقاً جاء من الجحيم؛ تحدثوا عن جوبي أمايا في الأكواخ بصوت منخفض مليئ بالخوف.

أضاف قائلاً ورافعاً رأسه بإيماءات مهيبّة ونظر إلى السماء بغموض كأنه أصبح غارقاً في أيام الماضي البعيد:

- التاسع من نوفمبر، كان اليوم الذي كنت فيه أنتظر في كمين على طريق غابات المستنقع. كانت الشمس على وشك الغروب، كانت عصابتي تنتظرنني في ثلاث دوريات بعيدة وكنت مستعداً لأرجع إلى اليوم الذي سمعت فيه صوت الأغصان الساقط وخطى شخص يقترب، بعد ذلك بقليل رأيت رجلاً بدا راكباً على فرس كبير رغبت في امتلاكه، قررت أنني سأأخذه منه هناك وفي ذلك الحين قفزت في منتصف الطريق وقلت بصوت عالٍ: -توقف!

عندما سمع صراخي، نظر الرجل الذي كان يركب الفرس بحيرة في كل مكان والتفت أعيننا. صرخ قائلاً:

-أنت جوبي أمايا؟ أخيراً وجدتكَ يا حقيّر.

وأقَى إليّ بهدوء مفعم بالحيوية، كان هناك شيء في وجهه وصوت ذلك الرجل، على الرغم من أنه مازال صغيراً جداً، هناك شيء مهيب جداً وعظيم، كم كان قوياً! إنني قاطع طريق بارد الدم، تخلص من كل الخوف ويتصرف دائماً بوقاحة، تجمدت من الخوف لأول مرة في حياتي وهربت إلى الغابة بسرعة كالسرعة التي كان يعدو بها جوادي.

ركض بالفرس خلفي، لكنه كان معتاداً على أن يعدو بسرعة أقل مني في الغابات الكثيفة وبالتالي كان خاسراً كبيراً، على الرغم من سرعة ورشاقة فرسه. وصلنا إلى أرض مقطوعة الشجر في وسط الأشجار، أينما أعطى المطارد لفرسه ركلة قوية، واستطاع أن يمسك بي هناك.

سبقت حركته، سحبت فجأة لجام فرسي، انعطفت قليلا جهة اليمين، وركضت مرة أخرى بسرعة، لكن في تلك اللحظة وصل عدوي فجأة إلى جيب المعطف وأخذ قبضة من عملات الذهب وألقاها على رأسي بقوة مذهلة، صرخ بصوته العالي والمخيف قائلاً:
- أنت مخلوق دنيئ! إنك تريد الذهب، امتلكه إذاً!

امتزجت تلك الكلمات بضربة العملات المعدنية التي جرحت جبیني، جعلتني أقع على الأرض - بنفس تلك الكلمات التي قلتها عندما نفذت العمل الجبان الوحيد من كل تلك الجرائم التي علمت حياتي- الكلمات التي وصلت إلى أذني ككلمات مقدسة ومهيبة، كأن الأبواق قد نطقها يوم الحساب.

أثناء فقدان الوعي الذي حجب إدراكي وكبح قوتي، شعرت بيد كبيرة خبطتني الآن وتحولت إلى وسيلة تعويض، لمست جسدي المكدوم بلطف وباحسان وتوقف سيلان الدم الذي تدفق من جرح رأسي لمهارة الطبيب وعناية شقيقي .

أصبح نعاسي عميقا جدا جعلني لم أشعر بأي شيء بالإضافة إلى تلك الحركة العنيفة والمستمرة التي تهز جسدي، وألم تلك الحركة التي تسببت في جرح رأسي.

عندما أنت مرة أخرى، كنت مستلقيا على الفراش في غرفة ذات إضاءة خافتة، كان الرجل يقرأ في تلك الإضاءة، كانت رأسه تستريح على يده، على الرغم من أن ظهره كان باتجاهي، تعرفت عليه؛ إنه الرجل الذي هزمني على جوادتي.

تنهدت بطريقة لا إرادية، وانعطفت الرجل، رأني مستيقظاً، نهض وأمسك بكوب الماء الذي كان بجانبه، ألقى إلي وأجبرني على تناول الشراب، فحص

نبضي بعدما ثبت الوسادة ووضع رأسي عليها، ورجع ليستكمل سهره وقرأته.

ماذا أستطيع أن أقول؟ استمر الرجل يعتني بي بتلك الطريقة لمدة سبعة أيام حتى شفي جرحي، في اليوم الثامن بعد مساعدته لي في ارتداء ملابسني، جلس على كرسي بجانبني ونظر إلي نظرة غامضة وحزينة. سأل قائلاً:

-هل تشعر بأن لديك القوة الكافية لتسمعني وتجيبي؟

جاء رد فعلي مخالفا لما بداخلي بسبب ما مارسه الرجل من قوة غريبة علي، كنت خائفاً في تلك اللحظة أكثر من أي وقت مضى، منذ أن وقعت في يده، ثار كبريائي ضد ذلك النفوذ الغامض، تمنيت هزيمته، نظرت بعيداً عن تلك النظرة الحادة التي نظر إلي بها. أجبت قائلاً: -ليس هناك فائدة من إهدار الوقت في الكلام، ليس هناك شيء لتعرفه عني، نتحدث أعمالي عن نفسها؛ إنها مكتوبة في كل مكان، إذا لم تصدقني، سل المنازل المحروقة في الجنوب، والحقول المتدمرة، والتقاطعات التي لا تحصى الموجودة على جانبي طرق المنطقة، لقد قتلت ودمرت ونهبت؛ والآن أنا تحت رحمتك؛ لذلك، ماذا ستفعل الآن؟ إنه شيء بسيط بما فيه الكفاية وهو أن ترسلني على سقالة! أجاب قائلاً:

-نعم، أنت قتلت، ونهبت، ودمرت، وتركت في كل مكان ذهبت إليه دماراً مثل الرجل الذي أكل النمر، لكنني أعرف أنك بائس فقير يوجد في أعماق روحك صوت يحاول أن يغرقه، صوت يحدثك بصوت أعلى من تعطشك لامتلاك الذهب، هل تنكر أنك تسمعه طوال الوقت في صمت الليل وفي وسط النهب وأنين الضحايا؟ قاطعت الكلام بشدة:

-نعم، هناك صوت يصرخ دون توقف بداخلي، الصوت الذي تم مزجة بهمس رياح الليل وضجة النهب وأنين الضحايا، صوت جرحي العميق والدامي الذي فتحته يد بشرية، هل تعرف ماذا يقول لي؟ "الانتقام! الانتقام!" هذا مايقوله لي. أنت تريد أن تكون القاضي وتسألني جيداً، إذاً

اسمع قصتي وأخبرني إذا لم تفعل نفس الشيء، إذا كنت في مكاني.
وعلى الرغم من أنني للحظة سابقة رفضت الإجابة عليه، هزمني تفوق
الرجل الذي لايقاوم، وبدأت أبوح له بمأساة حياتي كلها. سمعني برازانة
وصمت ثم رد بالآتي:
-تقريباً في نفس الوقت، بدأت أفتح عيني للحياة وقلبي للأمل، حلمت
بإيجاد سعادتك في الحب، أحببت علم الطبيعة بشغف حتى عندما كنت
طفلاً، كرسيت كل لحظة في حياتي له، كنت ابن تاجر غني وفتحت ثروة
والدي أبواب الجامعة لي، حيث شربت بشغف من كأس حكمة البشر،
كشفت السماء والأرض عن أسرارها لي، وبدأت أفرح بوجود السعادة
الدائمة التي نشأت من حياة الحكمة. من يعرف إلى أي مدى خلقت روحي
في تلك المناطق المشرقة بين المخلوقات...!

ذات يوم، قد تمزق عقلي من المشهد شديد الابتهاج وعدت إلى وحل
الحياة اليومية، انهار والدي لإفلاسه بسبب شريكه المخادع، وجد ثروته
الكبيرة اختفت في يوم، ومات من الحزن، أصبحت عائلته الكبيرة ضحية،
تم إلقاؤهم في الشارع وتم بيع بضائعهم في المزاد العلني، اختفت أحلامي
اللامعة بتلك الحوادث المميتة المتعاقبة، أمرني صوت الواجب الحاد
بالتخلي عنهم لمساعدة أحبائي.

طلبت فرصة لتخليص شرف والدي وسعادة عائلتي، تركت بحث عالم
جيولوجي وتلسكوب العالم الفلكي لأستولي على مجرفة المزارع، عزلت نفسي
في مكان مهجور، حرثت الأرض وسمدت الحقول، استلمت مراعي ضخمة
في فصل الشتاء، ربيت عددا كبيرا من الماشية، وخلال سنتين دفعت كل
الديون التي خيمت على ذاكرة والدي واستعدت عظمة عائلتي.

وصلت حروب الاستقلال وعرضت علي فرصة جديدة لأعمل الصالح،
واليت لكتيبة الحرية التي أنقذت الظالمين القدماء من انتقامهم لآلاف

المرات؛ وبعد أن خدمتهم كدرع لهم، عانيت كضحية لغدرهم .

بعد يوم واحد- كان أثناء الثورة- عندما سار لينيرس^١ مع قواته إلى الجنوب -الرجل الشاحب المغطى بالغبار- دخل فجأة إلى منزلي وسقط على قدمي بخوف وتعجب.
صرخ قائلاً:

- انقذني! تم القبض على نائب الملك وكل رجاله وسط مسيرتهم، وأصبح في يد المتمردين الذين من المؤكد أنهم لن يعفوا عنه، أنا أمين صندوق الحملة، استطعت الهرب في الظلام، لكنهم كانوا خلفي وقرابين مني، سيكونون هنا ليعيدوني، أمتلك ثورة هائلة أودعتها في " بوتوسي"، تلك الوثيقة تثبت ذلك، خذها، أنا أعطيك كل ما أملك إذا أنقذتني من السقالة التي تنتظري.

لم يكن لدي وقت لأرفض الورقة التي عرض الرجل فيها علي ثروته، عندما أحيط المنزل بالوحدة العسكرية وطلب مني القائد أن أعطيه الأسير، أعطيته في مكانه خطاب الضمان للمجلس العسكري الحكومي لـ"بوينوس آيرس"، في نفس الليلة أعطيت الرجل جواز السفر ودليلاً آمناً، جعلته يهرب إلى "بيرو".

قلت له كأني أرسله إلى طريقه:

- اذهب في سلام بثروتك المغتصبة، لكن تذكر الرجل الذي أنقذ حياتك اليوم يكون ابن الرجل الذي أخذت حياته بالإفلاس الملعون.

كان قاتل أبي، قد عرض الثروة عوضاً عن حياته الحقيمة، كانت الثروة التي سرقتها منه.

ترك واقعه على الجانب الآخر من الكرة الأرضية، الأول مغطى بالآثار

١ - القديس لينيرس وبريموند (١٧٥٣-١٨١٠): نائب الملك الذي يمثل اسبانيا في "ريو دي لابلاتا"، نظم قوات ملكية ليقمع حركة الاستقلال. عندما تركوه أغلبية جنوده، تم ملاحقته وحجز بواسطة الكولونيل أنتونيو بالكارس ونتيجة لذلك تم إعدامه.

والآخر بالأطلال.

انظر، كم من شخص دمرته أنت وكم من شخص أعدت أنا بناءه! شرف والدي، وثروة وسعادة أحبائي، حتى سعادة وأمان عائلة الرجل الذي أرسل والدي إلى قبره. لقد كافأني الرب على أعمالي وقد أعطاني الزوجة التي كنت استحقها وأنجبت أطفالا سعيد بهم.

أناشدك تحت اسم كل شيء جيد مازال على قيد الحياة في روحك -بإخلاص- أن تخبرني إذا كان من الممكن أن تندم روحك، إذا كنت لن أتركك تذهب اليوم لأنك ضيفي، غدا سأذهب وراءك حتى أبعد ركن في العالم لأحملك إلى القانون.

أقسم بالرب الشاهد علي بأنه ليس عدلا، أن الندم أصاب صدري، وصرخت قائلاً:
- لقد أخطأت! سامحني! ارحمني!

من المستحيل أن أصف تعبير الفرحة الذي لمع في وجه الرجل النبيل، رفعني بلطف وعانقني، اعتبرني شقيقه وعرض علي صداقته. قلت بعد ذلك:
- أوه! لقد سامحتني باسم الرب، لكن ماذا عن الآخرين سينظرون إلي في رعب.
أجابني قائلاً:

- لن يعرف أحد من أنت، هويتك ستظل سرا بين الرب وبينني، لقد مات جوبي أمايا، أنت الآن ميغل، فكرت في كل شيء؛ إذا لم تصدقني، انظر فقط...

فتح الباب وأراني أين كنا، إننا في "جوالياما" (محطة الأبقار) وأنا وهو فقط الوحيدان الموجودان هنا.

عندما سمعت تلك الكلمات الأخيرة، فهمت في رعب تلك القصة المخيفة، التي كنت قد سمعتها بسبب مظهري الكاذب والتي كانت سرا قد تم روايته لغريب، سر قد حفظه والدي وأخذه معه إلى القبر. اعتقدت أنني قد سمعت صوت والدي يرتفع بين تلك الأطلال ويتهمني بالعقوق. صرخت قائلاً:

- سامحني!

- قال:

- من أنت؟

- أنت لم تتعرف علي حتى الآن، ميغل؟

- أجب:

- لا!

وتحرك بطريقة غريبة ونظر إلي بنظرة متلهفة.

- أنسيت الطفلة الشقراء التي أحبتك كثيراً؟

صرخ ببكاء عميق قائلاً:

- صغيرتي إيما!

عانقني ورفعني بذراعيه القويتين إلى وجهه؛ ليستمتع بالنظر إلي.

كرر ذلك قائلاً:

- صغيرتي إيما!

ووضعتني على ظهري على الأرض.

واستراح وجهه على رأسي، بكى بهمارة، ثم أمسك كتفي وبسطني بطول

ذراعه لينظر إلي .

قال:

- نعم، أنت فتاتي دون شك! لكن لماذا تمتلكين شعرا أشقرا عائدا إلى الوراثة؟

لماذا تمتلكين وجها يزرع الحزن؟

عندما قال ذلك، نظر فجأة حوله، قال معبرا بعينه أكثر من صوته:

- والآخرين؟ أين شقيقتك وشقيقك؟

انحنى رأسي للأسفل ولم أجب.

يجب أن يكون قد فهم؛ لذلك تحرك بعيداً عني وذهب ليتكئ على عمود قديم، بينما غطى رأسي بطيات معطفة الطويلة. كان يبكي، كل مرة كانت تصلني تنهيدات حزينة عبر صمت الليل، أوه! لم يعرف أنها لأطفاله الذين أحبهم كثيراً، وكانوا يرتاحون سعداء في سلام

بدأ فرس ميغل قلقاً من الشرود الطويل لصاحبه وناداه بصهيل عال، عندما سمع صوت صديقه، رفع ميغل رأسه ببطء وأتى باتجاهي .
قال:

- إن رفيقي قليل الصبر، وأراد أن يعود إلى الضفة الأخرى.
أضاف بتنهيده قائلاً:
- إنه ليس مثل لوبونو^١ تماماً، لكنه جيد وقوي ويركض سريعاً إلى أقصى حد. انظر إليه، إذا لم تصدقني!

أراني من على مسافة جواده الرائع البني المائل للحمرة، له عرف الطويل وسيقانه رائعة جداً، انعكس ضوء القمر على ميدالياته الفضية، ورباط صدره.

افتقدت المسكين القديم لوبونو، لكنه كان أقل مرونة مني، أردت أن أخذه في الليل لمقاتلة الفيدرالين، وكان قد تم تبديل أصوات الأطفال السعيدة بطلقات البندقية، وكانت هناك أصوات صرخات تتقاتل. قد ذهب ومات من الخوف. كان يأتي أيضاً كل ليلة، لكن ليس هناك أحد ليعتني به، كانت الصرخات التي يسمعها صرخات البومة على قمة البرج.

^١ - لوبونو: إنه لقب يستخدم في الأرجنتين ليشير إلى الفرس الذي يمتلك شعراً طويلاً ويشبه بعض الشيء الذئب، تعني حرفياً "ذئبي" في اللغة الأسبانية.

نظر إلى السماء، وقال كما اعتاد من قبل :

-إن الوقت متأخر، إن حزام أوريون والصليب الجنوبي على في وضع الاستعداد، ألم تنسَ أن ذلك يعني أنه وقت النوم، ألم تنسَ؟
"دعنا نذهب إلى المنزل."، كم كانت جميلة تلك الكلمات ومحبة لقلبي!
لم أسمع أحدا يقول تلك الكلمات منذ وقت طويل! منذ وقت طويل لم أمتلك منزلا، ومنذ تحول منزل والدي إلى ركام ورماد، فجأة ظهر فرسان رائعان أسودان لفارسين على قمة ركام الأطلال.

نظر المتجولان حولهما بقلق، ثم صدقا أنهما وحيدان، قفزا إلى الأرض وذهبا لفرس ميغل الذي سهل في ألم محاولا فك نفسه من رباط عنقه المربوط في حزامه.

رأى ميغل الفرسين،OLF معطفه حول ذراعه الأيمن ولوح بخنجره في ذراعه الأيسر، في الواقع كان ميغل متفوقا تماما، كان خليفة جوبي أمايا وكان فخما كئيبا.

عندما رأى اللسان اللذان كانا لديهما استعداد للسيطرة على أراضيهم الهرقلية بعيونه الغاضبة اللامعة في الظلام كالجمرات المحروقة تراجعاً مذعورين، قفزا على حصانيهما برشاقة غير متوقعة ولذا بالفرار وهما يصرخان قائلين:

- إنه مستحضر الأرواح! مستحضر الأرواح!

مزق ميغل رباط جواده وقفز بسرعة "سيبرونوا"، ركض خلفهما بسرعة البرق، اختفى الفرسان الثلاثة في الظلام كالزوبعة الغامضة وتركوني حيث كنت متجمداً في مكاني من الرعب والدهشة.

عندما خرجت من ذهولي، كان القمر قد بدأ يزرع الشحوب على ضوء الفجر الأول، وجدت نفسي وحيداً جالساً على بلاط العمود أينما أخبرني

ميغل قصته الحزينة، بلل ندى الليل شعري ولم يكن هناك حولي حتى أدنى أثر للمشاهد الغريبة التي حدثت أمام عيني، إذا كان ميغل - الشخصية العظيمة- لم يأت ليختم عليهم بختم الحقيقة بنبرته الفخمة لاعتبرت ما حدث هذيانا.

وجدت نفسي وحيدا مرة أخرى وسط تلك الأطلال؛ فقد اختفى بطلي الرائع في الليل، لكنني مازلت أسمع كلماته في أذني؛ كانت تبدو مثل يقظة عميقة مرتبطة بالعودة إلى سيول الماضي الكثيبة، شعرت بانفصال غريب بين روحي وجسدي كأنني كنت أعيش واقعيين منفصلين في تلك الليلة، فردت خصل شعري لكي أرى إذا كانت قد تحولت إلى خصل شيباء أم لا، لكنني عندما تركت منطقة الانقراض التي قضيت فيها الليل ونزلت من الأرض المنبسطة العالية، تجلى المشهد الممتع أمام عيني وتجلت لي انطباعات جديدة، حينها لم تتمحي ذكرى ميغل وقصته المرعبة.

كانت "التوركاليز" المزهرة التي كانت بمثابة الأشجار الطويلة التي تحدد مسار الخليج الصغير قد تحولت إلى اللون الذهبي اللامع تحت أشعة الشمس الأولى المبهجة، عطر عبير الربيع الهواء بروائح، كان هناك مجموعة ضخمة من الطيور تغرد في أرض مقطوعة الأشجار في الغابة تحت أوراق الأشجار والنبات، وفي خارج الحظيرة الفسيحة التي تمتد خلف المنزل، كان هناك مئات الأبقار تخور لعجولهم المحجوزة داخل حظيرة معمل الألبان، ومن بعيد، كان عمال المزرعة يركضون وراء الماشية في الغابة حينما يغنون أغاني مأساوية حزينة بأصواتهم الرائعة، يترجلون بالهام حماسي، كانت الزغاريد واحدة من الجوانب الساحرة لتلك الألحان الحزينة.

عندما عدت إلى المنزل وجدت مضييفا جديدا قد وصل، رجل عسكري قديم كان منتظرا منذ اليوم السابق، وصل مع ابنته في منتصف الليل، كان

الكولونيل رفيقا قديما لـ سان مارتين، وواحد من الرجال الأقل شجاعة، بقي على قيد الحياة في الحملة الخالدة التي حررت "شيلي" و"بيرو".^١

كانت ابنته ملاك الجمال، اسمها أوسوسينا روزابلا، كانت ذات بشرة بيضاء ونحيلة، وكان هناك شيء في عينيها الزرقاوتين الفاتحتين، كأنها كانت شخصية كاملة، شيء سماوي وخارق، غزت قلبي عندما رأيته، أوه! لم أكن مخطئا، كانت أوسوسينا تحت رحمة مرضها القاسي الذي يتحرك ليلتهما؛ ذلك المرض الذي يسري ببطء مثل حمم البركان، التي تلتهم ضحاياها.

ولدت على مقربة من "ريو دي لابلاتا"، كانت تتنفس نسائمه الفواحه بأمل عديم الفائدة في الارتياح من معاناتها؛ لذلك قد أمرها الأطباء بالذهاب إلى الشمال لتغيير الجو. قد أتى بها والدها إلى هنا مقادا بالأمل الذي تشبثت به روحه، ياله من أب مسكين لم يقدر على نقل عواصف الحياة لابنته التي هي سر وجوده. بقدر ما كانت مهمومة، كانت مرحة وسعيدة وتفكر فقط في اللهو.

في اللحظة التي رأته فيها، ركضت نحوي بابتسامة خبيثة على شفيتها، وعندما قدموني مضيفوني باسم ذكرى، ألقت ذراعيها حول عنقي وأعطتني قبلة وقالت: -
- يباركك الرب، إيما.... نويل.

منذ تلك اللحظة التي كنا فيها متلازمين حملتها على كتفي كأننا كنا نتجول تحت أشجار العناب، أخذت من يدي كوب الحليب، أخذتها إلى سريرها، وأكلت فقط ما قطعته لها على المنضدة.

١ - خوسية دي سان مارتين (١٧٧٨-١٨٥٠): قائد عسكري -زعيم جيش "أنديس" الثوري في حروب الاستقلال القادمة من إسبانيا، يعتبر بطل قومي أرجنتيني.

أثناء ذلك اليوم كانت، روزابيلا على مايرام، سادت الرياح الجنوبية الدافئة أراضينا المنبسطة عندما كانت الشمس تشرق فوق الأفق تبث الحيوية في صدرها، لكن عندما حل الليل ونزل الهواء من الجبال إلى المراعي وبدأ الندى يتكثف على حقول العشب الصغير، كانت الفتاة المسكينة قد بدأت تشعر بالاختناق المميت الذي عذبها، كان وجهها الكئيب ورعشة جسدها يبحثان عن الهواء الذي تحتاجه رثاها التي دمرها الداء القاسي.

قضى الكولونيل الليل يمشي معها في الدهليز وكأنه الطريق الوحيد الذي تستطيع فيه التنفس بحرية أكثر، وكانت رأسها تستريح على صدر والدها، نامت روزابيلا لساعات طويلة وتركت ثقل جسدها بتلك الثقة التي أحببناها جدا في الأطفال.

كنت دائماً أرافق والدها في سهره، جالسا على مقعد في نهاية الدهليز، كنت أسمعه يخبر ابنته بمغامرات حياته الطويلة، الملاحم الأسطورية التي في لغة المحاربين القدامى تبدو مثل السكتات الدماغية لإطلاق النار في خلفية الليل المظلمة.

حمل الرجل المسن الطويل النحيل والمهيب الفتاه البيضاء النحيفة على ذراعيه، وأصبح شعرها الطويل الأشقر ممزوجاً بشعره الأبيض المضفر مثل اللبلاب الناضج حول جذع قديم. يتحدث عن رجل بعيد وأحداث طويلة منسية كأنه يمشي جيئة وذهاباً، أرسل صوته عقلي إلى طريق غريب واعتقدت أنني كنت أشاهد شبح الماضي وهو رافع ظل المستقبل على ذراعيه.

في يوم كانت روزابيلا تعاني أكثر من أي وقت مضى، اقترحت على الكولونيل أن نأخذها إلى ي نابيع "روزاريو"، كانت فكرتي تبدو سخيفة لأي شخص لا يعرف الصفات الرائعة لتلك الينابيع المشهورة في مدينتنا،

إنها دواء عام لكل شيء من الجذام للحمى، للسكتة دماغية، للاستقساء، للنقرس، وأمراض الرئة أيضا.

كانت قوافل عديدة تذهب من كل مكان في الجمهورية هناك ليجربوا تأثير الينابيع، هناك كان يتم جلب المجذوم، والمحفز، والمشلول، تلك الينابيع قد شهدت على مصائبهم المخيفة التي تلاشت، كذلك كانت شاهدا على المرضى الذين تركوا العلم وهؤلاء الذين هم على حافة الموت على نقالة من مسافات طويلة ويستعيدون حياتهم وصحتهم في تلك المياه التي كانت بمثابة المعجزة. أتوا كالعاصفة المهتاجة من حفر الصخب الكبيرة في أسفل تل الينبوع الفضي، ثم نزلوا بسرعة إلى مجرى النهر الذي يحتوي على حفر عميقة مصممة في الأعماق والتي ترسم ممرا، والأبخرة المنبثقة التي تتناقص بكثافة كالمياه الباردة أسفل ظلال الغابة الكثيفة التي تربط نهر "أوركونيز"

رحب الكولونيل باقتراحي بصراخ الفرحة، وقفزت روزابيلا إلى ذراعي، على الرغم من أنني في الواقع كنت أرثدي قميص رجل. صاحت قائلة بنظرة متوهجة تعبر عن الإيمان والأمل: -ربما هناك.....!

سرج الكولونيل الأحصنة بينما وضعت أنا وخادم روزابيلا كل الأمتعة الضرورية لراحتها في الحافلة: غطاء، ومساند، وعطور- في كلمة واحدة- أمتعة قيمة لأميرة قديرة.

في نفس ذلك اليوم، في وقت متأخر من بعد الظهر، ودعنا مضيفونا المعطائون السخيون. غادرنا على الفور مع الفتاتين اللتين عاشتا في المنزل، اثنتين مفعمتين بالحيوية ومشاكستين ركضتا في المقدمة، ملأتا الغابة بضحكاتهما السعيدة وهما غارقتان في طفولتيهما، تشبهان الوهم الرومانسي بين امرأتين صغيرتين قويتين.

إنها الساعة السادسة، كانت الشمس تشرق وبدأ القمر ينشر أشعته الفضية على الأعشاب المزهرة الصغيرة في الريف، عبرنا النهر والتزمنا بقرب شاطئ طريقا مصفوفا بالحصى، إنه العذاب المقصود للفتاتين القليلتي الصب .

كان مرشدنا رجلا مسنا مخادعا، ابن حقيقي للطبيعة ذو بشرة داكنة وعيناه كعيني النسر، ذهب إلى الأمام بمهره البني كان يرتدي وخز الخيل التي تصلص بصوت عالٍ مقابل الأشرطة المعلقة من السرج والتي أفرغت الماشية التي مررنا بها على أحد الجانبين، كان هناك ساكن قديم في المنطقة، يعرف قصة كل مكان ممرنا به، وكان يعرفنا بالمكان وكأنه مرشد سياحي موهوب، أحيانا كان يجعل فرسه شاهدا على حقيقة دوافعه .

-سيدي، دعنا نعبر هذه المنطقة بسرعة، إنه مكان عسر وحاد جدا، كان لشقيقين عبراه، أحبا بعضهما، لكنهما كانا زعيمين من الأعداء: واحد كان موحدا والآخر كان فدراليا، كان يجب أن ترى الاثنين، سيدي! عندما يكونا معا ولم يكن هناك أحدا حولهما، كانا يتعانقان ويكيان بالتأكيد بما فيه الكفاية... كان يبكي أحدهم، أما الآخر كان رجلا قويا جدا ويبتلع دموعه، لكن إذا تقابلا عندما يكونا على رأس عصابتهن، ذلك الحين الرب فقط هو من ينقذنا! لقد ذهبنا إليه حتى الأرض نفسها بدأت تنزف.

مازال هناك في اليمين ركام من العظام، عانى أصحابها من الحاجز بين الجنة والنار، في ليلة أخرى- كما في واقع الأمر- ظهر شبح من تلك المنطقة وتركني أرتجف في حذائي، يستطيع مهري البني تأكيد حقيقة أنه عدا بفرسه وركض لنصف ميل، جعلني أفقد أشرطة عرجه وثلاثة أقفال من عدة الفرس.

أجابته روزايبلا باسمه:

- كن حريصاً صديقي كونتيراس، إذا كان العدو لمدة نصف ميل لم يقتلك على فرسك، إن الحكاية الطويلة يمكن أن تفعل ذلك.

- حسنا! حسنا! لذلك لايؤمن الطفل بالأشباح!

كان يجب علي أن أتركها في "إيستيكو" الليلة عندما كان ربع القمر الأخير في السماء، وفي ذلك الحين كانت ستري أشباح مرعبة جداً ترتفع من الأنقاض الموجودة هناك جعلت قلبها يتوقف.

سألت روزابيلا وهي تنظر إلي وتغمزني قائلة:

- إستيكو! أتوسل إليك أن تجيبي، إنها هنا؟

- ناحية اليمين هناك أيها الطفلة، إنها على قمة ذلك التل وعلى الجانب الآخر من النهر، ألم تسمعي عن تلك المدينة التي كان مواطنوها متكبرين جداً حيث كانوا يلبسون الذهب والفضة، وكانوا قساة حيث اعتادوا على حرق عبيدهم أحياء؟ جيد، هذا ما كانت عليه، وإذا ظلوا على قيد الحياة نسمع صوت رقصاتهم من حيث نحن واقفون الآن، لذلك يقال أن رقصاتهم دامت في النهاية لشهور، بالنسبة للناس لم يكن لديهم الحاجة للعمل منذ امتلاكهم السبائك الذهبية التي يقطعونها بمنحت فوق تلهم، لكن هل تعرف كم كانوا، أحياناً يعطي الرب رضاه لكن ليس للأبد، ذات ليلة ابتلعتهم الأرض تماماً كما ترين . لم يخرج أحد منهم مرة أخرى، لكن بالتأكيد كؤوسهم الذهبية ومزهرياتهم وقلاداتهم الماسية فعلت ذلك، حملتهم الفياضانات إلى قاع الوديان، مرات عديدة قد وجدت خواتم بأحجار خضراء ومعادن تلمع مثل الشمس، لكنني لم آخذ شيئاً، لقد ألقيتها بعيداً لكي لاتجذب تلك الأشياء الشريرة مسيحياً آخر، إنه حقيقي، -سيدى- كان مهري البني حاضراً هنا في ذلك الوقت ولم يدعني أخبرك بأكذوبة.

شدد كونتيريراس بطريقة مميتة على مناشدته لفرسه، من المؤكد أن فرسه البني لم يعارضه.

هدأت الرياح في الليل، وكانت المرة الوحيدة التي وصلنا فيها النسيم الدافئ مليئاً بعبير الشمس المُسكر، بين أدغال صخر الورود على طول

مجرى النهر، ركبت بجانب روزابيلا التي كانت لبعض الأوقات تسافر في صمت عميق، كنت أستطيع أحيانا سماع تنهدها وهلثها بقلق في هواء الليل الدافئ، تبدو مظلومة، تعاني من ضيق التنفس، قلقه، وكانت تلتفت لتنظر إلى والدها في كل وقت كان يقف فيه يشعل ولاعته لرفاقه المدخنين.

فجأة، انفصلت عن يدي التي كانت على رقبه فرسها، رفعت روزابيلا لجام الفرس وركلته للأمام، جعلته يقفز فوق العشب الطويل ويعدو بسرعة وبتهور، تبعته بسرعة على الرغم من المشاكل الكبيرة التي سببتها لي سرعة حصانها البالغة. بعد العدو لمدة ساعة في الطرق المظلمة، أتت روزابيلا لتقف في نهاية وادٍ غامض مليئٍ بالعطور البرية، كانت شاحبة جدا ومازالت ابتسامتها على وجهها. قالت لي ضاحكة بشدة تردد مثل تغريد الطيور في هواء الليل الصافي بتعبير ساخر على وجهها:

- يجب أن تعترف يا إيمانويل، يجب أن تعترف بأنني في ذلك الوقت أفزعتك، أنا آسفة! أنت لم تعرف حينها أنني كنت أشعر بضيق تنفس، وكان أفضل علاج لي هو الركض، نعم أنا ركضت من عدوي الرهيب وتركته خلفي بعيداً... ياله من مكان جميل!... ياله من سلام وبالها من عزلة! يا لبرودة الطقس هنا! هل تستطيع أن تشعر بالنسيم العذب وبالهواء المنتشر في رثتيك؟ كم يستطيع الشخص التنفس جيداً هنا! انظر إلى أطلال تلك المزرعة، كم كان الناس الذين عاشوا تحت أسقف القش سعداء، تحت ظلال أشجار الخروب التي تبعثت أزهارها في الربيع مثل الثلج!... لكن، ماذا حدث يا إيمانويل؟ أنت تبدو مشغول البال كأنك كنت تحلم... أنا لا أعرف! لكنني متأكدة من أن روحك بعيدة عن هنا. نعم إن روحي بعيدة عن هنا بسبب شرودها في الماضي الذي تعرفت فيه على ذلك الواي، تلك الأشجار، تلك المزرعة، كنت هناك ذات مرة في ليلة كان القمر فيها كاملاً مثل تلك الليلة.

ذات يوم، سئمت أنا وشقيقي من بقائنا في المنزل، قررنا اعتزال العالم

والسفر إلى "أورشليم" لزيارة الأماكن المقدسة لنذهب من هنا إلى الصحراء، ونصبح راهبين مثل القديس جيروم والقديسة باولا، على الرغم من أن القديسة باولا كانت لديها فقط ثمانية أعوام وجيروم كان لديه ستة أعوام، أتت امرأتان لطيفتان ليحضرا عسلا وخبزا لوالدتنا؛ أخذنا أحصنتنا وركبنا بانهماك روحاني غلب علينا أثناء العدو في الغابة.

عندما اخترقت أشعة الشمس السعيدة أوراق الشجر والنباتات الكثيفة كان كل شيء قد ذهب، لكن بدأنا ندرك أن "أورشليم" بعيدة أكثر مما كنا نتخيل وتحولت خططتنا التقية إلى خوف وتحولت رزانتا الزاهدة إلى جوع هائل غلب عليه العطش الشديد، بكينا وخفنا، وازداد الظلام وتعمقنا في دروب الغابات كثيفة الشجر.

أثناء تلك اللحظات التي كنا نمضي فيها في طريقنا في صمت وخوف، سمعنا كلبا ينبج بعيدا، بدأنا نفرح وصرخنا نطلب المساعدة، لكن بعد ذلك بوقت طويل جعل زئير ضخم الغابة تهتز بأكملها وترك لنا الصمت المमित بفزع، لم يكن هناك خطأ، إنه صوت نمر، يأتي ذلك الزئير من فكه الضخم، لكن أحصنتنا استمرت بهدوء كأنها لم تسمع أي شيء.

بدأنا نبكي مرة أخرى، ومرة أخرى سمعنا الزئير الذي كان أكثر رعباً في ذلك الوقت، لكن أخيراً سمعنا صوتاً ينطلق بعيداً يقول:

- أنتولين! أنتولين! تعال هنا يا بني! يا إلهي! أرسلك لتنقذ تلك المخلوقات المسكينة، وأنت ذهبت وأخفيتهم حتى الموت! تعال هنا يا صغيري، لا تخف.

وصلنا إلى أرض مقطوعة الشجر في الغابة ورأينا نهاية الوادي وبجانب المدفأة المشتعلة في الجزء الأمامي من الفناء رأينا امرأة تلبس ثوبا أبيضاً وتلوح لنا بشالها الأزرق، ثم جاء ولد صغير لمقابلتنا كان عمره بين الرابعة

عشر والسادسة عشر وكان يبدو كما لو أنه قاطع الطريق، لديه عين يقظة ونظرة خبيثة وابتسامة وقحة، قفز بخفة مثل القطعة على فرس شقيقي، وأمسك باللجام وقادنا إلى المنزل، هناك سحقنا من التعب، سقطنا بين ذراعي المرأة، وعندما اقتربت لتساعدنا نزلنا من على ظهر الجواد.

لاحظت مضيفتنا أن شفتي وفمي كانا جافين تماما وكان الظمأ يبدو جليا وذهبت إلى المنزل، خرجت بعد لحظة بكوبين كبيرين من قشر بيض النعامة مليئين بخمر الخروب، ثم جعلتنا نستلقي على مقاعد خشبية بجانب النار. أرسلت ابنها بسرعة بينما كنا في حاجة للمساعدة، توجه إلى نفس الطريق، لقد أتينا لنخبرهم في المنزل عن حملتنا الصليبية التبشيرية وأنا سنجعلهم يستقبلون الحجاج المنهكين، ودعت أُمي المرأة وأعطتها هدايا عديدة؛ وتحدثت عنها في كل وقت شاكرة لها بالغ الشكر.

بعد أربع سنوات، في عام ١٨٣١ ثارت الجبهة الجنوبية ضد الحكومة الدستورية، وشارك المتمردون في عمليات نهب وقتل وإضرار الحرائق في كل مكان ذهبوا إليه، خصص والذي -بحكم القانون العسكري الذي وضعه المجلس التشريعي- قوات لمواجهةهم، ذات يوم بعد مصادمات دموية، تم تقديمه مع أحد زعماء التمرد، وأُخذ كأسير بعد مقاومة لا جدوى منها كان قاتلا مشهورا برز في الانتفاضة لوحشية ما قام به، كانت معركته تسمى "السفاح" ذلك الاسم الذي جعل قصة حياته المظلمة تبدو أكثر كآبة. ووفقا للقانون العسكري، فإن الجرائم التي ارتكبها تدينه وتجعله تحت طائلة القانون.

على الرغم من الصرامة التي أتم بها واجبه، وجد والذي طرقا لإنقاذ العديد من الرجال المضللة ضد من كان يحاربهم، لكن بالرغم من أنه تأثر بماضيه المتطرف لم يستطيع فعل أي شيء لذلك الشخص، لايهمه ما كان يريد، كان مجبورا على التخلي عنه لمصيره المشئوم الذي ينتظره.

فجأة، ركضت المرأة البيضاء الشاحبة المرتجفة إلى الخيمة وهي تصرخ
قائلة:

- ابني! أنتولين!

رأت والدي وكانت على وشك أن تلقي بنفسها بين ذراعيه عندما سمعت
البندقيات وسقطت على قدمه .

ذلك الحادث المأساوي حرك والدي بعمق وترك أثرا بالغا في روحه
المعطاءة، غرق عقلي في تذكر ما حدث بعد ذلك، ولبعض دقائق نسيت
أوسيسيينا، عندما عدت لأنظر إليها وجدت أنها صرخت في وجهي قائلة:
- إذا لم يكن عقلك في "ليما" فمن الواضح أن هناك شيئا يجعلك حزينا.

تقابلنا مرة أخرى مع زملائنا، وفي السادسة صباحا، وصلنا إلى أحواض
استحمام الينابيع الساخنة، كان هناك عائلات عديدة تجمعت في حلقات
من الخيم، كانوا يرفهون عن أنفسهم بأنشطة هادئة مثل السباحة، والصيد،
والجولات الطويلة بحثا عن خلايا النحل؛ وأكل "البيكاناس" اللذيذة مع
بعضهم البعض على مائدات طويلة تحت أوراق الشجر والنبات العطري
في الغابة، يرقصون، ويغنون، ويلعبون ألعاب المصادرة (لعبة يدفع فيها
غرامات)؛ ويحكون كل أنواع القصص (قصص مأساوية جادة وحتى المثيرة
منها والحكايات البذيئة).

رحبوا بنا ترحيبا حارا، أسرع السيدات لتعدن مشروب الشاي^٢
بالمياه المغلية الفوارة المتدفقة من الصخوب، قدمن عذرهن لعدم براعتهن
في تحضير المشروب، وتعهدن بأننا سنشرب الأفضل عندما يعود سيد
المراسم، اتضح فيما بعد أنه مسئول عن تلك المهمة ومهام أخرى، أطلق
عليها كل شخص "روح المجتمع" بسبب حيويتها وسعادتها التي لا تنضب،

١ - البيكاناس: هي وجبة لفخذ الحيوان أو وراك البقرة.

٢ - هو مشروب الشاي يشبه مشروب الأوراق المعتاد في جنوب أمريكا، إنه أيضا اسم نبات القرع
أوكالاباش الذي يقدم كمشروب.

لقد ذهبت إلى روساريو لتحصل على بعض المون وانتظروا عودتها بنفاذ الصبر، لقد وصلت أخيرا وهي تركب على مهر كستنائي سريع إلى حد ما، دفعت أغصان الأشجار بيدها في طريقها وأحيانا كانت تمسكها وتحصل عليها للحظة ثم تتركها بضحكة مجنونة، كانت لديها على كفل حصانها الكبير كيس ممتلئ أسقطته على الأرض قبل وصولها إلى الحقل، انزلق من على السرج، ركضت لتقابل الجالية التي أنت بشكل جماعي لترحب بها بصراخات الفرح، عانقت كل شخص سواء كان رجلا أم سيدة؛ أخبرت كل فرد منهم بالأخبار التي طلبوا منها اكتشافها؛ لقد جلبتهم ليؤرخوا كل شيء، أخبرتهم كل شيء عن الكاهن، الجيران في المدينة والمراعي؛ والحناطير التي وصلت إلى الطريق الملكي.

ثم التفت للمرأة الشابة، وأضافت قائلة وهي تشير بصمت: -هناك إيطالي قادم، وسيم وحزين مثل التروبادوري (واحد من طبقة الشعراء الغنائيين)، لكنه صامت مثل العمود، أمسكت به عند منعطف النهر، الشيء الوحيد الذي استطعت التوصل إليه أنه قادم من "توكومان" ومسافر إلى أي مكان يأخذه فرسه إليه.

نظرت إلى المرأة ولم أستطع تصديق عيني، إنها ماريا مونتينيغرو صديقة أُمِّي التي ولدت معها في عام واحد، لكنها مازالت جميلة وشابة مثلما كان عمرها عشرين عاما، مازالت ماريا لا تمتلك حياة سعيدة، وحلت عليها مصائب كبيرة، ولديها مستقبل منذر بالسوء، لكنها كانت لديها شجاعة جعلتها تعرف كيف تبتسم بوجه حزين، دعوتها لتعدل ملامح وجهها ولا تترك أي أثر حزين على ملامحها الرقيقة، كم كنت أريد أن أعانقها بشدة وأخبرها من أنا، لكنني بقيت مستترا، فقط كانت أوسيسينا ووالدها يعرفان سري!

كانت هناك مفاجأة أخرى تنتظرنني، كان ميغل أيضا هناك، لقد أمسك

باللصوص، قبض عليهم وأخذهم إلى روساريو حيث أخذهم إلى العمدة، قد قابل هناك عدد قليل من السيدات في حمام المستعمرة؛ وقد ظل في الينابيع لعدة أيام وهذا الأمر أسعد السيدات جدا لاهتمامه بهن في تلك الرحلات اليومية، وكان يختم خدمته في الليل كمالك القطع المعدنية للألعاب التي تدفع فيها غرامة، في هذا اليوم، فعل ما كان معتادا عليه منذ فترة طويلة؛ خرج للبحث عن خلايا النحل، وعندما عاد في المساء كان معه الكثير من العسل والأزهار، كنت مسرورة جدا لكوني قادرة على الركض لمقابلته، مثلما كنت معتادة على فعل ذلك عندما كنت فتاة صغيرة، قفرت ووضعت ذراعي حول رقبته وسرقت منه الأمتعة الجميلة التي أحضرها.

بعد وقت قليل، وصل الإيطالي قليل الكلام إلى حقلنا، قال بوقار:
-مرحباً.

وطلب الإذن لقضاء الليل هناك معنا، عرض عليه الرجال بسرعة خيمهم، ورحبت النساء- اللاتي تأثرن بالحزن المرسوم على وجهه - به بلطف شديد. بغض النظر عن محاولتهم الشاقة، إلا إنهم لم يستطيعوا أن يأخذوه معهم ليرافقهم في الحملة الذاهبة إلى "التل الأحمر" والتي كنا نخطط لها في الصباح التالي، وانطلقنا في الفجر تاركين ضيفنا بمفرده في الحقل.

كانت النزهة ممتعة حقاً، تجولنا طوال اليوم في الوادي الضيق في الجبل الذي يدعي الناس بأنه مليئ بالأشباح والأرواح، تطل المنطقة عليه بإطلالة وعرة، ومهيبة ومشئومة مثل القبيلة البدوية التي تعيش هناك، ترتفع الأشجار الضخمة في الحجم والارتفاع بقلبها القوي وأوراقها الملونة هنا وهناك، وتهتز أغصانها دائماً بواسطة الرياح العنيفة والجامحة ويتأرجح الكروم القديم بينها، وفي الليل تصير كالأشباح التي ترقص وتعوي في الظلام، تزرع الأعشاب الطويلة -الكثير منها سام حتى في ملمسه- بكثرة في المنطقة النباتية على الرمال الضاربة إلى الحمرة وتغطي أرض المنطقة وتجلب ظاهرة كهربائية لاتصدق في ليالي الصيف.

لم تغادر العواصف أبدا تلك الجبال، يلتهم البرق الومضات حول قممهم دون توقف، ويجيب زئير النمر وصخب الثعابين من أعماق الوادي على ضجيج الرعد، صنع النسور والصقور أعشاشها على تلك الصخور وأحيانا يمكن رؤيتها وهي ترتفع، وتصيح، وتحلق في حلقات رائعة وتمسك بمخالبها سحلية أو ثعبانا.

لم يكن هناك شيء ممتع لتنظر إليه، غير أن منظر تلك الوديان الضيقة من بعيد حتى لو نظرت إليها عن قرب تجعل الروح مليئة بمشاعر الخوف التي لاتقهر، لكن من بعيد يرى المرء كيف ترتفع مثل الحائط الأزرق، تصنع خيال مباشر باتجاه الأفق، تتزين قاعدته بضفة الغابة الخضراء، وعلاوة على ذلك، النهر الذي يمد وشاحه الفضي ويضيف الأضواء المنعكسة المراوغة على الألوان الزاهية التي يلون بها الفجر ذلك المنظر الرائع.

عندما رجعنا إلى حقلنا بعد رحلتنا الممتدة لـ"تل الأحمر" وقد حل الليل منذ فترة طويلة، كان البدر الكاملا يرتفع خلف الجبال التي قد زرناها خلال هذا اليوم، يشرق على قمم الأشجار وتنزل أشعته بشكل غير مباشر على أوراق الأشجار والنباتات التي تتقاطع مثل سلاسل الضوء في ظلام الغابة، يمكن للمرء أن يعتقد أنها شبكات فضية تلقى بواسطة الأرواح لتقبض على الهالات المنجرفة.

أوقفني اللجام الذي كان معي متأملا ومستعبدا التفاوت الرائع للمشهد الهادئ لمتناقضين أساسين: الأول الضوء والآخر الظلام، كنت أنظر بثبات تام، بدأت شيئا فشيئا أجرب الظاهرة البصرية، أحيانا كنت أرى الأجندة الشفافة وفساتين الحوريات المتمايلة التي تنتقل في الأدغال؛ ومن ناحية أخرى كنت أرى قشرة التنين اللامعة وعينه اللامعة المتوهجة كالجمرات المحروقة، وذات مرة رأيت رأس العفريت المخيفة تخرج من شقوق جذوع الأشجار؛ ومن ثم رأيت من بعيد وجها مشرقا ملامك مبتسم.

بالنسبة لي، لم يختفي المشهد الأخير الذي رأيته، قد تقرب لي كائن سماوي، وبدأت لي ملامحة واضحة، وأصبحت ابتسامة شفّيته أجمل، عندما أصبح بجانبه وضع يده على كتفي وأشار إلى الغابة قائلاً بصوت عذب:
- في منتصف طريق حياتنا^١.

لقد خلعت أوسيسينا تنورة ركوب الخيل ولبست فستاناً أبيضاً قطنياً ترفرف طياته المموجة حولها في نسيم الليل وأعطاهها ذلك الفستان مظهراً رائعاً وغير مألوف أيقظ في قلبي الحزن الذي شعرت به عندما رأيته تلك الفتاة الجميلة، لكنها لم تلاحظ حزني واستكملت حديثها بإيماءة حزن مضحكة:

- ويل لنا، ويل لمن يعيش في مثل هذه الظروف المحزنة.

أوه! أوه! أوه! خافت السيدات كالمعتاد، طلبن موقداً، واعتقدن أن الصحراء البرية^٢ لن تكون مظلمة^٣ بعد الآن، وأصبحت الغابة فجأة مضاءة بضوء الموقدات الكبيرة التي أبقاها الخدم مشتعلة طوال الليل لتظل النمرور في أغوارها.
تذكرت أوسيسينا قريتنا "سويري"، وأسرعنا للرجوع إلى خيامنا.

في تلك المرة تجمعت أسراب الحمام الصغير تحت شجرة الجوز، لم يضل أحد الطريق ولاحتى ذلك الإيطالي قليل الكلام والغامض الذي وصل الليلة السابقة، جلس على جذر شجرة كبيرة وأسند رأسه على جذعها، كان يبحث عن النجوم بنظرة تأملية .

بعد أن غطينا، رقصنا وتناقشنا في السياسة وجاء وقت القصص أخيراً، طبقاً

١ - " في منتصف طريق حياتنا" (إيطالي). إنه السطر الأول من الكوميديا الإلهية "لدانتس"

٢ - صحراءنا البرية (إيطالي). أيضاً من الكوميديا الإلهية.

٣ - مظلمة (إيطالي). تعتمد التورية (التلاعب اللفظي) على المرجع البارع الكوميديا الإلهية

"لدانتيس"

للعرف السائد، أعطى ميغل قبعته لخدام أوسيسينا ليجمع من كل شخص القطع المعدنية للعبة التي تدفع فيها الغرامات. خلع الإيطالي المهجول خاتمًا من إصبعه ووضعه في القبعة، كان السيد مونتينيغرو يمشي معي وقد همس في أذني قائلاً:

- سيغادر الإيطالي غداً؛ لذلك يجب أن نجعله يشارك في القص تلك الليلة. ثم اتجهت نحو ميغل الذي استدار ليسحب القطع المعدنية بعدل، وأعطته القبعة، قالت له بهدوء:

- من أجل الرب، عزيزي ميغل تأكد من أنك ستجد الخاتم السميكة في مكان ما.

أوماً ميغل، ثم رفع يده، وكان خاتم الإيطالي يلمع في سباته، بعد أن هز القطع النقدية بشدة في القبعة.

استدار الجميع ونظروا إلى الغريب، قربت السيدات مقاعدهن ليستمعن جيداً، وتركت أوسيسينا الوسادات التي جلبها خادماها من أجلها وجلست بجواري على معطف ميغل.

أدرك الأجنبي أن كل الأعذار لفعل ذلك سيكون ميثوساً منها؛ ثم ضحك بحزن، وانحنى لرفاقه باحترام رائع تميز به ذلك النبيل، ثم تراجع ونظر إلى السماء وهز رأسه بحزن وكأنه نسي أن لديه من ينسطون إليه حوله، استحضر ذكريات الماضي كالسائر أثناء النوم، بدأ يتحدث بصوت يرن كأنين الرياح وأحياناً بصوت غليظ متوعد مثل صوت تحطيم الرعد. إنها مأساة البحر الأدرياتيكي قال الإيطالي:

-إن "فينيس" هي الطائر الجميل لبحر الأدرياتيكي، إنها الملكة الرائعة القوية على الرغم من أنها كانت مهزومة ومقيدة، نسيت أنها كانت جارية منذ زمن، ومغطاة بإكليل الأزهار الفواحة، تركت نفسها لأفراح الكرنفال العاصفة، فتحت قصورها المضاءة أبوابها الذهبية للعديد من

المضيفين الذين اجتاحتهم، صعدوا سلامها الرخامية، مر آلاف القوارب عبر قنواتها الغامضة مليئة بالرجال والنساء المتنكرين الزاهبين ليرقصوا وليلتقوا بعشاقهم، أو ليأخذوا بنأرهم، أو ليقيموا حفلات موسيقية على شاطئ البحيرة، ارتفعت صيحة واحدة كبيرة من الحفل الموسيقي الضخم، والمقاهي، والحانات، والشرفات، والشوارع، والميادين والقنوات؛ إنها صيحات الفرح، هتافات الدهشة، علامات الخوف، صراخ الغضب، تنهدات وكلمات الحب الجميلة التي يتم التعبير عنها بلغة تأسو الشعرية الجميلة، يُسمع هنا لحن "سينسيرادا"^١ الغير متناغم؛ وهناك لحن غرامي ممتع، وكذلك هناك مئات من جماهير "بونشينيوس" السعداء مع بعضهم البعض في قارب مزين بشكل رائع بالأعلام، يسرون إلى الأمام تحت أقواس جسر التهنيدات الحزينة، تتردد أغانيهم وضحكاتهم بشكل شيطاني ساخر تحت القباب الحزينة التي ترى وجوها كثيرة شاحبة تمر بها والتي تردد أصدائها العديد من صراخات المعاناة، لكن الآن كل هذا قد تم نسيانه، حيث رحلت المحكمة رقم عشرة^٢ - بأحكامها الغامضة وضحاياها الكثيرين - مثل أيام مجد البندقية (فينيس)، وقد نسيت تلك الناريذة (واحدة من حوريات البحر) التي كانت دائماً سعيدة بنفسها، والتي كانت تبدو جميلة جداً في مرآة القناة - نسيت روعتها الماضية وعارها الحالي وابتسمت في وجوههم فاتحة ذراعيها وقصورها الذهبية لهم، تغني وترقص معهم، لكنها استبدلت رقصاتها الثرية القومية وأغاني الشمال البربرية الصاخبة برقصات أخرى.

عندما تحدث الإيطالي كان صوته يرتجف وعيناه السوداوان اللوزيتان الشكل تشع الغضب، استكمل حديثه قائلاً:

- لكن ليس كل أبناء فينيس (البندقية) ينظرون بلامبالاة إلى السلاسل النمساوية التي تمسك مخالب أسد الشارع (كعلامة للحبس)، كان مازال

١ - سينسيرادا: هو لحن غرامي صاخب للأجراس والأبواق، إلخ، يكون في ليلة الزواج الثاني للأرمل.
٢ - المحكمة رقم عشرة تشير إلى المجلس التشريعي الذي مارس الطغيان الظالم والسرى على الجمهورية الفينيسية، في القرن الثامن عشر، رأت ثقافة المفكرين المحكمة الفينيسية كمفارقة تاريخية في الوقت الذي تبجح فيه الطموح الديمقراطي، على سبيل المثال في العقد الإجتماعي ذهب "جين جاكيز روسايو" بعيداً لكونه أذان المحكمة العاشرة بكونها محكمة دامية.

هناك القليل من الفتيان الأقوياء يتجولون في الظلام وتُقصِف التهديدات الدامية تحت أنفاسهم. وإذا لم يأتي يوم الثأر، وإذا لم يمتد كأس الغضب، ستظل هناك - في كل قصور "ريالتو"، في كل منزل بسيط في "الليدو"، في كل قارب أرستقراطي فخم، في كل قارب لصياد فقير- قلوب تدق بالكراهية لمجرد ذكر اسم النمسا، وكانت فينيس (البندقية) مثل كل إيطاليا تقاد بواسطة العديد من الجمعيات السرية التي كانت منشغلة بنفس الهدف وهو: استقلال الوطن الأم.

لقد سافر البونشينوس عبر القنوات، وكانوا يأخذون الرجال المتنكرة حيث كانوا يذهبون جنباً إلى جنب يرتدون جميعهم نفس الملابس، توقف القارب أخيراً تحت شرفات قصر قديم متهالك، أطلقت المجموعة السعيدة صرخات مرح تمتد عبر الأفق وصاخبة كررها الصدى في البناء الداكن اللون، رفعت يد شخص ما نافذة الشرفة المشبكة وتمكن شاب ذو وجه شاحب وشارب أسود الطويل من الفرار من القنوات، عندما رآه قائد "البونشينوس" وقف رافعا يده وأوماً بإيماءات غريبة، ثم أطلقت المجموعة صرخة مرح أخرى كالسابقة واختفى القارب في الظلام، تبع ذلك القارب قارب آخر بالقرب منه؛ غنى الرجال المتنكرين أجزاء من "هيرنانى" وكرروا التصفيق قائلين:

- دعونا نأكل ونمرح!^١

أغلق رجل شاب الشرفة ونادى شخص ما، أتى رجل مسن أمامه وقال له: -جيوفاني، ستعقد بلادنا الشرقية اجتماع رسمي الليلة، وسيحضر كل أعضاؤها، قم مهامك وأعد كل شيء، سيصل في منتصف الليل قاربان -

١ - دعونا نأكل ونمرح (إيطالي): جزء خورمي افتتاحي "ايرنانى" التي سلى بها المتمردين وقطاع الطرق أنفسهم قبل ظهور الأزمة الدرامية، و"ايرنانى" هو عمل من أربعة فصول "لجويسى فيردى" (١٨٤٤) وتم صياغته بعد دراما (مأساة) لـ"فيكتور هوجو" (١٨٣٠) بنفس الاسم الذي وجد طريقه إلى نص "جروقي" كاستشهاد متكرر، بطريقة ساخرة تثير العمل بالتنوع الذي تميز به جوي أمانيا

واحد تلو الآخر- إلى الباب السري وسيكون في القاعة الموجودة تحت الأرض خمسمئة من "البونشينوس"، ستجد تحت أقنعتهم وجوه أشقائنا المطلوبين والمفعمين بالحيوية. كان الرجل المسن والشاب يمسان بمصباحين، سار الرجل المسن في دهليز طويل مغطى باللوحات، توقف أمام اللوحة الأخيرة التي تدور على مفاصل مختبئة تكشف الدرج الواسع الذي يؤدي إلى الظلام، قاد خطواته المتصاعدة الحزينة بمصباح في يده. توقف الشاب أثناء سيره في ممر طويل من الغرف المغطاة بالنقوش الرائعة واللوحات الجصية أمام غرفة مظلمة ساكنة. قال بصوت منخفض:

- بلانكا، هل أنتِ نائمة يا أختي العزيزة ؟

أجابت بصوت حزين قائلة:

- إنني مستيقظة مثلك يا عزيزي.

ذهب الشاب إلى الغرفة وقال بصوت حنون:

- أنتِ مستيقظة بمفردك في ذلك الظلام.

يزين الضوء القادم من مصباحه البدوار(مخدع السيدة) والصورة الجميلة لتلك الشابة التي تبدو غارقة في أفكارها المؤلمة، ترسم ذراعها الصليب على صدرها لتصلي، وكانت تعطيها السترة القصيرة البيضاء الشفافة، إنها رائعة ليس لكون شعرها أسودا و متموجا يجعلها تبدو كالأميرة؛ فقد كانت هناك أسماء تتوافق مع الخصائص الفردية لهؤلاء الناس مثل اسم "بلانكا" الذي أطلق على تلك الشابة المنتمية لهم، وكان ذلك بسبب جلدتها الشفاف الضارب إلى الزرقة والذي يعتم لون فستانها الرقيق الشفاف، كانت تبدو بيضاء شاحبة قلقة حزينة يبدو ذلك في عينيها الزرقاوتين الجميلتين اللتين لم تخفيهما تلك الابتسامة الرقيقة التي تقربت بها من شقيقها.

استكمل قائلاً:

- أنتِ مستيقظة ووحيدة في الظلام.أمسك يدها ونظر إلى عينيها بنظرة

ثاقبة.

-شقيقتي العزيزة بلانكا، ماالذي حدث لقلبك؟ استبدلت فرحتك القوية فجأة بقلق عميق ومحزن، قد وجدتكَ هنا في أوقات كثيرة راكعة على ركبتيك وتضعين وجهك بين يديك تبكين بمرارة لذلك الحزن المجهول الذي جعلك لم تنبهي حتى لوجودي ومداعباتي ولا لدموعي وابتهالاتي؛ أنتِ لاتجيبيني مثلك مثل الرخام الذي تضعين رأسك عليه، أنتِ الآن لن تبكي، لكن قد تزرع عينك الحزن وأحياناً تركضين مراوغة ومرتجفة إلى ذراعي كأن شخصا ما غير مرئي يهددك، مالمسر الحزين الذي تخفيه عن قلب شقيقك، عن صديق طفولتك؟ ألم أحبك بقدر كافٍ لتثقي بي؟ أترددت ذات يوم لأحقق أي رغبة من رغباتك؟

أصبح وجه الفتاة شاحباً أكثر من أي وقت آخر، وعبرت عيناها عن حزن بالغ. صرخت قائلة:

- عزيزي أوكتافيو.

وعانقت شقيقها.

- صديقي الحسن المعطاء! نعم ...أنت كل شيء لي، قد أمددتنني بحب الشقيق عناية الأب، وعناية وتنسك الأم الحنون عندما كنت طفلة، عندما كان الفرد معتادا على أن يعيش لنفسه فقط، جئت أنت وجلست أسفل سريري وسهرت لراحة شقيقتك اليتيمة التي مازالت صغيرة وجميلة، وفي الفترة التي كانت أكثر الشباب يلاحقون أوهامهم وأزهار الحياة، خاطرت بحياتك وبقيت في الخلف متنكرا ومختبأ وخصصت لشقيقتك السنوات التي قضيتها في بلاد أجنبية بدونها متمتعا بالسرور والمجد الذي منحتك إياه.

قاطعها قائلاً :

- جيد إذاً عزيزتي بلانكا، إذاً حملتي بداخلك ذكري تلك الأيام سأكون مرضيا جدا، أطلب منك باسم تلك الأيام أن تصبي حزنك في قلب شقيقك،

وبذلك يمكنك أن تريحي نفسك ببعض الدموع وتتوقف معاناتك في صمت.

نظرت بلانكا إلى شقيقها بتعبير لا يوصف من الحنان، لكنها سرعان ما أدارت عينها ونظرت لأسفل، جعل الصراع الداخلي العنيف القماش الرقيق الذي يغطي صدرها ينتفض، وضعت رأسها على صدر شقيقها، ثم احت ركبته كأنها كانت على وشك أن تسقط على قدميه، على الرغم من أنها قامت بجهد كبير ورفعت وجهها الشاحب المبتسم لتنظر إليه.

قالت له:

- نعم يا صديقي، إنني أعاني، لكن قلقك الرقيق ضخم حزني، أليس هناك في كل شيء حولنا أسباب تجعلنا نحزن ونبكي؟

أجاب بصوت مرير قائلاً:

- أوه! إن ذلك صحيح، كنت مثل الأبله عندما سألتك عن أسباب حزنك! لقد رأيت وطننا وهو يستعبد وأفضل أبنائه وهم يتم نفيهم وسجنهم، وقد رأيت والدنا وهو ميت على سقالة وأصدقاء طفولتنا مثل ماريو الشجاع الذي أحبك كثيراً وهو يختفي تحت وطأة القتل؛ رأيت شقيقك - آخر نجل لسباق الأبطال- الملاحق الشارد والمجبر على الاختباء بخجل في ظل الآثار التي قامت بمجد أسلافه، وأنت وريثة الثروات الضخمة التي عاشت خارج الحياة البائسة لأجير عادي وتدفعين من عرق جبينك من أجل حق معيشتك تحت ظل اسم مظلم في قصر آباءك المتهم، لكن استريحي، إهانتنا وحزننا سينتهيان قريباً، إن إن الوقت الذي ستصبح فيه إيطاليا حرة قد اقترب.

عندما كنت أتحدث، كانت آلاف القلوب الجريئة والأذرع القوية مشغولة بتحرير قيودنا، قريباً جداً سيتم سماع صرخات فرحة الانتصار في كل مكان في دولتنا من "أباي" إلى جبل "إيتينا"، ومن ثم ستحاط مرة أخرى بالعظمة التي سلبت في طفولتك، سيكون أمام عيونك أفق السعادة الذي مازال مجهولاً في حياتك.

عندما تحدث أوكتافيو، كان وجهه متألقا، كان الإيمان يتوهج من وجهه، كبتت بلانكا أنينها وأمسكت يد شقيقها وقالت له:

- الرب سيحمي جهودك، ويبارك عملك المقدس الذي تخصصت فيه، إن السعادة بالنسبة لي هي التي تأتي منك؛ عندما رأيته مرة أخرى أصبحت بحالة جيدة. عندما سمع أوكتافيو صياحا شديدا -مرح البونشينوس- بعيدا، عانق شقيقته بحماس مفاجئ وقال:

- نعم، صديقتي العزيزة، الرب يحمي قضيتنا المجيدة وسنبتسم قريبا مرة أخرى على تلك الأرض، أسمعني ذلك الصوت البعيد؟ إنه صوت إيطاليا تنادي أبناءها المتناثرين، إنه صراخ يأذن بالانتصار. وداعا، عزيزتي بلانكا، أنت ملاك يصلي وينتظر.....وداعا!

قالت بلانكا بصوت ضعيف:

- أوكتافيو.....!

ومدت ذراعيها خلف شقيقها، استكملت قائلة وغطت وجهها بيدها:

- لم يستطع سماعي.... قد اختفى ومعه الآمال التي أنقذتني من جرميتي.

هناك صراخ يتفجر بداخلي، من أعماق روحي، يكرر تلك الكلمات

الرهيبية: "ماذا فعلت بشقيقك؟"

أجاب صوت جعل بلانكا ترتجف:

- أنتِ بعثيه، أنتِ بعثيه بحزن؛ أنتِ الشقيقة التي ارتكبت جريمة أسوأ من قتل الأخ، أنتِ سلمتيه ليد أعداءه، لكن لماذا أيتها الأبنه الحقيرة لايطاليا؟! لماذا خنتِ وطنك من أجل حب هؤلاء المستبدين الذين استعبدوا الوطن؟ صرخت قائلة:

- ماريو!

وركضت باتجاه الرجل الذي كان ينظر إليها بنظرة حادة، وكان يرسم شكل الصليب بذراعيه ليصلي ورأسه مرفوعة.

أجاب

- نعم.

وأبعدها باحتقار.

- إنه ماريو الذي دفن في "بوسوس" ^١ بواسطة النمساوي، أنتِ أحببتِ أن تسكتي الصوت الوحيد الذي اتهمه أمام الاتحاد المقدس الذي قد قدمه عن طريق اسم إيطالي مزيف..... ماريو الذي دفن في تلك الزنانات التي أرسل إليها الكائنات المفعمة بالحياة ليجدوا سريرا مصنوعا من عظام أسلافهم..... ماريو الذي مزق كفنه ورفع الحجارة الموجودة على قبره وأتى لإنقاذ أشقائه من السقالة التي أعدها الجاسوس لهم وليخبرك من هو القادر على الاستماع لكلمات شقيقك النبيل دون أن يموت من الخجل والندم على أنكِ كنتِ شريكة الخائن، ضحيتِ باسمك، بوطنك، بعائلتك؛ وبحبي من أجل رجل قد باعك مثلما تخليتي عنا، ذلك الصعلوك الذي ضم مشرقنا تحت اسم ماريلى؛ استيفن لاندوربيدج ذلك النمساوي الذي أحببتيه، إنه ابن راديتزكى، إنه ملك هنجرى المفضل، واحد من حجارة الشطرنج التي تستخدمها النساء النمساويات المغرورة لتمزيق سيداتنا.

وضعت بلانكا يدها فوق قلبها كأنها قد تلقت ضربة قاتلة، صرخت قائلة:
- أوه! يا للخرى!!!! أوه! يا للعار!!!!
أجاب ماريو بابتسامة بغیضة:
- نعم!!! إنه خزي وعار سيتم غسله بالدم.... بدم الخائن الذي قد جعلك كأداة ليصل بها إلى الملجأ الذي كنا نعد فيه لحرية وطننا.

تراجعت بلانكا إلى الخلف باضطراب شاحبة كالجثة، ثم توقفت تحت باب وصرخت قائلة:
- لا! لا! لن تقتله! حياة ذلك الرجل تخصني ...إن موته ربما سيكفي تأرك، لكن لن يكفي تأري، أريده يحيا لكي يتذكر دائما خيائته وحبيلأنني قد أحببت مارلى، لاندوربيرج، أو راديتزكى أيا كان اسمه!
قفلت الباب الكبير خلفها، اختفت مثل الظل الموجود بين الدهاليز الحزينة،

١ - حجرة أو حفرة (إيطالى)

صرخ ماريو قائلاً :

- اللعنة عليك!

اندفع نحو الباب وحاول فتحه بتهور.

جلس أوكتافيو على مقعد تحت أساسات القصر المنعزل في غرفة دائرية تحت الأرض مضاءة بمصباح كبير برونزي معلق أعلى القبة، وترأس اجتماع مهيب، كان يلبس فوق صدره وشاحاً أزرقاً يكسوه ذهب سيد البنائين^١ العظيم، يجتمع حوله شباب نبلاء يمثلون أشهر الأسماء في "فينيس"، تمنى المحاربون القدامى اللذين زرعوا الحزن منذ ذهابهم للقتال في أوروبا للبحث عن حرية إيطاليا والمبعوثون من مجتمعات أخرى، جميعهم أن يستنشقوا هواء الوطن، أتوا ليجثوا عنه في باطن الأرض.

قال أوكتافيو بصوت مفعم بالحياة ونبرة ملهمة:

- نعم، أشقائي الشرفاء، دعنا نؤمن أذرعنا المنفردة على حرية بلادنا، سيقودنا الإيمان وعدالة قضيتنا إلى الانتصار، أى تدخل أجنبي سيكون عارا... دعنا نرفضه، وأنت أيها المبعوث النبيل اذهب واخبر أشقاءك في "نابلس" وأشقاءك في "ميلان" أنها آخر مرة سنجتمع فيها، إننا نقول وداعاً للظلام الموجود في تلك الكهوف التي كانت ملجأ لوجودنا المنفي لوقت طويل، سيكون مجلسنا القادم في ساحة القديس "ماركس" وسلاحنا في أيدينا، تحت ضوء الشمس الجميلة، تحيا إيطاليا.

أجاب خمسمئة رجل بانسجام وحماس عاصف:

- مرحى !!!

وفجأة اندفعت سيدة مرتدية رداء أبيضاً باهتاً وغير مهندم نحو الغرفة السفلية ونظرت حولها بخوف شديد، صرخت قائلة:

- استيفن لاندويرج، اهرب، حياتك في خطر!

١ - البنائين: كانت لديها أهمية عظيمة في الخيال الثقافي الأرجنتيني، التي تجند الوطني البارز، رجل الدولة (القديس مارتين، بيلجرنو، ريفدفيا وبينهم سارمينتو) منذ أول محفل ماسوني تأسس في "بوينوس أيرس" في القرن الثامن عشر

عندما سمع الرجل تلك الكلمات، وقف وسحب مسدسا من حزامه وأطلق النار، في نفس اللحظة تم فتح كل المداخل التي تؤدي إلى القاعة الموجودة تحت الأرض، وامتلأت الغرفة بالجنود النمساوين. صرخ الرجل الذي قد أعطى الإشارة بالذهاب باتجاه أوكتافيو قائلاً:
- باسم الإمبراطور، أنا أمرك بالاستسلام، أنت معزول، مقاومتك ستكون فاشلة.

صاح أوكتافيو بثبات رائع قائلاً:

-رفيق الإيطالين! هل تتمنى أن تموت ببطء في ظلام الزنزانة النمساوية، أو هل تتمنى أن تموت الآن - بطريقة رائعة - بهذاق الثأر الرائع؟
أجاب الرجال بصراخ كبير أرعد الحجرة الموجودة تحت الأرض:
- مت الآن!
كرر أوكتافيو:
- مت الآن!

سمع صوت فرقة مرعبة، انشقت الأرض من المنتصف وغرقت الغرفة واختفت وسحبت كل شيء معها، وتركت خلفها فقط على الحواف هاوية عميقة وساكنة كسرت أمواج البحر "الأدرياتيكي" بتذمر حزين، تحرك كل شيء موجود إلى هناك، الشيء الوحيد الذي تبقى هو ذلك المصباح الكبير المعلق بسقف القبة التي يشع منها الضوء فوق ذلك المشهد المميت كالشعله الكئيبة.

في تلك اللحظة توجه رجل ذو ملابس غير مهندمة وهو يلهث وصعد الدرج الأخير المؤدي إلى القصر، عندما رأى تلك الكارثة المخيفة، توقف شاحباً كالشبح وحدث لوقت طويل في الهاوية بنظرة لا يمكن وصفها.
قال:

- الرب يريد ذلك! كل شيء أحببته في ذلك العالم تدمر هنا، إيطاليا! أنا ليك

الآن، سقطت أمام القبر الآمال الهائل سقط سبب بقائي في الحياة، أقسم
بأنني سأحررك أو سأموت.....

استمر الرجل المجهول في الحديث بصوت هادئ:

-وحتى الآن.

لم ينفذ ذلك الرجل قسمه، قد وقعت إيطاليا مرة أخرى في قيود العبودية،
لكنه مازال على قيد الحياة، قد هجره الموت في كل مكان يذهب إليه
للبحث عنه، إن الطلقات التي توجهت إلى رأسه قد وقعت ببطء تحت
قدميه، أضاع فولاذ أعداءه صدره وأعادته ساحة المعركة لحزنه.

ظل الأجنبي بمفرده، أخفى وجهه في يديه غارقاً في أفكاره، اختفى في
الصباح التالي؛ لم نره أبداً مرة أخرى، من كان هذا الرجل؟ لم يعرفه أحد،
انضم إلينا في صمت وتركنا في صمت أيضاً مثل الصورة التي تدخل العقل
في الحلم وتتركه مرة أخرى بسرعة.

عام في "كاليفورنيا" "من أجل إيرنيستو كيسادا"^١

١. سلسلة ساعة اليد

ذات يوم، في المساء، كنت مرهقا وأشعر بالبردوة الشديدة، كنت أدفع فرسي ليصل إلى مأوى "يوشوسما" الكائن تحت الأرض، كان ذلك اليوم في منتصف ثماني عشرة رحلة طويلة وصعبة في الطريق بين "بوليفيا" و"تاكنا".

غادرت بالفعل "مايوري" والجبال شديدة الانحدار التي تحيطها من الخلف وركضت بفرسي بسرعة عبر تلك الأراضي المنبسطة الجافة التي اجتاحتها الرياح الشمالية الباردة وغطتها بالمستنقعات، تلك الأراضي المنبسطة التي تحدها مجموعة من النتوءات الصخرية تكونت بفعل كارثة طبيعية، في وسطها مدخل كهف كان الملجأ الوحيد للمسافر في تلك الأراضي المجمدة الفارغة، وفجأة أثناء عاصفة الرياح التي جعلت الرؤية صعبة جدا، رأيت شيئا ساطعا كان يلمع بين حصي الطريق الصغيرة. رجعت للخلف وأخذت فرسي وذهبت لرؤية ما ذلك الشيء، وجدت جوهرة رائعة ونادرة، أخذتها، لقد كانت سلسلة ساعة يد مصنوعة من اثنتي عشرة

١ - إيرنيستو كيسادا (١٨٥٨-١٩٣٤): ابن "فيسنت كيسادا" نصير "جرووتي" وصديق قريب للعائلة، كان "كيسادا" صغير السن وطفلا في الوقت الذي خصصت "جرووتي" له ذلك النص، أصبح صحفيا متميزا.

حجارة ذهبية من أشكال وألوان مختلفة، كانت مرتبطة مع بعضها البعض بحلقات متلبدة من نفس المعدن، يوجد بها الأردواز (صخر سهل قطعه) وجزء من السندان مرصع بها.

استنتجت أن تلك الجوهرة قد ضاعت مؤخرا من شخص، وحينما كنت أنظر إليها، رأيت رجلا بعيدا يأتي ناحيتي، كان راكبا على فرس ويميل من على رقبتة يحرك العشب الطويل كأنه يبحث عن شيء في الأرض، قد رأيته وركض ناحيتي وبدأت عليه إيماءات الحزن، وذهبت إليه وأظهرت له الجوهرة التي وجدتتها، لا يمكنني وصف تعبير الفرح الذي أشرق على وجهه عندما وضع عينه عليها، انتزعها من بين يدي وأمسكها ووضعها على قلبه، ربطها في الساعة وعروة سترته بشوق يتذبذب بين الوقار والجشع.

انحنى وحياني وشكرني وتوسل إلي لأسامحه على رد فعله. قلت بطريقة ساخرة:

- من المؤكد إن لديك سبب جيد لتفعل ذلك، سيدي، أن تفقد اثنتي عشرة سبيكة معدنية ليست مسألة هينة.

أجاب بنبرة تستشعر منها الحرج:

- أوه ! ليس الأمر كذلك بالنسبة لي، في الحقيقة، كل حجر من تلك الأحجار يحتفظ بذكريات معذبة لاتوصف. صدقته، على الرغم من أن الظلام جعل من الصعب رؤيته، كان صوته المتناغم لشخص شاب يتحدث بصراحة وبدون ترو، واصلنا السير في الطريق معا وأخيرا وصلنا إلى مجموعة من الصخوب مثل ضريح "دولمن" (ضريح من أضرحة ما قبل التاريخ).

نزلنا من على أحصنتنا، وكنا مخدرين من البرد واتخذنا من الكهف ملجأ لنا، كنا نبحث عن مسن هندي أسود كالشجرة المحروقة، ذلك الناجي الوحيد من العائلة التي أبيدت بمرض التيفويد، نهض المسن الهندي البائس من الحجارة ملتويا مثل المومياء لبحث عن السكن أعطى الماء للأحصنة

وأطعمها وغطاها ببطانية، ثم ذهب ليجمع الشجيرات الجافة ليشعل النار التي تعطينا ضوء ومياها ساخنة، أصبحت حينها أستطيع النظر إلى رفيقي، كان شابا وملامح وجهه كانت مبهجة، أظهرت قبعته لون وجهه الأصلي وكانت تصنع هالة حول أعلى جبينه، تلونت باللونين الأحمر والأصفر بفعل الشمس أثناء الرحلات الطويلة أو أثناء العمل الشاق.

أدى وقت ومكان مقابلتنا، والظروف الغير متوقعة، وخاصة اختلاف أعمارنا إلى الثقة المتبادلة بيننا، صنعنا القهوة معاً، وضحكنا على أسلوب (بيرلت يسرفين)^١، لكن عندما سكبنا القهوة أدركنا أنها بدون سكر، وضع رفيقي كوبه بحزن على الصخرة التي كنا نعتبرها كالطاولة ونظر إلي بحسد عندما شربت قهوتي التركية.

تذكرت أن لدي بوبونيرة^٢ في كيسي مليئة بكبسولات السكر الصغيرة التي تعطيها الراهبة لضيوفها المحبوبين. قلت له:
- هيا أيها الولد المدلل.

وفرغت محتويات البوبونيرة في كوبه.
- هذه هي قهوتك المسكرة، تقدم واشربها، لكن من الآن ستكون معتادا على أفضل المذاقات في حياتك.
ظهرت ابتسامة متواضعة على شفتي الشاب جعلت ابتسامتي تختفي، حيث تذكرت الكلمات التي قالها أثناء استعادته سلسلة ساعة اليد، تشجعت عن طريق الألفة الحميمية الموجودة بيننا وطلبت منه أن يخبرني بقصة الجوهرة، وأخبرني بالآتي:

١ - أنثلم بيرلت يسرفين (١٧٥٥-١٨٢٦) محام فرنسي، رجل اقتصاد، وعالم طبخ مشهور بسبب مقاله الرائع عن فن تناول الطعام، عالم التدوق.

٢ - بوبونيرة (فرنسي) صندوق مزخرف يوضع فيه الحلوى.

٢. حزن الأم

ولدت تحت قوة القدر العدائي حيث توفي والدي في ينشمايو بالقرب من "أركيوبو" وهو يدافع عن مدخل مدينة "صالتا" ضد الغزاة؛ وصلت إلى عالم دموع الترمل وهجر اليتيم، لكن ذلك ليس صحيحا؛ لأنني رأيت أول ضوء نهار وأنا بين ذراعي أمي المهتمة بي، وعندما يمتلك الطفل أما فإنه يمتلك كل كنوز العالم، يكون ملك منزلة ومملكة رائعة: هي قلب أمه.

ذهبت سنوات حياتي الأولى بسلام مثل فجر الربيع، كان منزلنا الصغير على ساحل نهر "تشيلي" نظيفا وهادئا تحت ظل أشجار التين والكمثرى، كان دائما لديه روح بهيجة، وكانت عيون والدي تشرق بحنان قوي من أجل السعادة.

حل الليل وبدأت أنام بين ذراعي أمي بعد قضاء اليوم في اللعب والقراءة بجانبها عندما كانت تجلس في غرفتها تصنع ملابس دانتيل، ولا يمكن تخيل حياة أسعد من التي نحياها، لكنني عندما كبرت وبدأ العقل يشرق ضوءه البارد والصارم على روحي، بدأت تلك الأسراب الجميلة تتبدد وظهرت الحقيقة الحزينة والمجردة أمام عيني، رأيت أمي منهكة من العمل؛ ولهذا استطاعت أن تمدني بالفرحة والراحة، قد دفعت ثمن فراشي المريح ووجباتي الذيدة والتعليم الذي تلقيته في أرقى المدارس في "أركيوبو" عن طريق الساعات الطويلة جدا والحرمان الصعب .

تغير حالي، توقفت عن كوني ولدا مشاكسا وأصبحت رصينا ونشيطا، كل ذلك أدهش معلميني الذين كانوا غير سعداء حتى ذلك الحين بسبب عدم اهتمامي بدراستي.

وعندما كنت أذهب إلى المنزل وأعبر عتبة منزلنا الصغير، كنت أصير مرة

أخرى نفس الطفل الأناني الذي يسمح لنفسه بإتلاف قيمة عمل والدته الشاق.

كانت أُمِّي تنظر إلي بسعادة عندما كنت قريباً منها، يبدو من الطبيعي أن تضحي بنفسها لأجل مصلحتي، لكن حدث شيء غيرني تماماً.

ذات ليلة، كنت نائماً بجانب والدتي حينما كانت تخطط في ضوء الشموع، كانت رأسي تستريح في حضنها. عندما أيقظني فجأة صوت عالٍ، فتحت عيني ورأيت امرأة قوية ومتينة بمظهر رجولي تستند يدها على فخذها، تقول كلمات بذينة لوالدتي، صرخت قائلة وهي تلوح بإصبعها مهددة: - دعيني أخبرك سيدة ماريا، دعيني أخبرك أنني لم أعد أتحمل تأخير أربع أو ستة أيام عن دفع الإيجار. إن خمس بيزات مبلغ ضئيل يمكن أن تجديه في أي مكان حتى أسفل الحجر أنا لم أنتظر حتى تقرري أن تعطيني إياها خصيصاً أن هناك من لديهم استعداد ليعرضوا علي ثمانية بيزات ويدفعونها مقدماً.

أجابت والدتي، وكان صوتها يرتجف وعيونها مليئة بالدموع: - أوه! سيدة جيرباصيا، أتمنى ألا تكونين قاسية وتلقي بي خارج منزلي، من فضلك تذكري أن خلال العشر سنوات التي عشت فيها هنا كنت دائماً أجلب لك المال في أول الشهر، لكن أوه! أنت تعرفين كيف انحطت قيمة العمل الآن خصوصاً عمل الخياطة، انظري إلى لبس الجنود الموحد، إنه مربوط جيداً كان لديهم قطع كثيرة ووحدات في الخلف ومازالوا يدفعون ريالاً واحداً لكل واحد، لقد صنعت تسعاً وتسعين منها وهذا هو الأخير؛ أضع فقط اللمسات الأخيرة الآن، غداً سوف استلم اثنتي عشرة بيزات ونصف، خمس منها لك والباقي لمدرسة ابني وليشتري حذاء. - حذاء! ولماذا إذا كنت فقيرة جداً؟! لماذا لا تجعلينه معتاداً على الذهاب حافي القدمين؟ وإذا كنت لاتستطيعين دفع الإيجار، لماذا تنفقين كثيراً على

دراسته؟ إنني أقول أنك يجب أن تضعي المجرفة في يده وتجعلينه يذهب إلى المزرعة القريبة.

- أوه! سيدة جرباصيا كم واضح أنك لامتلكين أطفالا!
- أطفال! يارب انقذني من ذلك البلاء، سأترك لك كل ذلك، لكوني جميلة وبدينة وكونك نحيلة وذابلة، يأكلك الصبي وأنتِ على قيد الحياة، إنكِ تنفقين كل شيء عليه.

صاحت أُمي قائلة:

- بني المسكين!

وابتسمت بهرارة وداعبت رأسي، ماذا أعطيته غير حياه البؤس؟ أوه! كم كان حظنا سيكون مختلفا، إذا عاش عزيزي سوليس!

قالت السيدة:

- كان قد يكون على قيد الحياه إذا لم يذهب مثل المجنون ليعتنى بالآخرين، لماذا لم يفعل مثلما فعل زوجي، كان حاملا رأى السياسين يبدؤون بالتحريض، ويغيرون القبعات وتعلم كيفية التفاوض مع كلا الجانبين بشكل لا يصدق. ربا! هناك رجل مرهق لديه طفل وعلاوة على ذلك متزوج أيضا لا يمتلك الحرية، كان يجب أن ينظر كم سبب لديه لكي لايجازف بحياته!

قالت أُمي:

- أنا لا أحكم على مافعله زوجك، لكنه من الواجب أن يقاتل من أجل الوطن الذي غزاه الجيش الأجنبي.

قالت السيدة:

- الوطن! ها! ها! ما زالتِ تصدقين تلك الكذبة؟ أهنأك أحد يفعل شيئا ليس لمصلحته الشخصية؟ أستمري، لا اعتقد أنك مغفلة!

عندما سمعت تلك الكلمات الوقحة، أردت أن أقفز وأذهب إلى المرأة، لكن أُمي أمسكتني بحزم.

أجابت أُمي بصوت عذب كما كان هناك وقاحة وقسوة في صوتها قائلة:
- إن ذلك جيد بما فيه الكفاية سيدة جريباسيا، غدا في الثامنة صباحا سوف

آخذ ذلك العمل للمتعهد وفي التاسعة سأستلم مالك الذي وعدتك بأن أدفعه لك منذ الآن.

قالت السيدة:

- سأعدهم، لكن دعيني أحذرك بأنك لن تتأخري مرة أخرى، لديك وقت حتى الغد في التاسعة ولن تتأخري بعد ذلك، هل تفهميني؟ ثم غادرت.

كنت غير قادر على إطلاق غضبي، انهمرت الدموع التي جففتها أُمي كأنها كانت تحاول أن تريحني، لكنها كانت تبكي على نحو مكرر، في اليوم التالي، تركت المدرسة وذهبت للعمل في منزل يهودي إيطالي يعمل في تجارة المجوهرات ومواد الخردوات، كان سامويل ترادى رجل يتكلم بنبرة صوت جميلة جدا وقال أشياء رقيقة، لكنه كان بخيلا وطماعا، ابن سلالته، كان يعيش في بلد أينما كانت فضائل المرأة الجميلة تجعل الحياة المنزلية جنة حقيقية، كان يعيش وحيدا، كان مجردا من المشاعر الإنسانية ووضع عوضا عن ذلك السجل المالي لمخزون مستودعه.

ذات يوم كان واثقا من موهبته الكتابة ومراسلته التجارية، عانقني ودعاني عزيزي، وعرض علي عملا لمدة خمس عشرة ساعة في اليوم في مكتب وخلف آلة صغيرة في غرفة وعلى منضدة بمقابل أجر شهري عشر بيزات، قد أثار اقتراحه البخيل غضبي، لكنني فكرت في أنه مهما كان ذلك الراتب ضئيلا فإنه سيساعد أُمي، وافقت دون أي شكوى أو طلب وفورا لاتهام الاتفاق، قدم لي اليهودي أجر الشهر، أخذته وأنا منتصر لأُمي وأخبرتها بأن ذلك نصف أجرى الشهري

إنها كذبة حنونة جعلتها تقبل قرارى، عارضت بشدة وبسبب ظروفنا استسلمت لكنها وافقت على ذلك بعد ذرف دموع كثيرة، كانت تلك الليلة الأولى التي أغلقت فيها الباب ووجدت نفسها وحيدة في المنزل الذي عاشت فيه معي منذ ولادتي، وكانت الليلة التي أمضيتها معها وأصبح أُمي

أقل، شعرت بكل ساعة مرت وبقدر ما كنت أحاول أن أكون هادئاً حين اتخذت قرارى، كنت مكسور القلب وكانت عيوني مليئة بالدموع.

فى الصبح التالى، عندما كان ضوء الفجر الأول يشرق على المكتب الذى يوجد عليه العمل المنتظر، ومفاتيح المستودع الذى توليت مسئوليته، فهمت حينها جدية مهمامى، منذ تلك اللحظة توقفت عن كونى صبياً وأصبحت رجلاً، وعندما ذهبت لرؤية أمى لاحظت ذلك التغير، كانت رد فعلها هى الابتسام بفخر، لكننى بعد ذلك سمعت تنهاتى وتذمرها تحت أنفاسها.

- أوه! أيها الفقر! أيها الفقر! خطفت الأطفال من أمهاتهم عندما كانوا يضحكون ويتسمون فيجب أن يلعبوا فيه، نشرت بذور حزن آدم، واعتدت أنا وأمى شيئاً فشيئاً على ابتعادنا عن بعضنا البعض وكان يتم التعويض عنه بالمتعة الخاصة التى نستمدّها من أيام الأحد التى كنا فمضيها سويًا من السادسة صباحًا إلى التاسعة مساءً، كانت تلك الأيام بمثابة احتفال لأمى البائسة، ربما كانت تستمد ما تحتاجه خلال الأسبوع، كانت تنتظرني بالهدايا ووجبتنا فى تلك الأيام ولانم، كنا نستمتع ونمسك أيادنا أسفل ظل أشجار التين التى تحفحف أوراقها بفعل الرياح ونسقط فواكهها على الطاولة ونأكلها، نضحك ونخطط للمستقبل، المستقبل الذى صورّه خيال أمى المفعم بالحيوية - عندما كانت شابة وابنه ميسى - بمشاهد ممتعة فى ريف "أركيوبا"، تمنينا أن نطلق أحلامنا فى هواء الواقع، ذهبنا لنمضي باقى تلك الأيام البهيجة فى البلدة، أشرنا إلى الأماكن التى بنينا فيها منزلنا والحدائق والبساتين المحيطة.

وهكذا مرت السنوات، أصبح سامويل ترادى سعيداً معى فى كل يوم يمر، جعلتني الممارسة محترفاً فى العمل خلف الآلة الصغيرة التى صنعت بنمط غير عادى، وعلى الرغم من المديح الكثير والمداعبات التى كانت تنهمر على منه، إلا أنه لم يرفع لى ابداً ذلك الأجر البائس حتى ولو بمقدار ضئيل جداً.

ذات يوم قد أعلن بأنه سيرك "أركيوبا" وينتقل إلى "فالبراسيو"، مخططاً لتوسيع عمله، عرض علي أن يأخذني معه، لكنه قال فوراً أنه سيأخذني معه بنفس الشروط التي كنت أعمل بها في "أركيوبا". كان من الصعب أن أنتقل بعيداً عن والدتي، وكان الأصعب هو الألم الذي سينتج عن فراقنا، لكنه كان ضرورياً أن أستكمل الوظيفة التي بدأت فيها والتي حققت فيها تقدماً رائعاً، وبالفعل قد صنعت سمعة طيبة مع سامويل والتي ستأخذ وقتاً طويلاً لأحصل عليها في أي مكان آخر، وكما أن أثناء ذلك الوقت ستفتقد أمي راتبتي الذي -ضئيل كما كان- كان يذهب إليها، تم دمج ذلك السبب بالأسباب الأخرى التي أقنعتني باتباع ذلك اليهودي في مطاردته الجديدة.

قبلت والدتي بتلك الكارثة الجديدة باستسلام طفولي وأخفت دموعها لتجعل السفر أقل مرارة بالنسبة لي، ابتسمت على الرغم من أن قلبها مكسور لرحيلي القادم، تحدثت عن عودتي السعيدة وعن الفرحة التي سنشعر بها عندما سنرى بعضنا البعض مرة أخرى وسنكون أخيراً مع بعضنا البعض للأبد.

تظاهرت بالهدوء وقد ألهاني عن حزني؛ كنت تقريباً سعيداً عندما حان يوم فراقنا. سنغادر بعد الغروب لنعبر الصحراء الحارة التي تفصل "أركيوبا" عن "ايسلي" بالليل، قد توقف وداعنا فجأة؛ فقد جاء سامويل ليقول وداعاً لوالدتي، لكنها لم تكن موجودة في المنزل، أخذني اليهودي من العتبة التي انتظرت فيه والتي تركت عالمي الكامل وسعادتي خلفها، فقط عندما شعرت كم يكون الألم الذي سأعيش فيه بعيداً عن أمي، كان من الممكن أن أحل التعهد الذي عقدته مع اليهودي، بالفعل سأبقى في الخلف.

لقد غادرنا، كان هناك ظلام، وأشرق القمر بضوئه الحزين على قبة المدينة البيضاء، وأضاف شيئاً رائعاً على الجانب الشرقي ساعد على زيادة حزني، غادرت دون رؤية والدتي، صليت في صمت، وخانقت تنهداتي عندما شرح

سامويل تفاصيل العمليات التجارية لينفذها في "تشيلي" وملخص مهامه الجديدة كنائب له في المتجر الجديد، أخذني وهو غارقا في تكهنات أعماله في المدينة البيضاء التي كان فيها منزله، من "ميستي" الرائعة والريف الفاتن دون النظر أو التفكير فيها ولو لمرة واحدة، تلك هي الطريقة التي غادر بها أسلافنا الكهان الذين كانوا يتبعون رائحة فاكهة مصر.

رأيت شخصا جالسا بلا حركة في منعطف الطريق فوق منحدر التل، كانت أمي، لم تريدني أن أجرب ألم الفراق في منزلنا وذهبت هناك أينما انتظرتني وهي تبكي، عندما اقتربت، وقفت تجفف دموعها وعانقتني وحاولت جعل صوتها أكثر ثباتا لتقل لي آخر نصيحة، ثم باركتني ومشيت منفردة وفورا سجدت وبدأت تصلي، وتابعت انصرافي بعينها حتى وصلت إلى شوارع "يانهورا" الضيقة والعاصفة والرؤية الضائعة هناك.

كنت مرتبكا وحزينا بسبب توديعها لـ سامويل، ولماذا لم تطلب منه أن يعتني بولدها، أمي البائسة! أحيانا كانت تعلمني كيف تعرف أن تجعل أي طلب لتلك الروح المبالية شيء عبثي.

بعد شهر، أقمنا في "فالبراسيو"، وتمتع مخزن سامويل ترادى بسمعة عظيمة، تعلم ابن إسرائيل كيفية تشغيل الأعمال المربحة وكف عن فحصه للقطع الذهبية، بدأ التعامل في المواد الغذائية، اشترى سفينة وبدأ التجارة على طول الساحل بمساعد جديد كان رفيقه قائد السفينة كان دافيد ايسكار رجلا مشهورا، يهودي يبدو مثل قاطع الطريق ذي بشرة داكنة وبغيضة، ذي عين خائنة.

عادت علاقة ديفيد وسامويل بعد فترة طويلة، كان قد تم قطعها في مكان آخر، وذات يوم تجددت عندما تقابلا على شاطئ "فالبراسيو"، كان الرجلان مختلفين في المظهر الخارجي، لكنهما يتشاركان في نقطة وهي

أن كليهما طماعان، قد جعلهما ذلك الشعور ينفصلان مثلما تفعل باقي المشاعر الشريرة، لكن في حالتها قد تم دمج المشاعر الشريرة، الطمع جمعهما في قيود مشدودة، جعلهما يعيشان كأنهما شخص واحد.

في ذلك الوقت بدأت الثروات الجديدة التي تم اكتشافها في "كاليفورنيا" تنتشر في كل مكان في العالم مثل التيار الكهربائي الذي يقود السفر العالمي إلى أرض رائعة، أصبحت "تشيلى" مهجورة وكانت صوامعها فارغة كأن كل شخص اندفع إلى ساحل الذهب المتجدد ويحلم بأن يقذفه إلى الثراء.

رأى كل من عامل المنجم، والفلاح، والتاجر، والسمسار، والمغامر قلاعهم الخيالية هناك، وانطلقوا ليجدوها، كان المحيط الهادئ مليئاً بسفن الرحلات البحرية من كل بقاع الكرة الأرضية، جعل الرجال يتنافسون للحصول على المعادن النفيسة المخفية تحته، لم يعد هناك حاجة لنقل أن سامويل ترادى كان واحداً من اللذين تولوا تلك الملاحقة، عقد سامويل المؤتمرات مع ديفيد ايسكر، حيث استأجر السفينة الأخيرة المليئة بالقمح، والدقيق، وقريد اللحم، جهاز الأشياء الأكثر قيمة من عمله في المجوهرات وباع كل شيء في مستودعه، نظم مجموعة من الأطفال العاملين، جمعهم تقريباً أكبر أو أصغر مني، من الطبقات الفقيرة، ثم نقلهم على متن السفينة ووظفهم في مهام على متن السفينة.

أتى مبتسماً ليراني ولمس خدي بلطف وقال:

- عزيزي أندريسينو، بالطبع أنت ستأتي معنا، أنا لا أستطيع تركك خلفي، لأستطيع، خصيصاً الآن؛ فأنا على وشك صنع الملايين في تلك البلدة الذهبية فكرت قائلاً:

- وماذا عن أمي؟

لكن ذلك المجهول الذي أغراني بأفاهه المتنقلة جعلني أقرر أن أتبع اليهودي

إلى "كاليفورنيا" مثلما تبعته إلى "تشيلي" دون وضع أي شروط.

كتبت لأمي وعرضت الأسباب التي تجعلها توافق على المكان الواسع الفسيح والهائل الذي سيفصل بيننا، غادرنا خليج "فاليراسيو" بعد ساعات قليلة وتوجهنا إلى البحر، جلست عند مؤخرة السفينة "ليوجي" المحاطة بالأطفال العاملين، شاهدت الميناء وتلاله الخضراء المنقطة بالمنازل والحدائق الممتعة المزروعة عندما تركناها خلفنا.

عندما تلاشى التل الأخير واندمجت السماء الزرقاء مع المحيط الأزرق، بدأ الطفل المسكين يبكي، كان من الواضح أن معظمهم كانوا أيتاما؛ لكنهم تركوا خلفهم أرضهم الأم الصبية ونسيمها اللطيف وبالفعل قد اشتاقوا إليها.

منذ أن أخذنا استراحة في ميناء "كاليو"، وقفنا هناك وبالتالي كان لدينا القدرة على رؤية مدينة "ليما" الجميلة، تلك الواحة المحاطة بالأراضي البور، لم يصل الضباب بعد بقوة كاملة ليحجب جمال جبل "كاريزل"، أو عطر المساء بالمدينة، ومازال يشير إلى مكان "الأمّ" المحبوب وجميلته "البيريشولي"^١ هناك أيضاً مثلما في "تشيلي": حمى ذهبية تصيب رأس كل شخص، استأصل آلاف الرجال منازلهم وعائلاتهم واتجهوا نحو السفن التي رفعت المرساة في كل ساعة من ميناء "كاليو" متجهة إلى "كاليفورنيا"

أخذنا معنا مسافرين من هناك، كنا مستعدين لرفع العلم للتقدم في طريقنا عندما ظهر رجل وطلب أن يركب على متن السفينة مع أخته وظف نفسه كبشار بعد شرح مهارته كبشار "لدانيل" الذي كان مسئولاً

١ - مانويل أمّ وجونيت (١٧٠٤-١٧٨٢): محافظ أسباني وأصبح بعد ذلك نائب ملك "بيرو" (١٧٦١-١٧٧٦) كان عاشق "ميكايل فيلاج"، تعرف على كابريشولي (١٧٣٩-١٨١٩) ممثلة شابة كيرولا في "بيرو" وفقاً لـ "ريكاردو بالما" أنشأ ذلك الأسم لآزدرء مجموعة من الكلاب، والهنود، واعتاد على توبيخ رومانسية "فيلاج" المخزية مع "أمّ".

كان اليخندرو ضابط بحرية انفصل عن اسطوله لأسباب سياسية، كان شجاعا، أقال نفسه من مركزه لأنه كان لا يفعل شيئا أبدا أكثر من جر الأسلاك وإصلاح الشراعات، عندما خرجت أخته، لم أرَ مخلوقا رائعا مثلها، في الواقع إنها فتاة لطيفة من "ليما"، كان كل شيء فيها رشيقا وجميلا، من شعرها الطويل إلى قدميها، كان اسمها- استيلا - مكتوبا في عيناها السوداء وكانت تنظر إلى بنظرة عفيفة وحسية، كانت رائعة حيث جعلتني صبيا يحلم بالجنة، لكنها أثارت عواطف عنيفة ومخيفة في الأرواح الرجولية.

منذ أول مرة رأينا فيها بعضنا البعض لفت انتباهنا انسجام رقيق، وبدأ شعور غريب يجعل قلبي يخفق - شعور الحب الأخوي -، شعرت بالراحة بعدما تخلصت من مشاعر الأنانية والحق.

تنفسنا هواء السماء الزرقاء للطفولة، أحببنا بعضنا البعض كطائرين راحلين، وكملكين ضائعين في الفضاء، كنا دائما مع بعضنا البعض في جولاتنا على ظهر السفينة، وفي قراءتنا، وفي صلواتنا، كان من المستحيل أن نعيش الحياة بأي طريقة أخرى، كانت محادثتنا لاتعرف نهاية، تحدثت لي عن والدتها المتوفية - وكانت أُمي بعيدة جدا - جمعت ذكرياتها السعيدة بذكريات طفولتي المتهجمة التي استهلكت بواسطة الدراسة والعمل، أمضينا الوقت في اللعب بأزهار الياسمين المفتوحة بقرب نهر "ريماك"، مزجت حياتنا سوياً في الماضي والحاضر، أمتلك كتباً في المعرفة أكثر من استيلا، وهي تعرف في الحياه أكثر مني، أوضحت لها خطوط العرض التي أبحرنا عليها ووجهت عينيها نحو خطوط الخريطة؛ نهتني لأرى نفس سامويل وديفيد الدنيئة في نبرة صوتهما وتعبيرات وجوههما.

رحب اليخندرو بكل سرور بتلك المودة التي استبدلتها بالعناية بشقيقته،
وسمحت له بتكريس حياته لمهام منصبه دون القلق عليها.

في واقع الأمر، قررت منذ أول يوم تقابلنا فيه أن أكون خادم استيلا
الفارس، أعطيتها حجرتي في السفينة، قدمت وجباتها على الطاولة وتركت
بخل اليهود الحقير، وأحاطها بكل الرفاهية التي تستطيع الحصول عليها
على متن السفينة، وضعت وسادة لينة على سطح السفينة وجلسنا هناك
وقضينا وقتا طويلا كانت الأمسية جميلة تابعا بأعيننا الخطوط العريضة
للنجوم وأمواج المحيط.

-يجب أن تسامحيني!؛ لأنني لفت انتباهك لتلك التفاصيل السخيفة،
من الأفضل أن تدعي عقلي يستغرق في تلك الذكريات التي تركت بصمة
ساطعة في حياتي!

أجبرتنا دفة القيادة في السفينة بأن نتوجه إلى "باناما" والتوقف هناك
لأيام قليلة لنصلحها، وجدنا الشوارع، والمنازل، والفنادق تم غزوها عن
طريق مهاجرين "اليانكي" (أحد أبناء انجلند بالولايات المتحدة) بكل
فئاتهم وديانتهم- جنود، وقطاع طرق، وقناصي الحدود، والكويكر (أحد
أفراد جماعة بروتستانتية)، والمورمون، ومناجين الأرواح - كلهم في الطريق
إلى "كاليفورنيا" محولين المدينة إلى جلبة حقيقية، وقد نفذوا كل الطرق
الغريبة للاستيلاء عليها.

جمع شخص ركاما من الحجارة، تسلق إلى القمة؛ لكن آلاف القطع
الحجرية سقطت فوقه، سحبته إلى أسفل قاعدة الركام، تركته نصف ميت،
ورأينا هناك ملاكمين همجيين كانا اثنين من المبارزين بالسيف، طعن
أحدهما الآخر عندما غرزا أسلحتهما في نفس الوقت وسقطا كلاهما ميتا
على الأرض وسقطت أسلحتهما بجانبهما في المكان الذي استكمل الشاهد
فيه معركتهما وأرسل اثنين أو ثلاثة آخرين إلى العالم الآخر.

أدهشتني تلك المشاهد ومظهر أبطالها، لكن كان لدي الفرصة لاحقا لتعلم أن الإنسان اليانكي عملاق، بين كل هؤلاء الرجال كان هناك رجل واقف بقامة قصيرة كأفراد سلالته، كان لديه بشرة نحاسية اللون، ورأس مليئة بالشعر الأسود ولديه أسنان حادة وعيون جشعة ينظر إلى ستيلا بنظرة ثابتة وبجشع قلق، شعرت أن الرجل يكرهني كأني اعترفت له بأنه عدو، كانت استيلا معتادة على تضبط انفعالها وتنظر نظرات عابرة لجمالها الجذاب الذي الغلف بالخوف من نظرة الرجل الشريرة العنيفة المستمرة والتي لاحقتها حتى عودتنا إلى متن السفينة، لكننا بعد أن ضبطنا الشراع وكان وشاح استيلا الأبيض يتموج عبر نسيم المساء باتجاه الأرض، رأينا رجلا قرب الميناء يتكئ على شجرة جوز الهند، لا يتحرك ويثبت نظره على سفينتنا. تحركنا بعيدا عن الشاطئ، واتقربنا من ساحل "باغا" المختفي في ضباب الأفق، لكن الشعور بالرعب الذي تركه المهاجر في عقل استيلا لم يتلاشى بسهولة، وسحقها القلق وذلك الخوف الطفولي الذي لم يسمح لها بالخروج إلا برفقه شقيقها.

عندما كنت أحاول أن اقنعها بالتجول كل ليلة، أوقفتني بتعبير مخيف على وجهها، سألتها:
- ما الذي يخيفك؟ ألسنت بجانبك؟
أجابت:
- أوه! أندريس! أنت مازلت صبيبا وغير قادر على حمايتي.
- حمايتك من ماذا؟ أليس هنا أمان تماما؟
- لأعرف! لكن أعرف أنني خائفة جدا من أن أقضي لحظة هناك بعد حلول الظلام، ارتجفت عندما أفكر في أنني ساقضي أمسيات طويلة على ظهر السفينة، هناك اثنين من الأطفال بمفردهما في الظلام..... اندريس.....!
بالنظرة المخيفة النحاسية اللون تلك التي يمتلكها الرجل! اتذكرها؟ تذكرتها، فعندما نمت رأيتها في أحلامي، عندما كنت يقظه رأيتها تنتقل في كل تفكيري وسببت لي الحزن في كل ساعة. نشر القلق والخوف الذي عذب

استيلا ظل الحزن على حبنا الأخوي وأزال سحره.

في النهار، عندما أشرقت الشمس بأشعتها الذهبية على كل شيء يحيط بها، ضحكت لأول مرة على مخاوفها الغير منطقية ووعدتني بأنها ستتركهم خلفها، لكن حالما حل وقت الظهيرة المتأخر وحل من بعده المساء وامتد ظل الشراع فوق البحر الأزرق المظلم، تلاشت بهجة استيلا، كانت تحجز الفتاة المسكينة الحزينة العميقة نفسها في التفكير في حجرتها وتقضي الليل مغطاة برداء طويل، تجلس بجانب شقيقها الذي ظل ساهرا يراقب دفة القيادة في السفينة.

أدرك اليخندرو مزاج رفيقته الكئيبة وحاول أن يكتشف سببه، لكن استيلا اخفته عنه أجبرتنني على الصمت.

أصبحت الرحلة المبهجة مملة ولاتطاق، اشتقت إلى نهاية الرحلة البحرية حيث النقطة التي ننفصل فيها على أمل تغيير ما يحيط بنا ورؤية أشياء وأماكن جديدة.

أخيرا في صباح يوم في مايو، وفي الفجر، نظرنا إلى الأفق ورأينا غابة الصواري بها أعلام لكل دول العالم مرفوعة فوقهم، إنه خليج "سان فرانسيسكو"، فقد وصلنا إلى كاليفورنيا -أرض الأحلام الذهبية- وعندما نزلنا إلى المرساة بين حشد من السفن، لاحظنا أن أغلبيتهم مهجورين ومهملين مثل السفن الرائعة للحكايات الشرقية، تتأرجح للخلف وعلى المياه، ملونين ومزينين بالأعلام، لكنها صامتة ووحيدة تماما.

سئمتك الإجابة عن اللغز الغامض قريبا جدا على متن سفينتنا، بعد ساعة من وصولنا هجر طاقم ملاحو السفينة واندفعوا للانضمام إلى كتائب المغامرات العامرة بمجارى أنهار "ساكرامنتو" الحاملة للذهب.

وجد اليهودي أفراد طاقمه قد صاروا وكأنهم أطفال معزولون وبدون وسائل للهرب، ظلوا أينما كانوا، على الرغم من أن سامويل يخاف من أن يتخذوا من هؤلاء الجنود قدوة، داعبهم وكأنه أب لهم ولم يفقد رؤيتهم وتركهم محبوسين في قبضة السفينة، ذهبنا إلى الشاطئ لنبحث عن مكان للإقامة، إنها ليست مهمة بسيطة أن ندفع السفينة إلى أحد الأرصفة عندما كنا محاطين بسفن مليئة بالناس تكافح لتقفز إلى الشاطئ، أخيرا وبعد انتظار طويل كنا قادرين على وضع أقدامنا على الشاطئ الذي اشتاقت إليه كثيرا.

وجدنا الشاطئ مليئا بالأمثلة التي تركها أصحابها الذين لم يكن لديهم الوسائل لينقلونها وكانوا غير قادرين على إيجاد مكان ليخزونها، كان ينتشر هنا وهناك أقفاص، وصناديق مصنوعة من الجلد المغربي الجيد، اعترضت طريقنا ولم يكن هناك شخص يحاول نهبها، ولم يكن هناك صدى في أقفالهم ولم يتم لمسهم؛ وهكذا قد سحق الظمأ للذهب الطمع في كل البضائع الأخرى.

كانت المدينة تبدو كالغريب القريب كأنها كانت من الميناء، قد تم نصب عدد هائل من الخيام من كل أنواع القماش الكتاني والألوان - من جلد الجمل العربي الداكن والتطريز الأحمر الصيني- وبسطت بجانب المنازل مصنوعة من الخشب، وشوارعها التي لانهاية لها المليئة بمجموعة من الأفراد المشاكسين والمهتاجين كلهم مدمجون ببعضهم البعض، يبدو وكأنهم يتحدثون جميع لغات العالم، كل شيء كان من لغة "سيربانتس" وقوقئة الدجاج المزعجة.

كان العنصر الياباني -أحد أبناء انجلند بالولايات المتحدة- يسيطر دائما على المراكز التجارية العالمية، كانت كل الفنادق والحانات يانكية وأيضا المسارح، وكانت المؤسسات التي تعطي الضمان على الحياة وممتلكات

الأفراد في وسط تصادم الشخصيات المعارضة والمصالح يانكية.

كان كل شيء يتكهن بأن تلك السلالة العملاقة - التي تخصصت لتحلق في السماء أو تغرق تحت ثقل حجمها قريباً ستضع راياتها المتلألئة هناك. بدأنا نصنع طريقنا عبر مجموعات متنوعة من الناس تتوجه إلى كل الاتجاهات.

تعهد لي الملازم اليخندرو بالاهتمام بشقيقته، مشى في المقدمة يحمل أمتعتها الخفيفة على أكتافه، واتبعه سامويل، رجع اثنين منا إلى الخلف ماسكين أيديهما يتبادلان أطراف الحديث بسعادة، فنتت استيلا لكونها مرة أخرى على الأرض، تنفست النسيم المعطر بسرور هب في الروضات المحيطة، ترتدي نسيجا قطنيا أبيضاً وقبعة صغيرة من القش أعلى شعرها المجعد الطويل، تبدو منتعشة وجميلة كصباح الربيع؛ ضحكت ونست مخاوفها بثقة بالغة، وصاحت بصرخات ضحكتها الفرحة قائلة:

-ياإلهي! يالها من مدينة جميلة! انظر إلى تلك التلال المغطاة بأشجار الصنوبر الطويلة! انظر إلى سفح "الجرينجا"، وذلك الرجل الراكب على الثور! ونظرت إلى سرب من الطيور البيضاء التي تحلق في السماء وسمعت أغانيها. ماذا يفعل أولئك الرجال هناك، أولئك الذين تراهم في نافذة الفندق؟ إنهم يلعبون لعبة الزرد! كل شخص لديه أكوام من حجارة صفراء أمامه.....أوه! إنه ذهب!....ذهب كاليفورنيا، يالها من تعبيرات غاضبة على وجوههم! أوه، إنني متأكدة بأن اللعبة ستؤدي إلى القتال، كان يبدو أن جميع الرجال يحملون بنديات.... أوه...!

تلاشى صوت استيلا، وفجأة أطلقت صرخات الرعب؛ حيث رفع أحد المقامرين رأسه وثبت عيونه عليها، كان الرجل ذو البشرة النحاسية الذي تركناه خلفنا في "بانما"، نظر إليها عندما اتكأ على جذع شجرة جوزة الهند، ركضت استيلا وهي شاحبة مضطربة وتهتز وذهبت مباشرة نحو شقيقها.

قالت لي:

- والآن اندريس، هل ستظل تسخر من مخاوفي؟ لقد رأيته بنفسك، ذلك الرجل يمتلك القوة الجهنمية! كيف وجدناه هنا، بعدما تركناه خلفنا في "بأما"؟

قلت:

- إن هناك تفسير بسيط لذلك، تذكرني أنه عندما غادرنا المضيق رأينا ولاية "أورجون" وتوقفنا هناك في طريقنا إلى "كاليفورنيا".

ساعد تفكيري على تبديد بعض أفكار استيلا الخرافية، لكنه غير قادر على فعل أي شيء للخوف الذي سحقتها بسبب رؤية المهاجر، بدأت أشعر بقلق غريب بسبب الحالة التي رأيته فيها، قد أعطيتها نصف حياتي لتكبر سنتين؛ لذلك استطيع إيجاد ذلك الرجل لأجد معه حلا من أجل ذلك الخوف الذي أوحاه لـ استيلا.

أخيرا وجدنا مكانا كبيرا بما فيه الكفاية عند مدخل ساحة صغيرة بين غرف النشارين ومستودع أجهزة التقطير لننصب خيامنا، كان سامويل يتفاوض على بيع شحنتنا وفعل التجهيزات الضرورية لرحلتنا إلى متبر "سكرامنتو" (راسب محتو على الذهب).

قد حلت لحظة انفصالنا، أخذ اليخندرو شقيقته معه وذهبا للبحث عن السيدة جيرارد، خياطة ملابس نسائية من "ليما" انتقلت حديثا إلى "سان فرانسيسكو" حيث ظلت استيلا معها حينما ذهبت إلى المناجم. تبعتهم إلى قنصلية بيرو أينما توقفوا حزنا مثل اليوم الذي انفصلت فيه عن والدي، تركتهما على متن السفينة يعطوا الأمر لإسكار لينزل من السفينة.

قد أوشك اليوم على الانتهاء، أضاءت الأنوار وأخذت المدينة طلة رائعة بمبانيها الضخمة الخشبية المرتجلة ومحلاتها الشرقية وعدد الناس الهائل

الذي يملأ شوارعها، عندما عبرت الميدان رأيت مجموعة من الرجال ذوي مظهر غامض يتجمعون في دائرة يتحدثون كسرب قادم من سونورا وكانوا يتحدثون لغة غريبة، مليئة بأصوات غليظة وفظة كحفيف الغابات.

عندما ذهب خلفهم، رأيت أنه على الرغم من المعاطف التي تغطيهم، كانت وجوههم بدرجات اللون الأحمر والأسود التي يستخدمها "النافوجون"، كان هؤلاء الرجال هنودا متنكرين.

في وسط الدائرة كان هناك رجل طويل يتحدث بحدة ويجذب انتباه كل الرجال المطلين، يتزاحمون حوله ويأسرهم بكلماته، يستمعون لهم وهم يبدون الحماس والخضوع، كانت قبعته تغطي وجهه جزئيا، لكنني لم أكن في حاجة لرؤية وجهه كله لأتعرف علي الشخصية المشؤومة التي أخافت استيلا كثيرا- الرجل ذو البشرة النحاسية- تعرفت على الألفة العنصرية المدهشة التي تبدو بين ملامحه ولامح رفاقه، كانت عيونهم تلمع في ظل طلاء الزخرفة العربية الوجهية السوداء، كان لديهم نفس التوهج الجريء والمثبوم كأنهم أخذوا قبضة من مزاج استيلا، وكانت أسنانهم ممتدة وحادة توقد لونا أبيضاً في أفواههم وكانوا يستمعون إليه بإنصات، أخيراً تحدث إليهم بلغته البربرية بسرعة ورشاقة لغتهم الأم الواحدة.

قد عبر الرجل ذو البشرة النحاسية أمس من المحيط الأطلنطي إلى المحيط الهادئ بمجموعة من المغامرات، اليوم لعب القمار بأكوام من الذهب بظرافة وهو يرتدي بطاقة اللاعبين حول طاولة خضراء مصنوعة من اللباد؛ أخيراً بدأ المؤقر، كان مغطا بغموض متنكرا مع أبناء القبائل الشريرة، من ذلك الرجل؟

مشيت قلقا، بدأ الخوف الغريب الذي ألهمه ذلك الرجل في استيلا يستحضر نفسه لي كإنذار أو بدقة أكثر كحداسة لقرب حدوث شيء خطير،

أي خطر؟ لم أستطيع أن أرى.

كان النظر إلى مرأة -خاصة إذا كانت جذابة- لتتبعها شيئا طبيعيا، لكنني تذكرت النظرة التي أخافت استيلا في ميدان "بانما" والتي أرعبتها مرة أخرى عبر نافذة الفندق.

بدلا من أن أذهب إلى متن السفينة، رجعت لأبحث عن استيلا في قنصلية "بيرو"، لم تكن هناك؛ فقد أخذها شقيقها إلى منزل السيدة جيرارد، كان تمتلك خياطة الملابس النسائية الفرنسية محلا تجاريا في كل مكان؛ بحث عنه على نطاق واسع؛ لكنني غير قادر على ايجاده في متاهات شوارع وأزقة المدينة.

أخبرت نفسي بأنني لم أعد رفيق استيلا، فهي تابعة لسامويل ترادي، أجبرت نفسي على التخلص من الشوق القلق لرؤيتها ودفنت قلبي أسفل الحجارة، أكملت طريقي لأسلم الرسالة للسفينة، جعلني الشوق فقط أدرك كم أن قلبي الحنون نما من أجل صديقة الماضي التي يتقاطع دربها مع دربي .

وجدت ايسكار على متن السفينة بين مجموعة من ثلاثة رجال كانت تعبيراتهم وملامح وجوههم تشبهه كثيرا حيث اعتقدت أنهم أقاربه، أو على الأقل رفقاءه، كانوا يتحدثون بحماس، كما يبدو، كانوا يتناقشون في مشاريع خاصة بهم، كنت متعجبا من نقاشهم ومن الموضوع الذي يشغل بالهم، لم يلاحظوا في البداية وجودي، اندهش ايسكار عندما رأيته، لكن مكر الكالابريا جعله يهدأ بسرعة، تظاهر بأنه يتحدث، طرحوا في حديثهم السابق بعض الأسئلة عن الملاحة البحرية وبعد ذلك قال وداعا لرفاقه القبيحين.

بعد يومين، بيعت شحنتنا وكان كل شيء جاهزا لرحلتنا داخل البلاد،

ظل ايسكار في الخلف، كان مسئولاً عن السفينة الشراعية القوية والتي تأخذ شحنات السفينة من وإلى المواني الجنوبية، وقد قادنا سامويل إلى متبر راسب محتو على الذهب في "سكرامنتو"، وخوفاً من ارتفاع الأجور أقر اليهودي أننا يجب أن نسافر ونحضر الحافلة حيث نحتاج جميعنا لاستخراج الذهب لنسافر.

عندما جُهِز كل شيء للرحيل، كان هناك صف جديد من باخرات النهر يتنافس مع الصف السابق عن طريق تقليل الأجرة إلى كمية أقل، وحينها أعطى الصف القديم التذاكر مجاناً ليتفوق على الصف الآخر في العمل.

قد غير الاستثمار عقل سامويل؛ قرر السفر بالباخرة، لكنه كان حريصاً على عدم شراء التذاكر من الصف الذي يسعى وراء المسافرين مثله، خاف من أسلوب الانتقام بالسخاء الغريب؛ لذلك قرر بعد النظر في الوضع بشكل منهجي بأن يركب السفينة المسماة بـ "العالم الجديد"، إنها باخرة جميلة مزخرفة بترف وتخص الشركة الأصلية.

عندما كنت غير قادر على معرفة أي شيء عن مكان وجود استيلا، وجدت نفسي قلقاً بشدة، هل سأرحل دون أن أراها؟ هل سأفصل عنهما دون أن أثق في شقيقها، أقلقني ذلك الشك المشؤم؟

مرت الأيام، واقترب يوم رحيلنا، جاء مساء اليوم السابق لرحيلنا ولم أعرف أي شيء عنهما، تلك الليلة نمت بدون راحة وحلمت بكوابيس كثيرة، ثم فجأة استيقظت على صوت غير مألوف، صراخ وأنين، اندفعت خارج الخيمة ورأيت مشهداً أمام عيني جعلني أصرخ في خوف قائلاً:
-استيلا!

ارتفع لهب ضخمة من بحر النار يدور أعلى المدينة، تقوده رياح من

الشرق، غطت النيران كل شيء بزوبعة من الدخان وانتشرت بسرعة مخيفة نحو الميناء، اندفع عدد كبير من الناس عبر الدخان وانطلقت الشرارة من النيران وأكملت الصورة الجهنمية.

صرخت قائلاً:

-استيلا!

وركضت نحو اللهب، وعندما وصلت وجدت المباني الرائعة التي لفتت انتباهي تتدمر حولي، واندفع سكانها إلى الشوارع، ليهربوا من النيران، وقد دفنت تلك المباني في الأنقاض المحروقة.

كان قلبي يخفق بجنون، لم ترَ عيني شيئاً من اللهب، وكانت أذني تسمع جيداً، وكدت أختنق من الدخان، ركضت بين تلك الجموع الصاخبة، ركضت بلا هدف، لم أعرف إلى أين أذهب، وقعت ونهضت مرة أخرى، لكنني مازلت أركض وأبحث عن استيلا بصرخات تم خنقها بواسطة نسيمات النيران الحارة، عندما حُملت بقوة دافعة من حشد من الناس، ركضت دون أن تلمس قدمي الأرض، رأيت رجلاً طويلاً في الاتجاه المعاكس يحمل شخصاً مغطاً بورقة، كانت شخصيته المهيبة تقف بين الحشد كأنه يسير ضد تدافع الناس بخطوات ثابتة.

لقد تعرفت عليه، إنه الرجل ذو البشرة النحاسية والأسنان الحادة، انفجرت صرخة الغضب من صدري، جاهدت كثيراً لأصل وأمسك بالجسد الذي يحمله بين ذراعيه، لكن الحشود أجبرتني وسحبته بعيداً عنه، فقد ألقاني تدافع الناس على الأرض، وامتلاً قلبي بالغضب وروحي باليأس، ليس لدي شك في أن الشخص الذي يحمله هو استيلا، وقد خطفها ذلك الرجل الغامض خلسة.

فجأة، أدركت أنني أمسكت شيئاً في يدي المرتجفة، إنه شريط من الورقة التي وصلت إليها وأمسكتها عندما كنت أحاول إنقاذ استيلا.

بين تلك الأمور التي أثارت أعصابي وجدت شريطة شعر أشقر، هذاً هذا الاكتشاف مخاوفي، إنها ليست استيلا المغطية بالورقة، لكن ماذا أصاب صديقتي العزيزة في وسط الكارثة التي حدثت تلك الليلة؟ كنت أتجول الشوارع في الفجر، كان شعري محروقا وملابسي ممزقة، ناديت بين تلك الحشود على استيلا وشيقيقها عبثا، أخيرا تركت بحثي وعدت لأقابل سامويل مرة أخرى لحلول موعد الرحيل، لكنني كيف سأغادر بإحساس الشك المخيف؟ إنه مستحيل! اتصلت بـ سامويل، عندما أجابني، أضاف إلى صوته المعسول نبرة توبيخ.

صاح هو قائلاً:

- أنت صعلوك جاحد، تريد أن تترك صديق طفولتك القديم حينما كنت بجانب والدتك، بسبب شخصا قابلته أمس! بالطبع سأذهب وأخبر والدتك بذلك، لكنني أولاً سألعنك!

أيقظت تلك الكلمات الشعور الذي يكمن بداخلي؛ في الحقيقة، بدأت أنسى حب والدي؛ تردد صوت اللوم اليهودي الحاد الذي يشبه صوت ضميري.

أجبت قائلاً:

-دعنا نذهب! دعنا نذهب!

وأسرعت خلفه.

إن "العالم الجديد" سفينة جميلة لا تحتوي فقط على كل السلع الضرورية بل على كل وسائل الرفاهية الزائدة، فظهر السفينة والدهليز الرائع مزينان بستائر معلقة كأنه قاعة كبيرة، كانت مليئة بالعديد من المسافرين، يأتون ويذهبون، جميعهم يضحكون ويتحدثون يجعلون المشاهد أكثر حيوية، حينما انزلقت السفينة بسلاسة أعلى النهر على طوال شاطئ نهر "سكرامنتو" الرائع، اتكأت على درابزين ظهر السفينة المحاط بالأزهار المزدهرة، نظرت

بحزن إلى المدينة التي تقف بعيدا مثل السراب، همست تحت أنفاسي
قائلا:

-استيلا! استيلا!

لمس شخص ما كتفي بيده، انعطفت وصرخت بفرحة، إنها هي، عانقنا
بعضنا البعض كما يفعل الناس عندما يلتقيان بعد النجاة من كارثة، عندما
هدأت بما فيه الكفاية لأتحدث، سألتها:

-كيف جئتِ إلى هنا؟ بحثت عنك منذ مدة طويلة.

أجابت قائلة:

-قد استأجر شقيقي السفينة، هذا هو السبب الذي جعلني أغادر منزل
السيدة جيرارد ...أوه! أندريس... كان الرجل ذو البشرة النحاسية دائما هناك
في كل مكان أذهب إليه! كان شبحا يهددني ويتبعني في كل مكان تصل إليه
قدماي! أوه! أنت لاتستطيع أن تتخيل ماذا حدث الليلة الماضية!

كنت أنا وإيميليا جيرارد نائمين في غرفة صغيرة مقسومة بقماش كتاني
يفصلها عن غرفة السيدة جيرارد، وبخائط خشبي رفيع يفصلها عن المنزل
المجاور لنا والذي اندلعت فيه النيران، استيقظت وأنا أشعر بأني أختنق
لأن الهواء كان مشبعا على نحو شديد برائحة القطران، وفي نفس الوقت
كان يملأ الغرفة توهج ضارب إلى الحمرة ويتدفق الدخان نحوها عبر شقوق
ألواح الحوائط الخشبية الرفيعة.

كنت على وشك ايقاظ امليا عندما ضربت ضربة مفاجئة -مثل مطرقة
ثقيلة تسحق الخشب- حفرة في الحائط، ثم رأيت عبر اللهب شخصية
ضخمة تبرز رأسها عبر المدخل، أسنانه حادة كالكلب وتوهج لون أبيض
مع انعكاس ضوء اللهب، إنه الرجل ذو البشرة النحاسية! بالكاد كان لدي
وقت لأنزلق أسفل السرير، ثم سمعت خطوات قدمة الثقيلة وهي تدخل
الغرفة، وشعرت بالخوف الشديد ولم أتجرأ حتى على التنفس، في ذلك
الوقت كانت امليا نائمة، شعرت بالرجل ذي البشرة النحاسية من أسفل

السريـر لكنني لم أجده، ذهب إلى مكان نوم امـليـا، رفعها بين ذراعيه ومشى عبر الحفرة الموجودة في الحائط الخشبي والتي تم حرقها.

عندما شعرت إمـيلـيا باختطافها، صرخت وأيقظ صراخها والدتها، لكن عندما دخلت السيدة جيرارد، وجدت الغرفة فارغة وانغمست في اللهب، اختفت ابنتها واختبأت أنا أسفل السريـر وفقدت الوعي، أيقظتني صرخات الأم المسكينة من إغمائي العميق، إنه وقت التحرك، كان اللهب على وشك أن يلتهم كل شيء.

في تلك اللحظة، وصل شقيقي وقنصل بيرو مع إمـيلـيا التي وجدوها وحيدة وسط الحشد. فقدت الفتاة المسكينة وعيها عندما تم أخذها من سريـرها ليلا، قد دفعها خوفها إلى الرجوع إلى النقطة التي بدأت فيها الصراخ تطلب المساعدة، لكن عندما سمع مختطفها من كانت تطلب، وضعها فجأة، ثم نظر إليها نظرة جعلتها ترتعش وتركها واختفى وسط الحشد.

دمرت النار منزل السيدة جيرارد، لحسن الحظ كان ابنها عائدا في الحال من المناجم التي جلبت له الملايين، وكانوا يخططون للعودة إلى فرنسا، كنت سأموت من الخوف إذا قادتهم النيران إلى الأطلال، إنني مقتنعة بأن ذلك الرجل هو من أشعلها؛ لذلك أخبرني اندريس، هل يجب عليّ ترك شقيقي حتى ولو للحظة؟ إنني على علم تام بمخاوفي وأيضا قصة ذلك الرجل الذي يطاردني كالأشباح، شارك شقيقي في القتال لكي يتجنب سحقه، أفنعتته بأن يأخذني معه.

قالت:

-أندريس، صديقي العزيز، هل ستبقى معنا؟!

أجبت قائلاً: "

-أنتِ تعرفين أن قلبي لا يرغب في شيء آخر، لكن عملي يتطلب أن أكون بعيدا حيث أن سامويل يثق في قدرتي على إنقاذ خططه.

قالت:

- هذا البخيل سيبيعك في النهاية، أهو قادر على الحفاظ على كلمته مع أي شخص؟ قد يقطع أجنحة ملاكه الحارس ليبيع ريشه البيضاء، أوه! إنك ستتركنا بسبب ذلك الكافر!

هذا ما قاله قلبي لي وأكثر، لكن سامويل قد ذكر الاسم الذي احتفظ بمكان ساحر في ذاكرتي (اسم أمي)، والمنزل الصغير الذي على ساحل تشيلي، وسكانه المعزولين يبدو كأنه يناديني.

فهمت استيلا ما كان يدور بداخلي فلم تصر أكثر، أتكتأت على درابزين ظهر السفينة بجانب أسفل السماء المرصعة بالنجوم بمجرى البحر المتمايل أسفل أقدامنا، مرحنا لنجد أنفسنا مرة أخرى سويا، تحركنا نحو جنية القصر التي تعيش في نهر رائع محاط بالمراعي المغطاة بالأزهار؛ أصبحنا أطفال الأمس السعداء مرة أخرى؛ فقد نسينا فراقنا، والنيان، وكذلك الرجل الغامض الذي عذب استيلا بهذا الهاجس وتم تبديل كل ذلك بتلك الصور السعيدة التي منحت السعادة لأشخاصها المفضلين.

كانت الدهاليز مضاءة بالمصابيح الغنية بالألوان، والتي تعطي السفينة منظرا رائعا حيويا، سرت أنا واستيلا متشابكي الأيدي نستكشف السفينة ومجموعات المسافرين المتنوعة على متنها؛ فهناك حلقة المدخنين اليابانية المسترحين على مقاعدهم، مستلقين على وسادات رافعين أقدامهم على المنضدة ينفثون دخان سيجار "الهافان" اللولبي الفواح، وهناك يجلس على وسادات الأريكة مجموعة من النساء اللاتي يعقدن اجتماعا، يناقشن الموضة؛ وهناك حفلة ساهرة في أصوات منخفضة، وعدد قليل من المشاهدين الفضوليين الذين يلعبون بشق الأنف لعبة الشطرنج، وعلاوة على ذلك صوت صندوق مكعبات الزرد المشؤومة الذي يهتز ويشير إلى أن شخصا ما يلعب اللعبة النهائية "المونتي" ^١ الرهيب.

١- مونتي: أيضا يسمى "مونتي كريلو" كارت مأثوف للعب في المناطق الريفية والحضرية، في بعض الأوقات ينسى أن يلعبوا بالمال بسبب العنف الذي يحث عليه

وقفنا نراقب هذه المجموعة الأخيرة التي ترضي قائد السفينة، اثنين كنديين وواحد مكسيكي، كان هناك نضال في اللعبة والرهان الذي يلعبون به كبير جدا، قبل فترة طويلة بدأ الحظ يميل تجاه القائد وإحدى الكنديين وانزلق أغلب الذهب الموجود على الطاولة إلى أيديهم، في تلك اللحظة وقف اللاعب المكسيكي الذي كما يبدو سحق بواسطة الانفعال العنيف؛ يطلب الإذن ليتنفس الهواء المنعش، مشى باتجاه ظهر السفينة - في غضون ذلك - كان يتم جلب الشاي، وأخذ اللاعبون استراحة قصيرة، بعد ذلك عاد المكسيكي بمدة قصيرة، كان قد هدأ ووقف ويده وراء ظهره، ونظر مباشرة إلى مكعبات النرد الموضوعة أعلى الطاولة المصنوعة من اللباد.

قال:

- أيها القبطان وانعطف إلى الرجل الذي كان يتحدث، يمكنني أن أطلب منك معروفا؟

- بالتأكيد

- هل تسمح لي بأن أقبل مكعبات النرد، التي أخذت كثيرا من الذهب مني.

- يمكنك فعل ذلك بكل ترحيب.

ثم أراح المكسيكي يديه كل شيء حتى يستطيع لمس المكعبات ويقبلهم بخطورة فكاوية، ضحكوا جميعهم على تلك الغرابة حتى الكندي الآخر الذي كان خاسرا، لكن المكسيكي الهادئ الرصين ذهب ليجلس بجانب خاسر آخر.

قال:

- جيد سيدي.

وكان يلفظ كل كلمة ببطء شديد.

- أنت تعرف أنني لم أتذكر الخسارة، إنها خسارة بمكعبات النرد المتبلورة

صرخ القبطان قائلاً:

- مكعبات النرد المتبلورة!

وأسقط كأسه من يده، غضب، من يجروء على اتهامي؟ مكعبات النرد ملكي

وأعلن أنها جيدة

قال المكسيكي بنبرة ساخرة:

- جيد جدا! إذا كنت تتهمني، فكل ما نحتاجه هو أن نقطعهم ونفتشهم.

صرخ القبطان:

- اجلب لي السكين! لكن يجب أن تفهم جيدا - أيها الحقير - أن بعد قطع مكعبات النرد، سأقطع لسانك بالسكين.

جلب شخص السكينة، أمسكها القبطان وبضربة سريعة قطع واحدة إلى قطعتين، موضحا صورتها الداخلية المصنوعة من العاج والخالية من أي إثم، وجه القبطان ضربة إلى مكعب آخر، لكن بعد قطعه سقطت السكينة من يده، إنه مليئ بالزئبق.

صرخ القبطان بغضب:

- يا للعار! لأفهم كيف يكون هناك شخص قادر على تبديل مكعبات النرد خاصتي! دائما أحفظهم وهذا هو المفتاح الوحيد، وأظهر المفتاح الذي يحمله في صندوق ساعة جيبه، لكن استيلا التي كانت لديها عيون حادة وجميلة، رأت أن المكسيكي بدلا من أن يقبل مكعبات النرد، التهم واحد منهم في فمه وترك آخرها بدلا منه.

أعاد القبطان مبلغ المال، وألقاه بالإيباء الذي بدأ اللعبة به وهو متحمس، إنه كان يانكيا بكل معنى رائع لتلك الكلمة؛ صارم في أفعاله، خصوصا المرتبطة بالشرف، كانت ابنته فتاة جميلة تسافر معه، ومنذ أول لحظة وضعت عينها على استيلا، أصبحت مغرمة باستيلا التي أصبحت أكثر تعلقا بالفتاة اليانكية الصغيرة الجميلة، ولكن عاطفتهم المتبادلة اعترضتها عقبة وحيدة وهي أن لا أحد منهن عرف لغة الآخر، لكن عين استيلا السوداء وعين اليانكية الزرقاء تتحدثان نفس لغة الابتسامات وفهما بعضهما البعض

تماما.

في تلك اللحظة، كانت النساء الجالسات على الأريكة قد تعبن من مناقشتهن وانقطعن عن عزف البيانو، كانت إحداهن تعزف مقدمة موسيقى الفالس "لافتا" من الفصل الرابع من هيرنارى^١.

عندما سمعن ذلك اللحن، نظرت الفتاتان لبعضهن البعض وابتسمن، كانا يفكران في نفس الشيء، أمسكت استيلا الكلانز الأزرق المصنوع من اللباد -ياحدى الحركات السريعة التي معتادة بالنسبة لها- التي كانت تلبسها الفتاة اليانكية فوق شعرها الأشقر، أخذت وشاحها الأبيض الطويل ربطته بشعر الفتاة ونزعت القبعة رأسها الصغيرة، ثم شكت ذراعها بذراع بصديقتها، غلب على أفعالها روح البطولة، سارت مع شريكتها إلى وسط الدائرة، أثار حضورهما السيدات فتحركن ورجعن ناحية أعمدة الدهليز التي كن يغنين فيها الأغاني.

فتنت عازفة البيانو بتلك الفرصة التي سمحت لها بأن تلمع، بدأت تلعب الجزء الأساسي من الأغنية "سيسارى إى سونا"، وغنت استيلا بصوت رائع ورنان.

إنه من المستحيل أن تصف التأثير الرائع لغنائهن والذي ارتفعت نغماته وسط الليل ومزج بخير ماء المجرى وحفيف الغابة القريبة، وتناقضت مع الصمت الذي غلب على كل فرد، بعد مرور العواطف الأولى، انفجرت هتافات استحسان عديدة في كل مكان في الدهليز عندما لعبت العازفة ريتورنيلو:سى سى بورسيميبرى تو

١ - لفت انتباه جرروقي الفصل ٤ لهينرى، به "الفيرا وهينرى كانوا على وشك الاحتفال بزواجهم وابتهجوا في سطوع حبهم، تم قطعه بعنف عن طريق "سيلفا" الذي أتى وطلب أن تكون "الفيرا" له كما كانت، أخذ هيرنارى حياته، إن ظهور الرجل ذو البشرة النحاسية الذي يهدد استيلا، أعلن الظهور القريب لرجل سيدمر حب الأزواج

غنت استيلا في النهاية وانضمت أصواتهن لها وغنتا معا، وتمايلن مع النغمات، مدت استيلا يدها تجاه الخلاء وغنت، لكن فجأة رأيناها شاحبة، صرخت وسقطت فاقدة الوعي على الأرض.

عندما كان ركاب سفينة العالم الجديد متأثرين بألحان فيرديس، ويستمعون إلى الشابة الهادئة، دفعت الباخرة الحديثة محركاتها إلى الأمام ومرت بجانبنا، وقفز أحد ركابها على متن السفينة، لقد كان الرجل ذو البشرة النحاسية، قد ظهر فجأة أمام استيلا كوغد مقنع مشئوم في الأغنية. قال جندي مسن عندما رآه:

-إنه قاطع طريق فوكلاندي

قال صياد نمر:

-ماذا؟! إن عيونه عين صقر قاتل.

علق شاب من سونورا قائلا:

-على أي حال إنه بغيض.

قلت:

- إن ذلك الرجل الذي أمامنا هو زعيم عصابة "النافاجو"، "تاباهو" المربعة، إنه الرجل الذي سلخ فروة الآلاف...الشخص الذي على الأغلب جعلني رقم ألف وواحد، وأظهر الرجل لمن حوله تلك الندبات العميقة في وجهه، لكن الرجل اعترف بأن هناك العديد من الأفراد اختفوا عندما جاء.

عندما كنا نعتني باستيلا توقفت الباخرة في "سان بابلو" و"فينيس"، أينما صعد ركاب جدد على متن السفينة، عندما استعادت وعيها بعد فترة إغماء طويلة، نظرت إلي بنظرة حزينة وطويلة، وفهمت تلك النظرة، خافت من أن أخبر شقيقها بكل شيء، أمسكت يدها وضغطت عليها بلطف هداً قلقها، شكرتني على صمتي، لكنها أصبحت بعد ذلك حزينة وعميقة التفكير، ولم يكن اهتمام شقيقها ولا علاقة الصداقة الحميمة مع ابنه القبطان لم يكنا قادرين على انقاذها من ظلام الخوف الذي استحوذ عليها مرة أخرى.

أخيراً وصلنا إلى "ساكرمنتو" المدينة الرائعة التي بدأت تتوسع وتزرع وسط مراعي رائعة مليئة بالأزهار تمتد كبساط مزخرف عند سفح الجبال الشاهقة، كانت المياها تنحدر من السهول خضراء، وجلبت الثروات المختبئة تحتلك السهول. إن ترك أصدقائي كان صعباً جداً، ألقت استيلاً نفسها بين ذراعي وبكت.

قالت:

-اندريس، لدي شعور غريب بأن هناك مصيبة مخيفة على وشك أن تحدث لي، من فضلك صلي من أجلي.

ثم عانقتني مرة أخرى وتنهدت.

وصل ضيوف جدد إلى المأوى الموجود تحت الأرض، كانوا عمال منجم من "كوروكو" وإيطالي صوته أجش يحمل أكياساً وسرج أحسنه المحشو، جلسوا على أريكة بتجهيزاتهم واستلقوا بطريقة مريحة أمام لهب النار، استمعوا أيضاً إلى القصة باهتمام وهم يدخنون السيجار.

كان الراوى غارقاً في مشاهد ماضيه ولم ولم ينتبه له الحاضرون، استكمل قائلاً:

-بعد أيام قليلة، وجدنا أنفسنا قرب شاطئ النهر الأمريكي، وجانب من المدينة الغريبة الكثيرة الصامته يمتد على طول أودية الأردواز الضيقة لساحل النهر أينما يحفر السكان بحماس حول الساعة الكبيرة، كانت المدينة مقسمة إلى معسكرين لفئتين متعاديتين، الأولى مخيمات التشيلين، الأخرى مخيمات اليانكي، كانت هناك مواجهات دموية قبل وصولنا ظهرت آثارها المميتة في التقاطعات التي يرتفع فيها الركام على جانبي الطرق.

إن المكان المحدد للرواسب المحتوية على الذهب، وامتلاك الأداة التي تمكن من الحصول عليه، والنظر إلى المرأة بنظرة معينة - كل ذلك وأقل بكثير- كان سبباً كافياً لحدوث مواجهات دموية بين الأمريكيين التشيلين، وكانت البنادق والخناجر تستخدم في هذه المواجهات وكانت المحصلة عدد

من الجرحى من الطرفين.

يمكن رؤية آلاف الرجال ينحنون على الأرض المغطاة بالدم، والذين أصابهم الجشع الكامن بداخلهم بالعمى، يبحثون في الرمل الرطب ويتحركون عبر بريق الذهب الذي تم استخراجه بصرخة فرح، بينما انحنوا انحناء خوف لما هم فيه من محنة الموت، كان المكان مزدحماً بمئات اللصوص المتنكرين . عندما وصلت إلى منطقة متبر الراسب المحتوي على الذهب، كان الاختيار ضروريا بين المعسكرات، لكن المرء يتمنى أن يظل محايداً؛ حيث أنه يكون ضائعاً، لقد دمره كلا الجانبين، وسينسبوا إليه الجرم المجهول الذي ارتكب في المنطقة، إنه في أي وقت سيتم القبض عليه وسيعدم من غير محاكمة.

في ضوء تلك الآراء، هبط سامويل إلى التل الأسود الذي يمتلك فيه أمريكيو الشمال متبر راسب يحتوي على الذهب.

في الصباح التالي، قبل أن يجعل سامويل الأطفال يعملون، جمعهم حوله، قال لهم:

-أصدقائي الصغار، من الضروري الآن تعديل الشروط السابقة لوضعكم، تلك الشروط التي وضعتها بأحلامي والتي يجب تعديلها بطريقة جيدة كي تكون مناسبة للواقع، إن الراتب المحدد في اتفاقنا سأعطيه لكم في أيام الأحد وذلك سيكون عوضاً عن راتب بقية أسبوعك الذي سيذهب لي. قالوا:

-ماذا تقصد؟ نحن أحرار، نريد أن نعمل بمفردنا.

قال:

-أحرار؟ أوه طفلي! ومن سيدفع لي الرحلة البحرية التي كلفتني مبلغاً كبيراً؟ أحرار! ليس هناك أحد حراً في هذا العالم، كلنا نعتمد على بعضنا البعض بدرجة أكبر أو أقل، أنتم ستمتلكون كل شيء تريده هنا، ستتغذون جيداً،

ستعيشون في راحة وستتم حمايتكم من الأشرار في المنطقة وفوق كل شيء ستكونون محبوبين.

أحنى الصبية رؤوسهم مكتئين

قال لي:

-عزيزي اندرسينو بالنسبة لك، سيكون الأمر مختلفا، أعتبرك بمثابة ابن لي ومن الطبيعي أن يعمل الابن من أجل والده دون تردد أو مصلحة ذاتية.

قلت وأنا منززع بعمق من نبرة اليهودي:

-ماذا عن أمي؟!

-والدتك! هل تعرف ما المميزات التي ستحصل عليها؟! أولا ستحب عملها

ستملأ روحها القوة والحيوية، وأخيرا وفوق كل ذلك، ستكون هادئة، ماذا

تحتاج أكثر من ذلك؟!

-ماذا؟ أستذهب والدتي بدون الراتب الذي أكسبه من أجلها؟

-خصص عمل يوم الأحد لها.

أدركت كم كان جدالي مع ذلك المتأمل البخيل بدون فائدة؛ لذلك قررت ألا

أعتمد على أحد، لكن يجب الاعتماد على ذاتي لأحل مشكلة والدتي.

حقق العمال الجدد نتائج رائعة في ذلك اليوم بسبب توجيهات سامويل،

تدفقت مياه الخليج الصغير عبر شقوق وديان التل الأسود الضيقة وتم

اكتشاف الوديعات الغنية أسفل قاع الخليج الصغير، اتسعت وازدادت كأنها

تذهب للأمام بكل الطرق إلى شواطئ النهر.

بعد شهر، جمع سامويل مبالغاً مالية ضخمة، كان يرسلها بانتظام إلى

ايسكار؛ تلك المبالغ خصصها ليوسع مضاربات عمله، وفي نهاية كل أسبوع

كان يأخذ شحنة إلى "سكرامنتو" ويعود سعيدا في كل مرة بسبب الأخبار

التي يستقبلها من شريكه.

على الرغم من الحظ الجيد الذي كان يمتلكه رفقائي في الجزء السفلي

من الوادي الضيق، رفضت أن أربط نفسي بأعمالهم منذ اليوم الأول ودائما ارتبطت بقراري، قررت أن أنفذ عملي بنفسي، اتبعت مسار الخليج الصغير حيث يضيق الوادي فجأة ونزل المجرى بسرعة أكبر؛ كانت المياه هناك بيضاء كأنها تركز بين حوائط صخرية سوداء تجعل المياه تتدفق بسرعة.

وجدت حجارة سميكة من الذهب في فجوات الشلال، على الرغم من أنها كانت تبدو غريبة بالنسبة لي، جعلتني أصدق بأنها واحدة من تجويفات المعادن النفيسة القرية التي كانت حلم كل شخص يحلم بالتنقيب عن الذهب في المنطقة المشتركة.

ازدهر العمل بصورة ملحوظة، في أقل من ثلاث أشهر، قد أعطاني الشلال الموجود في الجزء العلوي للوادي الضيق ذهباً أكثر بكثير، كنت بحاجة لعمل ثروة خاصة بي، لكن ماذا استخرجت يدي، الجزء الوحيد الذي كان يخصني هو ما كنت أجده في أيام الأحد وكانت قوة عدوي تشارك في ذلك الجزء، إن نتيجة عملي، بغض النظر عن كيف كانت كثيرة، كانت بالنسبة للجميع معدمة في أيام الأحد، كنت أدخره دائماً وكنت أحرم نفسي حتى من الحاجات الأساسية، وفي نهاية الشهر كنت استبدله بحجر ذهبي وأرسله إلى قنصلية بيروفي "سان فرانسيسكو"، لكي يرسلوها إلى والدتي في الوقت الذي يذوب الثلج فيه، وتغمر الفيضانات الحقول وتقطع كل وسائل المواصلات وتجعل كل أشكال التنقل مستحيلة.

لم يمض وقت طويل على نقص المؤن وانقطاعها، قريباً سيتبع ذلك الجوع، سيرتفع سعر الغذاء والمؤن بشكل لا يصدق وسيتوفر الخبز واللحم فقط لمن يستطيع أن يدفع مقابل وزنهم ذهباً؛ حتى في ذلك الحين كان يتم ذلك عن طريق النزاع أحياناً بالبندقيات أو بالخناجر.

كان الفقر العام كارثة حقيقية، حطم سامويل البند الأساسي لاتفاقيته

الثانية، وبسبب الطمع باع المؤن التي خزنها لقوتنا وجعلنا نعاني من الجوع حتى الموت، لكنه جفف طعامنا الناقص بطريقة رائعة.
قال سامويل:

-هيا ياعزيزي الصغير، هيا جرب الأرز اللذيذ الذي أعددتَه خصيصا لك بيدي الاثنين، أرايت من قبل أرزا جذابا وذا نكهة حلوة؟ أنتستطيع شم الرائحة اللذيذة الصادرة منه؟ إنه يحتوي على حزمة صغيرة من الزعر الذي جمعته من منحدر التل وتبخر مع الأرز في القدر المغطى، جرب فقط الجزء المزبد؛ إن تلك الزبدة من أرض "سويتيزر" جلبتها من خانة أشجار الصنوبر الكبيرة، كل طفلي العزيز... قد صنعت تلك الأطباق الخاصة لتأكلها كلها.

عندما اتبعنا ذلك النظام الغذائي، وجدت أنا وسامويل أنفسنا وحيدين في التل الأسود، غادر الصبية واحدا تلو الآخر وذهبوا إلى معسكر رفاقهم.
غضب اليهودي ولعن ذلك الهجر بحماس، وصرخ قائلا:
-أولئك الصعاليق الجاحدين! أوه! إنهم مخلوقات غير صالحة! إنني اخترت شركاء من هؤلاء المجرمين واعتنيت بهم عناية رائعة، أوه! أنت تأخذهم لتعلمهم ثم تستخدمهم، وعندما تكون الأمور على ما يرام يهجرونك ويتركونك منكسر القلب!

وقد أعطاه هؤلاء الأطفال بعد العمل في الوادي الضيق لمدة أربع شهور كميات هائلة من الذهب رفعت قيمة ثروته إلى مستوى رفيع جدا، اتبع سامويل أسلوبِي وذهب ليعمل في الخليج الصغير الضيق، أعطيته منصبِي وذهبت إلى المكان الذي تنزل فيه مياه الخليج الصغير السريعة وتصنع حفرة عبر الأردنواز (صخر سهل قطعه) وقاع الخليج الصغير حيث يوجد الكرتواز القريب من الشاطئ، وهناك في الجانب الآخر كانت طبقة الأردنواز مكسورة إلى قطع كبيرة وكانت المياه تجري عبر عدد كبير من الشقوق التي اختفت وظهرت من جديد على بعد أمتار قليلة تتدفق بين الحصى الغني بالألوان وتعود إلى الخليج الصغير.

وضعت معولي على جانب وجلست على أحد ألواح الأردواز وغرزت يدي في إحدى تجمعات المياه الصغيرة وسحبته ثم تراجعت، كانت مليئة بالذهب، في كل وقت كنت أسحب يدي فيه تكون مليئة بالذهب، ذهب، وذهب أكثر!

كان ذلك اليوم رائعا إنه كان يوم السبت؛ يوم السبت أو بكلمة أخرى اليوم الذي يسبق ذلك اليوم الذي خصصته لوالدي، كانت نتيجة أعمالي أنني سحقت سامويل ذلك اليوم، صرخ قائلاً:
-أسبوع آخر مثل ذلك وسنكون قادرين على إعادة شراء "كنان"، الوطن المفقود!

كان يفكر في وطنه وكنت أفكر في والدي، تلك الليلة لم أكن قادراً على النوم، دار مشهد الساعة الملموسة المضحك حولي، يمد ذراعيه لي ويشير إلى ضوء يوم جديد .

قبيل الفجر، سمعت أثناء نومي العميق الذي تبعه أرق ضوضاء غريبة، صوتاً يشبه صوت السيول المنهمرة، لكنني اعتقدت أنه الدم الذي يرتج في رأسي، وجدني ضوء الصباح على شاطئ الخليج الصغير، وكان ذراعي بجاني، كنت محرراً من الوهم تماماً. قد اختفت الشقوق اللامعة التي سحبت منها كنزا في اليوم الماضي وألواح الحجارة التي تشكلها.

كانت الضوضاء التي سمعتها أثناء نومي هي صوت انهيار قادم من أسفل الجبال الذي سحب كل شيء معه كالمياه العاصفة للنهر الأمريكي، تلاشى الحلم المشرق من الليلة السابقة عندما وصلت هناك وجعلته حقيقة واقعية تراجعت ووضعت في الأفق البعيد، جلست أسفل الظل حيث ينعطف الخليج الصغير، قد تحطم جسدي وروحي تماماً، وحدقت عيني في قاع الخليج الصغير الجاف، لم يستطع عقلي التفكير. بدأت الحواف الخارجية لقاع الخليج الصغير تأخذ لونا أزرقاً، مرت الآن قوة الانهيار.

لم أعرف كم من الوقت جلست هناك ضائعا على هاوية الأفكار المظلمة، كانت الشمس الحادة تشرق بالضوء باتجاه أغصان شجرة الصنوبر التي تنشر الظل فوق الصخور التي جلست عليها، وفجأة لمعت فكرة سريعة وساطعة كالضوء في عقلي، قفزت وأمسكت معولي وضربت حافة الخليج الصغير الجاف الخارجية بقوة، قسمت الطبقة العلوية للأردواز إلى قطع عديدة تكشف الحفرة الواسعة وقاعا مشعا جعلني مندهشا للغاية، شعت كميات الذهب الهائلة التي رسبت هناك متراكمة بالضوء لقرون وتلاشت بسبب تدفق السيل الموجود تحت الأرض.

وجدت -أنا الطفل الضعيف قليل التجربة- كيسا رائعا من المعادن النفيسة قد بحث عنه عمال المناجم المحترفين، كان أمامي، عندما توقفت هناك دون حركة متأملا المادة النفيسة التي تتوهج في ضوء الشمس أسفل الأردواز الأسود الموجود في قاع الخليج، سحقت روحي بأفراح ومخاوف الرجال الأغنياء، لم يكن الذهب الذي لمحتة عيني هو ذلك الكنز الرائع الذي امتلكته أسفل قدمي، لكنه بالأحرى هو سعادة والدتي واستيلا، فرحة لكوني حر وكوني قادرا على رؤيتهما مرة أخرى ولم شتات الأسرة المتفرقة معا للأبد، لكن كيف استخرجت ذلك الكنز؟ كيف اخفيت وجوده عن آلاف المغامرين الذين تجولوا في متبر الراسب المحتوي على الذهب والذين تظاهروا بالعمل حينما كانوا يحاولون تحسين مركزهم لينهبوا ويسرقوا عندما تقدم الفرصة نفسها؟

كنت مضطرا لأخذ قرار؛ لذا يجب أن آخذه بسرعة، نظرت حولي بانتباه ورأسي مرفوعة أتبع مسار الخليج الصغير وسرت نحو المعسكر، كان المعسكر مهجورا يغلب عليه السكون؛ حيث يقضي العمال أيام الأحد في الحانات القريبة أو في الغابات يصطادون الطيور والأرانب، حتى سامويل رضي عن تلك النتائج العظيمة في اليوم السابق، قد أعطى نفسه يوم عطلة وأكل الدومينوز في مطعم رقيقة الوطني.

ركضت إلى الغرفة التي نمت فيها أنا وسامويل، في المخزن الذي يباع فيه الحصير المصنوع من القش، تحركت بجانب جلد الجاموس والذي كان بمثابة سرير لي وكانت حفرتي المحفورة في الأرض العميقة كافية لإخفاء كنزي، ثم وضعت جلد الجاموس في مكانه مرة أخرى وغطيت الحفرة التي صنعتها لإخفاء ركام الأرض الذي أخرجته، وضعت كومة من الملابس فوقها، وطويت القميص الكتاني ذا الجيوب، غطيت نفسي بوشاح مكسيكي وتوجهت مرة أخرى إلى جانب الخليج الصغير.

ملئت جيوب قميصي الواسعة والعميقة سبع مرات والجيوب الأمامي للوشاح بالذهب، واختفى الذهب في الحفرة المخفية تحت جلد الجاموس، لكن كان كيس المعادن النفيسة كبيراً جداً، كان يبدو وكأنه يمتد أسفل قاع الخليج الصغير بطول جانبه. إنه رائع، إن الواقع المذهل يجعل آمال اليهودي وأحلامه تتألق؛ ليس في أسبوع، لكن خلال الاثنتي عشرة ساعة حتى يوم الاثنين، قد غربت الشمس وكانت هناك أصوات بعيدة تشير إلى أن العمال بدأوا العودة إلى المخيم.

رجعت إلى غرفتنا، أودعت محتويات رحلتنا الأخيرة بداخل الحفرة؛ فالآن أصبحت مليئة بكميات هائلة من الذهب، واعدت كل شيء إلى مكانه المعتاد، كنت قد تهالكت تماماً، لكنني بروحي المحلقة في الفضاء الذي لانهاية له، استلقيت على سريرتي، وأغلقت عيني، لكنني لم أنم؛ فقد غرقت في أفكارتي، لكن سامويل قطعها فقد أتى إلى الخيمة بمزاج رائع، يمسك بعض المعجنات في يد وزجاجة شمبانيا في الأخرى
قال بنبرة رقيقة:

-عزيزي اندريسينو، أخبرني الرجل السويسري عن الحظ السيئ الذي عانت منه أعمالك في الليلة السابقة وكيف أن الانهيار الثلجي قد دمر المنطقة التي كنت تعمل فيها، لكن ذلك لا يهمك، إنك ذكي ستبحث عن مكان آخر وستجده، بعد كل ذلك، ألم تجمع أمس ثروة حقيقية لصديقك؟ لقد

أرسلت أربعة عشر جنيها ذهبيا لإيسكار ليتضمن الشحن بالسفينة إلى شركة "هوبر"، إنها في طريقها إلى "سان فرانسيسكو" في تلك اللحظة... بني، لدي القليل من تلك الفطائر الحلوة اللذيذة جلبتها لك ومعها كأس شمبانيا لها مذاق حلو خاصة بعد يوم عمل شاق.

أدركت أنني لم أكل شيئا طوال اليوم، في وسط انفعالات اليوم الصاخبة نسيت تماما شهيتي الصبانية الملحة، أكلت الفطيرة الحلوة دون رغبة حقيقية، لكن عندما أتى وقت الشمبانيا، رفعت كأسي عاليا وشربت نخب سامويل قائلا:

- بصحة والدتي ! بصحة استيلا! وبصحة الساعة التي ستجلبها صحتنا!

بدا على سامويل أنه قد سمع تلميحا أثناء شربي النخب جعله يقلق وقال بسرعة، كرد على حديثي:

- ذات يوم ستجد تلك الثروة بالطبع!

ضحكت على ذلك التعليق، وفكرت في المفاجأة التي لاتصدق والتي احتفظت بها من أجل اليهودي، وشربت كأس الشمبانيا المليئة بالإثارة بسرعة.

هدأت فقاعات الشمبانيا -شيئا فشيئا- تدفقت أفكار المتوهجة في عقلي، أخيرا نمت، لكنه كان نوم سكير خامل مليئ بالكوابيس والشكوك.

تسلقت عصابات قطاع الطرق، وخناجرهم في أيديهم جدران مخي كأنهم يتناقشون لمهاجمتي، كان البعض ينظرون إلي بنظرة الشريرة؛ البعض يضحكون بطريقة شيطانية يظهرون الأسنان الحادة والمتوهجة للرجل ذي البشرة النحاسية، بطمع مرسوم على وجوههم، مزقوا صدري لبيحثوا بداخلي عن الكنز المخفي. أمسكت يد كتفي وهزتني وأنا منغمس في الكوابيس المؤلمة، إنه سامويل يصرخ قائلا:

-أندريس! أندريس!... اهتز الانهيار الثلجي مرة أخرى في الجبال، لكن تلك المرة جاءت في الأسفل بفعل السيول، وتوجهت مباشرة إلى مخيمنا، ألم تستطع أن ترى؟.. كل شيء غرق! فر اليانكين، دعونا نذهب يجب أن نخرج من هنا...! انظر إلى ارتفاع المياه إنها ستصل إلينا إذا بقينا هنا..... دعونا نذهب!... ماذا تنتظرون؟ دعونا نذهب!

ولذا بالفرار إلى قمة التل الأسود المليئ بالناس، لكن لم يكن لدي نية للهرب، إذا فقدت الكنز الذي سيقودني بالفعل إلى السعادة لن أستطع حينها أن أواصل حياتي، وقفت جامدا وحارسا بين المكان الذي دفنت فيه الكنز وبين الفيضان الذي سيأخذه مني ونظرت إلى الموجات القادمة كأنها تزأر جانب التل وأصبحت مغطاة تحت الزوابع السوداء.

أضاف ضوء القمر الخراب على المشهد عندما كانت الشمس ترتفع خلف قمم أشجار التنوب السوداء، اختفى الوادي الضيق الموجود عند سفح التل الأسود أيضا اختفى المعسكر الأمريكي وكانت الأشجار والخيم التي كانت منصوبة هناك في ظلالهم مغطاة بالخليج الصغير الذي أصبح سيلا هائجا، تمزق مياهه المتدفقة كل شيء بشكل مخيف.

علت الامواج بالقرب من مخيمنا وألقيت بعض جذوع الأشجار الكبيرة والصخور وكونت خزاناً في مقدمة مسار الخليج المغمور بالمياه، حفظ خيمنا من الدمار العام، استطعت تسلق الأغصان الملتوية فوق الخليج الصغير في المكان الذي وجدت فيه كنزي، لكنني وجدت قاعاً من الإردواز الجاف تماماً، قد كشفه الانهيار العنيف، فتح الآن الخليج قاعاً جديداً كأنه جسر طبيعي، في ذلك المكان قد فنى شخص آخر، خسر كل شيء بشكل لا يصدق، لكنني لم أتحرك، مازلت طفلاً ولم تتحول أحلامي إلى حالة من الطمع، كان هناك فقط ثقل على عاتقي وهو أن سامويل لن يكون الآن قادراً على جمع الثروة الهائلة دون معرفة ذلك؛ فقد يأتي إلى أرضه.

بعد أربعة أيام، تم نقل مخيم اليانكي أعلى التل، وكان قاع الخليج الذي كان مغطى تماما بمياه الانهيار كان مليئا بالعمال، وفي كل وقت كانت تنغمس أيديهم في البركة المعكرة، كانوا يجلبون منها أحجار الذهب السمكية.

قد تم إيداع محتويات كيس المعادن النفيسة الكبير عبر القرون أسفل قاع الخليج الصغير، ليس هناك أحد لديه الحق في تلك الثروات المكتشفة والضائعة في ساعات قليلة، اتبعت نظام العمل الانعزالي، أخذت أبحاث في الخليج المجاور؛ حيث تركت المياه مستنقعا واسعا هناك وبدأ يتحول الخليج إلى اللون الأخضر بطبقة جديدة من الأعشاب الصغيرة تشير إلى أنه لا يوجد أحد ينقب عن الذهب هناك.

يكفي ذلك لقول أنه مع اول مستنقع من الوحل، اكتشفت العديد من قطع الذهب الصغيرة، بعضها موجود في أكبر قطع الكروتواز والآخر غير ذلك، عندما عدت إلى الخيمة بالكاد استطعت أن أمشي في منحدر الخليج القصير الحاد؛ بسبب الحمولة الثقيلة التي كنت أحملها.

كم كانت الفرحة التي تملأ روح سامويل المحبة للذهب عندما رأى النتائج الهائل لعمل اليوم؛ فذلك سيؤول إليه في النهاية! لكن بالنسبة لمفاجئتي الكبيرة كانت أنه لم يستجب للإشارة التي كانت بيننا، مشيت سريعا وذهبت إلى الخيمة، وجدته مستلقيا على الأرض، كان وجهه شاحبا جدا وتحرق عيناه في الفضاء وجسده يلتوي بتشنجات مرعبة، وكان بجانبه رسالة مفتوحة ومجعدة، رفعته بصعوبة كبيرة، حاولت أن أخذه إلى السرير، كان جسده متيبسا كجسد الجثة، جعلته يشرب قطرات مياه قليلة، ثم ركضت لأجلب له طبيبا فرنسيا قد مر بالصدفة بالمنطقة، حالما رآه الطبيب صرح بأنه يعاني من الكوليرا، لكنه أضاف قائلا وهو يفحص المريض اليهودي:

-لكن تلك الحادثة الخاصة تحدث عن طريق انفعال مفاجئ كالألم والغضب
و... نعم لدينا هنا الرسالة التي ستوضح لنا ما الشيء الذي شعر به قبل
خضوعه بلوغه تلك الحالة، أنت بلا شك ابنه أو تابعه، لاتخذع نفسك، إن
الرجل الذي نتعامل معه هنا ميت، لكن بذلك الشراب الذي ستعطيه له
على جرعتين سيسترد قدرته على الحديث.
وانعطف إلى سامويل المسكين الذي كان على ما يبدو فاقدا للوعي، وقال
له:

-أليس صحيحا سيدي، أنت تستطيع سماعي وتجد نفسك تسيطر على
حواسك؟

أجاب سامويل بإشارة ثقيلة.

استكمل الطبيب حديثه بثقة عالية بالنفس قائلاً:

-جيد جدا، إذن أنت ستكون قادرا على الحديث بعد شرب الدواء، لكنني
أنصحك بأن تحرص على تناوله.

قلت له:

-لا تتحرك إلا بعد أن تنهي وصفته الطبية المرعبة، كما قال الطبيب شرب
الدواء سيجعلك تتحدث مرة أخرى.

أدار عينه نحوي وصاح قائلاً:

-رب أسلافي قد تخلى عني؛ لذلك تخلّيت عن طريقه واتبعت طريق الشر!
بدا وجه سامويل شاحبا أكثر وأكثر ومتوعكا، رسمت إشارة الموت بعمق
على ملامحه. استكمل قائلاً بصوت كئيب:

-نعم، قد ضحيت بعجل ذهبي من أجل شبابي وحياتي، تركتني كل عواطف
روحي ... في الحال ... وقد سيطر علي ألم جسدي، كانت فكرة فقدان ثرواتي
هي أكبر حزني... لكن... ماذا أقول؟... أوه !!! إيسكار أنت وغد حقير!.....
أعد لي ذهبي.. ذهبي... ذهبي!!

هز تشنج مرعب جسده بأكمله وأسكت الصراخ في حنجرته. صحت
قائلاً:

- باسم الرب سامويل صديقي اهدأ! إنك تريد المزيد من الذهب؟ سأعطيك كل الذهب الذي تريده، أنت لا تستطيع حتى أن تتخيل كم يكون عدده! وجدته اليوم بقبضة يدي في مستنقع الخليج المجاور....انظر. وأظهرت له الدلو الذي كان تقريبا مليئا بالذهب الذي وجدته ذلك اليوم، عندما رأه توهجت عيونه بنيران مظلمة وعاصفة. صاح قائلا:
-رب جيكوب الجيد!

مد يده المرتعشة وغرسها في المعدن الرائع.
- أنت لن تعطيني فقط فترة قصيرة للخروج من خلودك لأتمتع بتلك المعجزة بعيني ويدي بعد ذلك يمكنك أن ترسل روحي إلى أي مكان تريده....

اضطرب صوت سامويل للغاية، أصيب بتشنجات عنيفة لدقائق قليلة ثم أخذ استراحة كاملة. اعتقدت أنه كان نائماً ثم تذكرت الرسالة المفتوحة والمجعدة الملقاه على الأرض بجانبه عندما كان مستلقياً نصف ميت على سريريه، بحثت عنها ووضعتها عند قدمي، كان خط الكتابة لإيسكار، وبسبب معرفتي باللهجة الكالابريا كنت قادرا على قراءتها، وجدت فيها كما من الإهانات الفظيعة التي لاتحصى والشائعة جدا في الأسلوب الإيطالي الشعبي، حيث كانت الرسالة تحتوي على ما يلي:

"لفترة طويلة أسأت استخدام جهلك في قضية الأرقام، أنت مودع خائن لقطعنا الذهبية، كسبناها بمخاطرات بحياتنا وكان دمننا ثمنا لها، وأنت بئس جبان لأنك سرقتها، قيمتك الوحيدة هي أنك عرفت كيف تخفي أموالنا عنا، إن كل شيء له نهاية ووقت الاختلاس انتهى اليوم، ونحن بموجب القانون سنغلق حسابنا معك، لكن ليس بطريقتك التي قمت بها في جبال "أبروزي". يجب أن تعرف أولاً أنني بسب قيادتي لك في تلك الرحلة سأستولي على حيازة كل ذهبك، والذي نقلته في عشر شحنات؛"بيبو"، و"ايستيفانو"، و"بامينو" و"تيسا دي فيكو" والتي وصلت هنا كأنها سقطت من السماء، أخذت رمحا لصيد الحيتان على متن "لوجي"، كانت بضائعنا، أشرعتنا تبحر

في المحيط الهادئ وانغرس في الركاب المطمئنين العديد من الأسلحة، وكانت صنادقهم الحديدية مليئة بها. بقدر ما كان خدامك قلقين، ذهبت إلى إيطاليا، بعث نفسك لقصر في نابلس لتقضي باقي حياتك في ظل الحداثق المبهجة أسفل أشجار البرتقال المزدهرة.

صرخت، واتجهت عيني ناحية سامويل:
-لص! عضو في عصابة قطاع الطرق والسارقين، لكنه كان راقدا دون حرك، أصبح وجهه فجأة أنحف، وجلده شاحبا ولونه ضاربا إلى الزرقاء، نزلت ولمسته ، كان ميتا.

على الرغم من ما أصابني وجعلني أنظر إليه بخوف، كان بالفعل جثة، فالموت يعطي كل شخص هيبة، هالة من الفضيلة، والوشاح الذي به يخفف تشويهااته، كان سامويل الوغد البغيض على قيد الحياة أمام عيني، قد ابعدت نفسي عنه، لكنني نسيت أنه كان حاميا حقيرا للصوص؛ حيث أنه كان بخيلا عديم الضمير، كان يتصرف بحقارة، بالنسبة لي خدعني في قيمة عملي، كل ذلك نسيته وتذكرت عوضا عن ذلك كلماته الحنونة وصوته الساحر، ارتبط برباط لا أعلمه، احتلت كلماته الجذور العميقة في أرواح الأطفال، بكيت دموع الحزن الحقيقي من أجله وقضيت الليل بأكمله يقظا بجانب جثمانه، في الصباح التالي عندما ذهبت للخارج لأبحث عن شخص يساعدني في دفن الرجل الميت، قد أفرغ الخوف من المرض المعدي المنطقة المحيطة تماما، لا يوجد هناك أحد يساعدني على الإطلاق؛ فكان من الصعب تنفيذ المهمة بمفردي، لكن - على رأي القول - كل سحابة تحمل بطانتها الفضية، وكان خوف الناس له نتائج جيدة بالنسبة لي، حيث أنه جعلني أحفر القبر تحت الخيمة نفسها وأخذت كنزي وغادرت وكل ذلك دون أن يشك أي أحد؛ ولذلك الغرض، استخدمت الحافلة التي جلبت بها كل أدواتي من "سكرامنتو"، كان هناك صندوقا يعتلي عجلتين مصمم خصيصا لعبور الأرض المنبسطة الوحلة، جلبت من الرجل الألماني الحصان الذي وصلت

عليه، كان حيوانا قويا ذا شكل جيد، وضعت ذهبي بين قاع الحافلة ولوح خشبي بنفس الحجم، وغطيته بملابسي وبيع المون، وبعد تسليقي قمة قبر سامويل المريخ جلست هناك بمفردي على الرغم من كونه يهودياً

بعد ذلك في مساء يوم حار في يونيو، كنت مغطى بخرقة قماش، لكنني جالس على قمة كنز، وصلت إلى شوارع "سكرامنتو" المزدهمة بسيارتي، كان مذهري يجعلني أبدو وقحا وضحك الناس عليّ وأشارت الفتيات إليّ، كم سيكون عددهم إذا عرفوا فقط سري، سينحنين أمامي!

كانت هناك نقطة عبور لعمال المناجم تحتوي على الطبقات الغنية في المناطق المحيطة، كان هناك في مدينة "سكرامنتو" آلاف المنقبين عن الذهب؛ كانوا يملأون الفنادق والمنازل ونصبوا خيامهم تحت أشجار الريف المجاور.

بعد ذلك، لم أكن في حاجة لأضيف أن ولدا ممزقا مثلي كان مجبرا على ترك نفسه لقضاء الليل بتلك الطريقة، إن ذلك كان أصدق شيء؛ حيث أنني لم أستطع أن أثق في أي شخص بسبب كنزي الذي أمتلكه، ومن المستحيل بالنسبة لي أن أترك سيارتي بدون عناية؛ لذلك ركبت مباشرة وعبرت المدينة دون تفكير حتى في السؤال عن سكن في أي مكان، توقفت فقط لشراء القليل من المون وبعض مواد الطعام، كان التاجر يقرأ الجرائد لاثنتين من الجيران وصاح بصوت عالٍ يحكي حدثا مأساويا في الداخل، صاح: -انفجار تلك السفينة الجميلة! هناك مصيبة ستأتي ببساطة من، هناك نار ستحرق كل شيء، اسمع إلى ما يقوله في نفس الوقت هنا، بعد كل التحقيقات، كان مستحيلا أن تجد الوقاد الذي بدأ تلك الحادثة المخيفة التي نالت من حياة أكثر من عشرين شخصا، قد أدى اختفاؤه إلى الشك بأن تصرفه كان مقصوداً وإجراميا بطبيعته.

عندما سمعت القارئ يقرأ ذلك المقطع، ارتجف قلبي ومر تفكير مخيف في رأسي.

قلت للتاجر:

- باسم الرب، هل تستطيع أن تهدئ قلقي المخيف، تلك الحادثة المأساوية التي قرأتها أنت تشير إلى سفينة "العالم الجديد".

نظر التاجر اليانكي إليّ، من رأسي إلى قدمي وكأنه يقول :

-من يكون ذلك الصبي المجهول الفقير الذي يتحدث إليّ؟

ثم أعطاني البضائع التي اشتريتها، وضعت أمواله جانبا، وفتح لي الباب، كان عليّ المغادرة على الرغم من أن روحي كانت مرهقة بسبب هاجس كئيب.

قد تركت شوارع المدينة السابقة خلفي، على الرغم من أنني وجدت نفسي في ريف جميل مغطا بالازهار، وظل الأشجار المختلفة، أظلمت السحب روحي التي تبددت، لم يكن هناك شيء في مقال الجريدة، ولا فيما قاله التاجر يجعلني أفكر في أن ضحية الكارثة هي سفينة "العالم الجديد"، واستيلا وشقيقها.

تبعث ذلك التفكير وتدرجيا أصبحت أكثر هدوءا؛ حيث شغلت سكينة المدينة وجمالها روحي وتمنيت ذات مرة أن أذهب مرة أخرى إليها، قد حل الليل على الأراضي، كانت النجوم لامعة في السماء ويملأ النسيم الفواح المراعي بهوائه المعطر، توقفت القافلة بعد نصف ساعة، داخل المدينة قريبا من النهر تحت برعم أشجار الجميز، إنها كانت مستعمرة الألمان التي ترأس الأودية الضيقة القرية من "سكرامنتو"، تقربت منهم وسألتهم إذا كان يمكنني أن أقضي الليلة برفقتهم، أخذوني بكل عطف وجهزوا لي غرفة بجانب النيران التي كانت ضرورية وذلك لبرودة درجة الحرارة في الليل.

وشاركني الألمان في محادثات جدية وتركوني غارقا في أفكار، كانت

أفكاري وردية عندما رأيت مستقبلي مليئا بالصور السعيدة، اختصرت مسافات الوقت والمكان وأحضرت إلى الواقع السعادة .

عكس ضوء الموقد تحرك فروع أشجار الجميز وأعطى منظرا رائعا مزخرفا بالخيال، وعندما هاج اللهب المزرق بفعل النسيم، أشرق ضوء أكثر وضوحا وإشراقا في المنطقة المحيطة، رأيت شيئا أبيض يخرج من الأشجار المتشابكة القريبة من النهر، بدأ يسير ويتمايل بشكل مضطرب باتجاه المنطقة المضاءة بالنيران.

عندما رأيتها حركت رأسي وفركت عيني معتقدا في أنني أحلم، لكنني اقتنعت في النهاية أنني متيقظ، صرخت وركضت باتجاه الشبح، إنها استيلا! ليست استيلا المتوردة الباسمة والأنيقة التي أعرفها، لكنها حزينة، كثيبة وخائفة بملابسها الغير مهندمة، في البداية لم تعرفني وحاولت الهرب، لكنها عندما سمعت صوتي قفزت إلى ذراعي، حاولت أن تتحدث لكن قوتها فشلت وفقدت وعيها، كانت سيدات المستعمرة تملأهن الشفقة على رؤيتها هكذا، أخذنها إلى خيمتهن وساعدنها بكل الطرق الممكنة، كنت مشغولا أنا والسيدات بإحيائها، عندما سمعنا ضوضاء عالية فجأة خارج المعسكر، اجتاح المعسكر مجموعة من الرجال المسلحين على ظهور الجياد، دون أن يسقطوا من فوقها، التفوا فجأة بصمت ينظرون إلى كل شيء كأنهم يبحثون عن شخص أو شيء ما، كان أحدهم يميل على جانب جواده، وكان علم المخيم يرفرف وكانت المرأة تحتضن استيلا وتخبئها حتى لا يرونها وهي مستلقية على الأرض.

أشرق أضواء نور المصباح الموجود داخل الخيمة على وجه الزائر الغامض جعل عينيه كأنها فسفورية وجعل أسنانه البيضاء الحادة تتوهج، إنه الرجل ذو البشرة النحاسية، كان مغطا بشال مخطط باللون الأبيض والأسود، وكانت رأسه مكشوفة وكان شعره الطويل ينسدل تحت منديل أحمر

اللون، نظر بوحشية جعلت جميع النساء تصرخ عندما رأيته، كان ينظر حول الخيمة بنظرة نسر، ثم عدل نفسه وركل جواده، صرخ بصوت أجش ولاذ بالفرار وتبعته عصابته كزوبعة داكنة في الليل.

عند إطلاق صوت الصرخة الأخيرة ارتجفت استيلا والتي كانت مستلقية دون حركة ارتجفت كأن تيارا كهربائيا قد اخترق جسدها، حركت شفتيها بصعوبة بالغة ونطقت باسم شقيقها ثم بكّت، قادني بكأؤها الضعيف إلى الأم، كأن القصة التي قرأها التاجر فيما مضى عادت إلى ذهني حيث تبعثها تلك النهاية الحزينة.

وأخيرا استعادت استيلا وعيها من فترة الإغماء الطويلة، نهضت فجأة كأنها استيقظت مفزوعة ونظرت حولها بعينها المثبطة العزيمة، صاحت قائلة عندما رأتني بجانبها:

-أندريس! هل سمعت تلك الصرخة، إنها اشارة، إنها... إنه الرجل ذو البشرة النحاسية... هو من بدأ الحريق في السفينة وقتل شقيقي وانتزعني بعيداً عنه عندما رقد ميتاً... لقد هربت منه بإعجوبة، لكنه يلاحقني وسيقبض عليّ...

حاولت الهرب وقامت من بين ذراعي، لكنني أوقفتها، قلت لها:

- ليس هناك شيئاً لتخافي منه، أنتِ معي

نظرت استيلا حولها بحزن وقالت بصوت مليئ بالحنن:

-أنا وحيدة في هذا العالم.

صرخت قائلاً:

-وماذا عني! ألم تحبيني، ألسنت شقيقك؟

-أوه! أندريس، إن حياتك لك فقط؛ أنت تخص والدتك التي تنتظرك لتعود إلى المنزل، إذا كنت تريد رؤيتها مرة أخرى، يجب أن تتركني خلفك؛ فالكائن الشيطاني الذي يلاحقني قد قتل كل شخص يكون بجانبني؛ قتل اليخندرو، قتل ابنه القبطان؛ وسيقتلك أنت أيضاً إذا لم تهرب بعيداً عني .

قلت:

-لا، على العكس أنا هنا بجانبك وأنتِ ستظلين هنا للأبد، لكن أخبريني ماذا حدث؟ كيف حدث لك كل تلك الأشياء المروعة؟ لماذا أنتِ هنا وحيدة في وسط الليل؟!

أجابت:

-أوه، إنها قصة مرعبة! كل الأشياء الجيدة انغمست في هاوية الشر، أغرقت السعادة السفينة، كأنها كانت على وشك الوصول إلى ميناء الثروة الجيدة!.... وذلك كان مشكلتي بالكامل.

-ماذا تقولين؟

-اسمع فقط، لم يمر وقت طويل على خطابي الذي سرد كم كنت أنا واليخندرو ولوسي سعداء ونحن على متن السفنة، هذه هي الحالة التي مضت عليها حياتي بها فقد كانت بين اثنين أحببتهما جداً، أسافر عبر النهر برحلة بحرية دائمة عبر المراعي المزدهرة بالأزهار التي كانت حلما مسليا بالنسبة لي، كان اليخندرو ولوسي يحبان بعضهما البعض وقد كنت رابطا إضافيا بينهما، لم يكن زواجهما بعيدا، رغبتنا فقط في صنع سعادتنا الكاملة، لكنك كنت قريبا وذلك أسعدنا لنأمل ونفكر في أن ذلك اليوم الذي ستأتي فيه قريبا وستنضم إلينا. هكذا مر العام، كرست نفسي للموسيقى وللمحادثات السارة وللنشاطات المرحية وكان أسعد عام في حياتي.

تزوجت ابنه القبطان من شقيقي وخططا لبناء شركة جديدة وإنشاء خط سفن جديد للسفر بين "سان فرانسيسكو" والأجزاء الجنوبية للمحيط الهادئ، وسيكون شقيقي مسئولاً عن إحدى السفن، انتقلت أنا واليخندرو ولوسي إلى "ليما"، يالها من خطة! أرض الوطن، الصداقة، العائلة، لكن وأسفاه! كان كل ذلك سرايا ساحرا نراه كشيء تلاشى كالضباب في مهب رياح قوية، دارت محركات العالم الجديد وكانت تحمل الركاب وكميات الذهب الكبيرة على متنها عندما كانت تستعد لرفع المرساة من على رصيف ميناء "سكرامنتو".

قد تركت خطاباً لك وفيه أسردت لك خطتنا الرائعة وحجزت لك مكاناً خاصاً، كنت سعيدة بالأخبار السارة التي أرسلتها لك، كان عقلي يتسابق مع الأفكار الجميلة، كنت مستلقية على ظهر السفينة في نفس المكان الذي وجدتكَ فيه عندما تركتني في "سكرامنتو" لمدة عام تقريباً، والآن الدهليز مليئ بالناس القادمة والذهابة، يتحدثون بحماس، لكن هذه المرة كنت تائهة بين أفكارٍ وسمعت همهمة عالية للمسافرين ولم يشعروا بوجودي في ذلك المكان الذي كنت فيه، وبسبب تصميم السفينة أستطيع رؤية سخانها المحترق للغاية، نظرت متحيرة وكنت مندهشة من ارتداد النار وفي النهاية استقرت عيني على السخان المتوهج في الليل كنيان الجحيم، أصبح المشهد كاملاً، كان هناك رجلان ملامحهما تحجبها طبقة الفحم السمكية، أشعلا النيران وتوهجا وجهاهما المحمران بضوء اللهب، كان لدهبهما مظهرًا مخيفًا، كان أحدهما ذا حجم ضخم، شعره واقفاً من حرارة النار ولديه أسفل شعره وجه شيطان. تخيل رعبى - فقط إذا كنت تستطيع - من رؤية رجل عندما يعطف ترى عيون صقر تتوهج في الظلام، ينظر إليّ وهو يكشف أنيابه، وكان لديه صفي من الأسنان الحادة الكبيرة، كان يحو السعادة من ذهني؛ إنه الرجل ذو البشرة النحاسية.

جعل خوفاً الحالي قدمي ملتصقة بالأرض؛ عندما تغلبت على ذلك الشلل، ركضت وذهبت لأختبئ مع لوسي وأليخندرو، رأيا كم كنت شاحبة وأصبحت مروعة، سأحدث وسأخبر شقيقي بكل شيء، لكنني لم أفعل ذلك مثل كل مرة؛ بسبب كوني خائفة من القتال بينه وبين ذلك الرجل المخيف، ذلك الخوف المروع الذي قد يؤدي بي إلى كارثة محققة؛ لذلك لم أتحادث، بدلاً من الخوف ذهبت وأمنت نفسي في غرفتي، شعرت بالإرهاق الذي جعلني أنام أخيراً، لكن سرعان ما سحقتني كابوس مرعب، دار وغضب بحر من النيران فوق رأسي حينها ملئت أذناي بالصرخات العنيفة والعالية الممتزجة بكل أنواع البكاء والشقاء، كان الجو حاراً وخانقاً وضغط على صدري ثقل غريب. فجأة، استيقظت على صوت ضوضاء عالية، سقط باب

الغرفة لدخول رجل خرق جدار الذهب، يحمل جسدا هامدا لامرأة فاقدة الوعي على ذراع واحد، وأمسكني بالأخرى، انتزعني من النيران الشرهة التي التهمت السفينة بسرعة.

أنقذ أليخندرو حياة خطيبته وشقيقته، لكنه عندما وصل إلى سلم السفينة وأصبح جاهزاً للقفز في المياه معنا، اتكأت على كتفه ورأيت شيئين هائلين ومخيفين، ارتفع ودارت كرتين الرصاص المربوطتين بحبلين في الهواء تميلتا بعد ذلك على رأس شقيقي وخطيبته، أسقطت كلاهما ميتين على الأرض. أعادتني المياه الباردة لإدراكي، فتحت عيني ورأيت عيني متوهجتين لشخص طماع ذي ابتسامة مخيفة وأسنان حادة لرجل ذي البشرة النحاسية، حملني بين ذراعيه وعام إلى الشاطئ وأرسل إشارة في ذلك الاتجاه عن طريق إطلاق صرخة فظة ومشؤومة. منحني الخوف قوة، تحركت فجأة وانزلت من بين ذراعيه، وتركت نفسي أغوص إلى قاع النهر، استكملت استيلا حديثها قائلة: -عندما لمست قدمي رمال القاع المنذقة، تركت نفسي أنجرف تحت تيار المياه الجارية حتى أنني لم أستطيع التنفس، عند تلك النقطة وصلت إلى سطح المياه، وجدت نفسي في وسط النهر، محاطة بظلام عميق، سمعت صرخات المعاناة وأنين العذاب في كل مكان يحيط بي، تركتني ذاكرتي، كيف أحصل عليها هناك؟ ماذا حدث؟ لم أستطع تذكر أي شيء، أعرف فقط أنني هربت من روح شريرة وأنني هربت فقط من يده، كيف؟ لم أستطع أيضا تذكر وسحقني الخوف، تجرأت بالكاد على إظهار رأسي فوق سطح المياه أكثر لأتنبس الهواء؛ ثم عمت أسفل المياه ضد التيار بالقوة التي منحني الخوف إياها.

أوه! من يستطيع توقع أنني عندما لعبت مع أصدقائي في جون خليج "تشوريوس" الصغير المهيج في أسعد أيام حياتي وتعملت فن السباحة من سيفرينو، أهذا هو اليوم الذي أنقذ حياتي وشرقي؟

وصلت أخيراً إلى الشاطئ فقد كان مكاناً شديداً الانحدار ومغطى بنبات عليل تغوص أغصانه الحادة في المياه، دفعته بقلق جنباً بيدي وأنا منهكة وضعيفة جداً، وعانيت من ضيق التنفس، لكنني فجأة تركتها وسقطت خائفة، كان بين تلك الأغصان المعقدة شعر شخص طويل، كانت جثة طافية.

هناك شيء آخر عرفته هو أنني أفقت من إغماء لم أعرف مدته، وجدت نفسي على شاطئ مهجور حيث تم إلقائي وسط الأدغال الممتدة، كانت أعضائي مخدرة ولم أستطع التحرك، ساد صمت كئيب هناك، يقطعه خرير الأمواج ونقيق الطيور الليلية، حاولت النهوض وسحب نفسي بعيداً عن العشب الكثيف، تأمر الظلام والألم والخوف الناتجين عن المشاهد المخيفة حولي، وفجأة سمعت صرخة بعيدة، لكنها مميزة ومخيفة جداً وفظة للرجل ذي البشرة النحاسية، بعد ذلك بقليل اقترب مني مجموعة من رجال فرسان يركبون أحصنتهم، تبعث حوافر أحصنتهم الفولاذية شراراً تجاه الحصى المنتثر على الأرض.

منحني الخوف قوة مرة أخرى لم أمتلكها لم أمنحها من قبل، هربت في الطريق المعاكس ووصلت بالقرب من هنا في المكان الذي اختبأت فيه في الأدغال الكثيفة، أخيراً سحني الليل البارد وذهبت تجاه ضوء النيران، لم أعرف ماهية تلك المعجزة الإلهية التي أعادتكم لي!

في اليوم التالي، غادرنا مع بعضنا البعض؛ غادر الألمان إلى مكانهم، ونحن إلى ميناء "سان فرانسيسكو"، تجولنا ببطء بين المراعي الأكثر جمالاً، نجلس جنباً إلى جنب وكنز تحت أقدامنا، وفوق رؤوسنا روعة سماء الصيف المخططة بسحب اللؤلؤ والمنقطة بأسراب الطيور التي تملأ الهواء بأغانيها المتنوعة، لكن استيلاً لم تعد بعد حتى بنفس خيالها القديم، جعلها حزنها شخصية كئيبة، وظلت صامتة بدون أي دموع. كنت أريد أن أدعوها لتنزل من الحافلة وتسير بجانبها، وقد رضخت بحزن لطلبي، وسرنا على سرير من الأزهار، لكن روحها أحببت الطبيعة؛ لذلك مرت تلك المناظر

الطبيعية الرائعة بلامبالاة باردة.

ذات صباح، مع بروز ضوء الفجر الأول، كانت مدينة سان فرانسيسكو وخليجها مليئان بالسفن التي ظهرت أمام أعيننا، بعد ذلك بقليل تجولنا في شوارعها، توجهنا إلى الميناء حيث كنا نأمل في إيجاد سفينة ستغادر قريباً إلى ميناء "كاليو"، كما تأقت استيلا لأن تترك خلفها تلك الأرض التي أهلكت حياتها وثروتها، أما أنا فقد تحركت بضيق صدر غريب، تمنيت بحماس أن أعود إلى وطني، وكأنه تم الاستجابة لأمانينا، كان هناك لافتة معلقة على عمود شرفة بيت الإرسالية تعلن رحيل شرعية بصاريين "بيترارينا"، في ذلك المساء تتوجه إلى ميناء "كاليو"، تلك اللافتة تضيف أن مكان مبيت الحمولة والمسافرين كان جاهزاً.

منذ وقت حدوث الكارثة المريعة في "سكرامنتو"، كانت أول مرة يظهر على ملامح استيلا إيماءة السعادة، سررت بذلك الفأل الجيد، أخذت وقتاً قليلاً لتغيير ذهبنا لعملات ورقية واشترت استيلا الملابس، والأوشحة وأشياء ضئيلة كانت أمتعة أساسية لسيدة شابة، ثم اشترت التذاكر من نفس بيت الإرسالية وركبنا في ذلك المساء السفينة.

كانوا قد جهزوا السفينة عندما ركبنا على متنها، كانت مدهونة مؤخراً، ونستطيع رؤية الأشرطة الجديدة التي قاموا بتجهيزها و قد غيروا الصاريات الأساسية والساحات.

عندما سرت على المنصة، عندما نزلت إلى غرفتي، شعرت بألفة غريبة نحو السفينة، عندما قدمت نفسي لاحقاً للقبطان الواقف في مقدمتها مع رفيقه الأول ورئيس خدم السفينة، ادركت أنني اعتدت على رؤية نفس الوجوه الكئيبة والشريرة في مرات أخرى، مجتمعين مع بعضهم البعض بنفس الطريقة.

تجولت على ظهر السفينة، قلقاً بسبب الذكريات التي تبدو تتراجع كأنها وصلت على حافة تأثري بها، ثم عادت لتتقهقر مرة أخرى، عادت استيلا التي تركتني لتحصل على غرفتها وهمست في أذني قائلة:
-اليوجى!

لمع الإلهام في عقلي، نحن على متن سفينة سامويل، تحت أيادي قطاع الطريق الذين سرقوها منه، وقد كانت استراتيجيتهم ليكونوا أثرياء هي إلقاء المسافرين في البحر ويسرقون ذهبهم، ولم يكن لديهم أي تردد في عمل ذلك معنا منذ فترة طويلة.

بقدر ما أحنّني إنذار استيلا بذلك، كان لابد أن أخبرها عن ذلك الوضع البائس الذي كنا فيه، هاجت ملامحها أولاً بالحزن وفجأة أصبحت هادئة وتحولت بشكل لا يصدق إلى صورة من السكون، وكان ذلك مفاجأة كبيرة بالنسبة لي.

قالت للقبطان وهي تبسم ببراءة الطفولة:
-سيدي، كنت اتشاور مع شقيقي لنرى إذا كان من الممكن أن نطلب معروفاً منك، عندما جلبنا أمتعتنا صدمتها موجة وكل شيء تبلل، هل تسمح لنا بأن نبسط أشياءنا على ظهر السفينة لنجففها؟

سمعت ذلك وخفت؛ فالصندوق الذي يحتوي على ملابس استيلا يحتوي على كمبيالتنا وتحتوي حقيبتني على كمية كبيرة من حجارة الذهب السمكة التي وضعها بجانب أمي.

ازداد خوفي بعد تلقي إذن من القبطان، انحنيت استيلا أمام الجندي وطلبت منه أن يجر أمتعتنا من غرفتها، حينما تم جلب الحقيبة والصندوق على ظهر السفينة، بحثت استيلا في جيوبها وأخرجت المفاتيح بضجة شديدة،

ثم فتحت الحقائب والصندوق وأفرغت محتوياتهما المبتلة أمام القبطان ورفقائها الذين حثوها لتظل قريبة، صبت استيلا كل المياه التي وجدتھا في غرفتها عليهم، واختفى الذهب والعملات الورقية! سعدت لذلك.

تنهدت استيلا بحزن بسبب رؤية الملابس المبللة دون أن تمنع نفسها، لمست بأصبعها الشريط الحريري الذي خربته المياه، وسألني بصوت حزين إذا كنت قادرا في أي وقت طوال حياتنا على شراء مادمته تلك الموجة المخيفة.

قد أنقذتنا حيلتها، فقد وجدت استيلا- بالفضول القلق الكامن في المرأة والذي يجعلها تلاحظ وتسجل كل شيء تراه- مكانا مخفيا في زاوية حجرتها القديمة، مكونا من لوحين خشبيين متلائمين مع بعضهما البعض كانا مستترين جيدا فلا يمكن ملاحظة ذلك الأمر بسهولة، كانت مذعورة مثلي من تذكر رسالة ايسكار، أخفت الذهب والعملات الورقية هناك وخرجت بتلك الخطة وتقدمت لتسحب الصوف أمام أعينهم.

على الرغم من الحماية التي قمنا بها والتي خدعنا بها اللصوص، ملأني وجود استيلا بينهم بالقلق، هرب النوم من عيني وقضيت الليل أمام باب حجرتها واقفاً دون تحرك وبأذنين منبهتين وعين تحديق إلى الظلام وبيد تمسك مقبض خنجر.

ذات يوم نظرنا ورأينا- عبر ضباب فصل الخريف- علم "بيرو" المرفوع على قمة برج طويل، وبعد ساعة وصلنا إلى ميناء "كاليو"، عندما رأت الميناء الذي تركته مع شقيقها، ذرفت الدمعة على خد استيلا، لكنها سرعان ما جففتها واستعادت هدوءها الحزين، حالما رست السفينة، أتى موظفوا الجمارك على متن السفينة من أجل التفتيش، مر فكرة برأسي في تلك اللحظة وكنت منزعجا كأنني أواجه قرارا صعبا.

كان على متن السفينة ثلاثة لصوص سرقوا السفينة وخططوا لاستخدامها كمنطلق لسرقاتهم وقتلهم المستقبلي، هل أتهمهم وأحولهم إلى عدالة القانون؟ أو أظل صامتا وأحمل نفسي مسئولية الدم الذي سيفسك بعد ذلك؟

نظرت إلى استيلا وقد فهمت شكي، دعنا نترك عقاب من يرتكب الأخطاء للرب؛ دعنا لا نلطح شفاهنا بالاتهام، سنأخذ من ميزة حضور مفتشي الجمارك فرصة لاسترداد ثروتنا. ظهر غضب شديد في أعين اللصوص عندما رأوا حقبة الذهب ومحفظة مليئة بعملات ورقية في يدي ونظروا إلى استيلا بنظرة حادة.

بني خط السكة الحديدية الذي سيأخذنا إلى "ليما" أثناء غيابنا، عندما وضعنا أقدامنا على رصيف المحطة، أمسكتني استيلا بيدها وقادتني إلى الخارج.

سألتها:

-إلى أين تأخذيني؟

أجابت:

-إلى منزلي.

ضحكنا ومشينا لوقت طويل، مررنا على الكنيسة وقالت استيلا:
-القديسة أنا! إن تلك الكنيسة هي المكان الذي قدمت فيه لأول مرة القربان المقدس، ذهبت وركعت ثم صليت.

عندما غادرنا الكنيسة لاحظت أنها تحاول أن تخفي دموعها المنهمرة عني، رأيت حجرا كبيرا مثقوبا، من المؤكد أن هذا الثقب بفعل تدفق المياه خلال السنوات الماضية.

صاحت استيلا:

-الحجر المثقوب! في أيام الأحد عندما كنت فتاه صغيرة كنا نرقص ونغني

أغاني بسيطة مسلية واستخدمنا تلك الأماكن كمكان خاص مناسب لغنائنا،
من يستطيع أن يعرف بعد ذلك أن خطواتي الأخيرة في العالم ستكون قريبة
من نفس المكان!

-خطواتك الأخيرة في العالم! ماذا تقصدين؟!

قالت رفيقتي:

-انتظر فقط.

وقادتني إلى حجرة دخول دير النظام الكرمل، دقت على الباب الخلفي
وتم فتح الباب، صرخت راهبة عجوز كانت تسير في الدير وركضت لتفتح
الباب:

-استيلا!

-نعم أم الدير، إنها أنا استيلا التي قضيت أولى أيام حياتها بين تلك الجدران،
وعدت الآن لقضاء باقي الأيام هنا، أطلب منك أن أكون راهبة مبتدئة.

انعطفت استيلا نحوي وعانقتني ثم اختفت خلف الباب، كان لدي وقت
لأتعافى من صدمة انفصالنا المفاجئ، أصابت صاعقة البرق رأسي، توجهت
ضربة الخنجر مباشرة إلى قلبي، لم تسبب لي الكثير من الألم، ألقيت نفسي
أمام الباب على أمل أن أدقه من الأسفل، بكيت، صرخت، ناديت على استيلا
بيأس، قضيت طوال الليل على الأرض أمام ذلك الباب، ولكنه بقي مغلقا
وصامتا كالقبر، وأخيرا انطلقت بسرعة؛ وبعد ساعات قليلة كنت على متن
الباحرة المتوجهة إلى الجنوب، ذهبت إلى شاطئ "ايصلاي"، اشترت فرسا في
الحال وركبته طوال الطريق إلى "أركيوبو" ولم استرح أكثر من ساعة خلال
كل رحلتي إلى "ليما".

همست عندما كنت أركض عبر رمال الشاطئ بين الميناء والمدينة قائلاً:
-أمي! عزيزتي أمي! كل أحلامك السعيدة على وشك أن تكون حقيقة، ابنك
عائد، وقد جلب كنزا ليضعه أسفل قدميك.

استكمل الرجل الشاب حديثه قائلاً:

-عبرت الصحراء.

كان صوته يعلو بانفعال أكثر وأكثر كلما استمر في كلامه.

-عبرت الوديان الجرداء ووصلت إلى الوديان المغطاة بأعشاب ريفنا الجميل المعطرة، وتسقلت منحدر الأرض المرتفعة، عندما وصلت إلى تلك القمة المظلمة العالية "ميستي"^١، انتفض المنحدر كله أمامي، من قاعدته المظلمة إلى قمته المغطاة بالثلج.

إن منظر الجبل المقدس، المنظر الذي يجعل أي شخص من "أركيوبو" يرتجف بسعادة، جعلني لسبب مجهول أرتجف بخوف غريب، نظرت إليه بلهفة، أطلب منه تفسير حزن روعي التي ترى نذير مشؤم في ظلاله. لقد كانت ليلة فرسي، تلهث وشعرت بضيق تنفس، وقفت، صهل الفرس على الأرض المرتفعة الثانية، بدأ الظلام ينتشر عبر مشهد الطبيعية الواسعة، لكن ضوء القمر الغامض كشف كل تفاصيلها؛ وكان يوجد هناك بعيداً صف من الأسطح والأبراج البيضاء.

إنها "أركيوبو"! عبرت وادي "كونتجا" وشوارع "تيابيا" الضيقة بسرعة كبيرة تخيف كل شخص أمر به، قفزوا جميعهم في طريقي كأنني كنت شبحاً على الخيل، كان فرسي على وشك السقوط، لكنني كنت أدفعه، صرخت وحفزته للأمام وجعلته يركض.

أخيراً، ظهرت المدينة البيضاء فجأة أمام عيني مرة أخرى عند منعطف الطريق، لكنني كنت قريباً جداً تلك المرة، استطعت رؤية أضوائها وسماع أصواتها، دفعت فرسي، أسرع إلى الأمام وكان يركض ييأس، دخلت المناطق النائية؛ عبرت الجسر وذهبت إلى النهر، وأصبحت هناك...!

١ - ميستي: توجد في بيرو بقرب "أركيوبو" وتعتبر بركان زائف لأن التاريخ لم يذكر حدوث أي انفجارات به.

كان المنزل الصغير أمامي، مظلما وصامتا تحت الظلال السوداء لأشجار التين، كان الباب مغلقاً، قلت لنفسي:
-إنها نائمة.

ثم قفزت على فرسي وطرقت على الباب بنفس الدقات التي قمت بها سابقاً، جعلت أُمي تعرف بأنني من يدق الباب، لكن الباب ظل مغلقاً؛ فقط كان يجيبي صدى صوت من الداخل، صوت واضح.
صرخت قائلاً:

-أُمي! أُمي!

ووضعت وجهي على الباب الصامت، أتت إليَّ امرأة من المنزل المجاور عندما سمعت صرخاتي.
أخبرتني قائلة:

-أخذناها أمس إلى المقبرة، نال حزنها وعملها منها، يوجد هنا مفتاح المنزل، حيث طلبت مني أن أحفظ به حتى يعود ابنها.

لم أتحرك ولم أقل أي شيء، استلقيت فقط هامداً أمام الباب، أشفقت المرأة عليَّ وحاولت أن تأخذني إلى منزلها، لكنها لم تقوى عليَّ، وأخيراً تركتني بمفردي.

لم أعرف كم من الوقت بقيت هناك مستلقياً على الأرض، تستند رأسي على عتبة الباب، جعلتني رياح الليل الباردة أرتجف في العزلة العميقة التي كنت فيها، نهضت وكانت أطرافي مخدرة وجسدي بأكمله يؤلمني كأنني كنت أتحمل مرضاً طويلاً المدى، بحثت عن المفتاح، كنت غير قادر على إيجادها، ثم أدركت بعد ذلك أنه كان في يدي طوال الوقت، فتحت الباب ودخلت المنزل الذي قضيت فيه طفولتي في سعادة تحت جناح ذلك الملاك الذي قد عاد إلى الجنة بعد بكاءها وانتظارها لي عبثاً، أشعلت الضوء ونظرت حولي، كان كل شيء في المنزل المهجور كما كان؛ كنت أشعر بوجود والدي في كل مكان، كانت توجد هناك أدواتها، وكان هناك أيضاً شغل

الإبرة خاصتها، وكان سريري مرتبا وجاهزا للترحيب بي، قريب من سريرها الغير مرتب، توضح حالته أنها ماتت هناك عند رأس السرير تحت الصليب، وجدت جوهرة فوق جريد النخل المعلق، إنه كان كل الذهب الذي أرسلته إليها من "كاليفورنيا"، رسمت أمي تنسكها الرقيق في ذلك التصميم الجميل، أدخرت كل الذهب من أجلي، جلست على الأرض بجانب سريرها الفارغ، أسندت رأسي على يدي وغرقت في هاوية الحزن، لم أعد ذلك الصبي الذي بكى لأربعة أيام على فقدان رفيقته عند باب الدير الذي دعاها بيأس وبكى وتنهّد، كانت الضربة التي استقبلتها قاسية جداً ولا حدود لها، لكن دموعي وعطر روحي قد تجمدا في قلبي.

وجدت نفسي في الصباح التالي في نفس الوضع، كانت شفتاي صامتتين وعيناي جافتين، لكن شعري على رغم من أنه مازال ينعم بهيئة الطفولة إلا أنه قد أصبح أشيبا، ومرر الشاب يده على شعره الأسود، يبرز صفائر الشعر المتعددة هنا وهناك.

استكمل الحديث قائلاً:

في تلك الليلة، وسط هذيان حزني، بعد لحظة الصمت الكئيب، جئت بخطة سأكملها بعد شهر، كان المشروع لتنفيذ أحلام والدتي، أمانها المستقبلية التي كانت تفكر فيها في أوقات مختلفة والتي قد كانت منقوشة في عقلي. اشترت كل الأراضي التي كانت تحبها في الريف والتي كانت تذهب إليها دائما أثناء تجولها، ثم بنيت منزلا ريفيا محاطا بالحدائق التي حلم بها خيالها الخصب، وملأته بالأشياء الجميلة التي كانت تسر ناظرها، اشترت بالذهب الأراضي المجاورة لمنزلنا الصغير على شاطئ نهر تشيلي وحولتها إلى حدائق ضخمة وسيجت المنزل ببساتينه العطرة كملجأ للمحسوب.

بنيت قبرا في سياج النول وسط شجيرات الورد بالقرب من شجرة التين القديمة حيث ترقد أمي التي سرقها ذات ليلة من أرض القبر المجمدة، وبالتالي عشت بجانب قبرها، محيطة نفسي برفاتها، وهمت نفسي بأنها

ما زالت على قيد الحياة، وقد جعلني ذلك الأمر أحزن لفقداني الذهب وأنا في طريق عودتي، تحركت ووصلت ومسكت يد رفيقي، بينما أشرقت الشمس وأتى الهندي ليخبرنا بأن الحصان جاهز لرحيلنا، خرجنا جميعاً من الملجأ الموجود تحت الأرض وغادرنا سويا واستمرينا في نفس الطريق الوعر الصخري المنحدر بشدة من ارتفاعات "تاكورا" إلى أراضي "باشيا" المنبسطة، عندما وصلنا إلى المدخل ودعنا الرجل الأركيوي واتجهنا نحو طاحونة سكر في وادٍ صغير على يمين الطريق.

استكملت أنا وعاملي المناجم والباريوم- الرجل ذو الصوت الأجش- الطريق في صمت، تأثرنا جميعاً من الليلة السابقة بتلك القصة، سألتني أحد عمال المناجم وهو يسلمني كأس البيرة:

-فيما تفكر سيدي؟ في الرجل ذي البشرة النحاسية؟
-نعم بالفعل! أستطيع رؤية عينيه التي تشبه عيون النسر وأسنانه الحادة في ذهني، ياله من مخلوق شيطاني! أتساءل إذا كان مازال مرتبطاً بحياة الجريمة، أم أنه كان بالفعل قد أخذ العقاب الذي يستحقه؟!
قال عامل المنجم:

-من يدري؟
أجاب الباريوم وجعلنا صامتين:
-أنا أعرف!

بعد كلامه الذي كان بمثابة مفاجأة لنا، لومناه بعاصفة من الهتافات -ماذا؟ أنت تقصد أنك عرفت ماذا حدث ولم تقو أي شيء؟ لماذا تركت الراوي يذهب دون أن تخبره خاتمة الحكاية؟ دون أن تتركه يعرف كيف صار الحال بذلك الشرير؟

كنت حريصاً على ألا أرتكب مثل هذا الطيش، ماذا أقول؟ قد يكون الرجل الشاب بالفعل حزيناً جداً على قصته، وقد اعترفت له سابقاً بوصف الشخص الذي يدعى "الرجل ذو البشرة النحاسية"، إنه المخلوق المرعب المتلون الذي سأخبرك عنه الآن، ظللت صامتاً لأقيه الشعور بأحاسيس

في عام ١٨٥٣، كنت في "سان فرانسيسكو" كشريك في شركة غنائية أخذتها كاتالينا هابس إلى "كاليفورنيا"، إنها ليلة الكرنفال، كنا نؤدي "ماسنديري" على مسرح المدينة الرئيسي، كنت واقفاً في ركن مظلم في جناح المسرح منتظراً خروجي إلى المنصة، أنظر إلى الحشد الهائل الذي يملأ القاعة والذي كان في تلك اللحظة يصفق لكاتيلينا بحماس. كنت أتأمل كل تفاصيل المكياج المتناسقة، التصرفات والتعبيرات التي تنال إعجاب الجمهور، لفت انتباهي مشهد القاعة.

في كل مرة ترتفع فيها الستارة، كان هناك رجل قوي يجلس في وسط الأوركسترا يلفت انتباهي، كان ضخماً، رأسه مرفوعة بغطرسة وحشية، بدت عليه علامات الشر، تلك الرأس قد تخيف دكتور جال^١، كان شعره كثيفاً وطويلاً، بعضه مفرد وبعضه مجعد، متوج الرأس، يصب عليه ظل الوجه الكتيب الملون بالدم؛ فقد كانت لديه عينان تتوهجان بغضب شرس، كان مكشراً عن أنيابه الحادة البيضاء.

تأثرت برؤية ذلك الرجل، لم أتأثر بأي فرد آخر في القاعة كما تأثرت به، أرى الناس يقتربون منه بصورة تدريجية ويغيرون مقاعدهم حتى كونوا حلقة حوله، كنت قادراً على مراقبة كل تلك الأفعال من مكاني الخفي فوق المنصة.

في الجهة اليمنى التي تبعد قليلاً عن الحلقة المتكونة حول الرجل النحاسي، كان هناك رجل على ما يبدو كضابط بحرية ينظر أيضاً مباشرة إليه، لكن كانت نظرة الرجل مليئة بالحق المولم الذي يمكن ملاحظته في كل حركاته.

١ - فرنسيس جوسيف جال (١٦٥٨-١٨١٨): خبير استراتيجي بعلم التشريع ومؤسس علم فراسة الدماغ.

جاء وقت دخولي إلى المنصة قبل نهاية الفصل، كنت مرتبكا جداً عندما غنيت، لا يهم كم حاولت أن أركز مع الأوركسترا، لم أبعد عيني وأفكاري عن المأساة التي تحدث أمامي، أخيراً فهمت أن هؤلاء الأفراد المتجمعين في حلقة كانوا ضباط شرطة متكررين. كانوا صامتين مثل السفينة الحربية المستعدة للهجوم، كان الرجل المسن يشاهد ذلك ويده في جيب معطفه الطويل.

لم تنسدل الستارة بعد عندما تحرك الرجل النحاسي، كأنه كان يغادر مكانه وحينها قفز اثني عشر رجل شرطة ليقبضوا عليه، صرخ ضابط البحريه فجأة:

-لأحد يلمس ذلك الرجل، إنه يخصني!

ثم قفز بسرعة البرق وأمسك بشعرة الطويل وضربه في رأسه بمسدسه.

في اليوم التالي، كانت الجثة معلقة في المشنقة أمام السجن، على الرغم من إدانة الموت بالشنق، لكن ضابط البحرية كان لديه الحق لينتقم.

أتت مجموعات كبيرة من الناس وذهبوا أمام المشهد المرعب، يحكون باستمرار قصصاً مخيفة عن الرجل الميت.
صاح أحدهم قائلاً:

-إنه فوكلاندي! نعم أنا متأكد من ذلك، إنه قاطع طريق من أمريكا الوسطى يحرق الممتلكات عمداً وكان يتمتع بحرق العائلات بأكملها حتى الموت بعد حبسهم في منازلهم، إنه عين الصقر! الصياد الذي يطارد المراعي ليتأمر على حيواناتها الأصلية نعم إنه هو، يستخدم عينيه لجعل الغزالة تتوقف في طرقها.

-إنه تابوهي! أخيراً سقط النافاجو الهندي الشرير الذي خطف فتيات من قريتهم أكثر من أيام حياته الفاسدة، أنت صياد رأس حقير! إن روحك السيئة قد تحطمت! سأشتريها لأريح رجل سونورا البائس بنذب جبينه

الكبير والذي فقد محبوبته بسببه.

قال رجل يرتدي ملابس سوداء:

-إنه سيئ جداً، أوافقك في ذلك، إنه يدفع نفسه في الطريق عبر ذلك الحشد ويتبعه اثنان من المساعدين، حصلت على إذن لأفحص جمجمة ذلك الرجل، فقط لأجد كسرا بها، لكن الفك مازال سليما لحسن الحظ، ورأيت أن أسنانه الحقيقة بدت كشيء نادر.

بعد ذلك بقليل تأملت العامة ودرست التاريخ الطبيعي لدكتور سيمس، كان الرجل لديه جوهرة جديدة؛ فكين بشريين بأسنان بيضاء واسعة الانتشار وحادة مثل المسمار، بعد ذلك بوقت قصير، أعلنت الصحف في "سان فرانسيسكو" انتحار سيد سكوت قبطان "العالم الجديد" تلك السفينة التي تخص شركة النقل البحري القديمة في "سكرامنتو" التي تم حرقها بوقادة النيران لسرقة صندوق حديدي من على متن السفينة.

هناك مجموعات سعيدة من السيدات اللاتي عشن في "بانشا" وصلت على ظهر حصان من "تاكنا" وفجأة خرجن من بستان شجر الفلفل في الوادي الضيق، خرجن إلى الطريق وأسرعنا نحوهن وهن منغمسات في ضحكاتهن المرححة التي كانت ناتجة عن قصة البارיום.

جاء أغسطس وذهب الحزن والدمار لكل مكان، ضُربت المدينة بموجات الخريف واضطر سكانها البائسون إلى الفرار، لم تعد أريكا، واكيكي وبيسجوا موجودين، وتدمرت "اركيوبا" تلك المدينة البيضاء ذات الألف قبة، تجول أبناؤها وبناتها بعيداً عن الحطام الذي يشبه الأشباح، وفي النهاية، أتوا إلينا ليجثوا عن طعام ومسكن.

قد نكون جميعنا أحياناً أشباحا للمدينة الجميلة، نركض إلى المحطة في كل وقت تصل شحنة سفينة من الجنوب، ولدينا أمل لرؤية الوجوه

المحوبة بين المهاجرين المكتئبين، تتحرك المشاهد المليئة بالعناق والدموع المتكررة دون انقطاع.

ذات يوم، رأيت رجلاً بين المسافرين الذين ينزلون من القطار الذي تبدو ملامحة مألوفة بالنسبة لي، لكنني لم أذكر اسمه، قد اختفى بين حشد كبير ولم أستطع رؤيته، بعد أيام قليلة كنت في الكنيسة كنت أحضر قداساً احتفالياً لقضاء العطلة، كان مذبج الكنيسة مغطا بالشموع والأزهار، كان البخور يحترق ويملاً الأرغن (آلة موسيقية) الكنيسة بتناغمه الرائع، جلست في ركن مظلم خلف الحاجز الحديدي المشبك، وفجأة أدركت أنني وحيداً، وبالقرب مني في نهاية المقعد يجلس رجل شاب غارق في أفكاره العميقة، تستند رأسه على يديه، لم أتعرف على وجهه المغطى بلحية سوداء طويلة وكثيفة، لكن المكان والانفعالات كشفت ملامحه، أرجعتني ذاكرتي إلى المسافر في ملجأ "أوشسوما" وقصته، عندما قلت اسم استيلا بصوت منخفض لف الشاب رأسه، تعرف عليّ وضغط على يدي، قلت له:

-باسم الرب، أخبرني ما الثروة التي امتلكتها وسط تلك الكارثة المخيفة، أتجمل بيتك المقدس الصغير الموجود على شاطئ تشيلي؟
أجاب الرجل الشاب الأركيوي بحماس قائلاً:
- نظفته الملاك الذي كانت تعيش هناك تحت أجنحتها.
استكمل حديثه قائلاً:

-قد تدمرت قبب القصور الهائلة، لكن ظل سقف أُمي المتواضع سليماً، واليوم هناك العديد من المنازل تدمرت كضحايا مؤسفة. ألن تفكر في أن تتخذها كزوجة لك؟
أجاب:

-لا! كان هناك شيء مختلف في حبي الأخوي لإستيلا، وضعت صورتها بين قلبي وأي حب جديد، وملأتها بالخوف المقدس.
-هل أنت قادر على رؤيتها؟
-لم يحالفني الحظ، إنها في المأوى، اتيت فقط لمدة كافية لبيع الملابس لأمد

شقيقي البائس ليعود إلى الوطن، ربما لم أكن قادراً على رؤيتها، لكنني على الأقل سأسمع صوتها.

في تلك اللحظة، أوضح صوت الأجراس التي ترن وسحابة البخور أن وشاح الكنيسة على وشك أن يرفع، ركع كل شخص، ودائماً كان ينطلق من المصلين الهادئين الصامتين صوت رائع حاد وعذب، يغنون ترتيلة للرب الخالد، انعطفت لأنظر إلى الرجل الشاب، لكنني لم أكن في حاجة لأسأله شيئاً؛ فقد أخبرني تعبير وجهه بأنه سمع استيلا، تركته راکعاً على الأرض؛ ضاع في نشوة شاطحة بدأت فيها رحلته الحلوة المؤلمة المليئة بالمغامرات والصعاب من المحيط الهادئ واستكملتها في المراعي المحيطة بسكرامنتو التي لعبت دوراً جميلاً.

الفهرس

٥.....	النأي
٥٩.....	كنز الأينكا
٩٣.....	خطية المتوفي
١١١.....	ابنة الماركيز
١٣٣.....	القفاز الأسود
١٦١.....	إذا كنت تخطئ فلا تتوقع شيئا جيدا
١٨٣.....	جوبي أمايا
٢٤٥.....	عام في كاليفورنيا